المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية وآدابها
فرع الأدب والبلاغة والنقد

# التاريخ في شعر البحتري

رسالة تكميلية مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

إعداد الطالبة :
سناء بنت محمد بن سعد آل يزيد الحارثي
الرقم الجامعي (٤٢٥٨٠٠٩٤)

إشراف سعادة الأستاذ الدكتور :
مصطفى حسين عناية

١٤٣٠-١٤٣١هـ

# المقدمـــة

لك الحمد اللهم علمتنا وما كنا لنتعلم ، وفقهتنا وما كنا لنتفقه ، وصلاة طيبة مباركة على من بعثه الله فهدى به الإنسانية ، صلوات الله وسلامه عليه عدد الحركات ، وعدد السكنات ، أما بعد...

فقد كان الوليد بن عبيدالله بن يحيى بن عبيد البحتري الطائي (ت ٢٨٤)هـ واحدًا من أكابر الشعراء الذين ظهروا في القرن الثالث الهجري ، ومن أشهر الذين تسنموا قمة الإبداع في حسن التعبير عن معانيه بوضوح وجلال ، فظهرت (نساء حسان ، عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلي) ، كما ذكر ذلك ابن الأثير ، وكان أبوالقاسم الإسكافي يقول في كتاب برد الأكباد للثعالبي : «استظهاري على البلاغة بثلاثة : القرآن الكريم ، وكلام الجاحظ ، وشعر البحتري» ، وقد لاقى ديوانه عناية خاصة من قبل المتعلمين والمعلمين على السواء ، وذاعت شهرة قصائده ذيوعًا واسعًا ، واستمر إلى هذه الأيام ، وقد بلغ الشاعر من الذيوع والشهرة ما بلغه أبوتمام في زمنه .

وقد اخترت أن يكون موضوع بحثي في الماجستير «التاريخ في شعر البحتري» وبعد انتهائي من السنة التمهيدية للماجستير عرض عليّ أستاذي الفاضل الدكتور : «مصطفى حسين عناية» الموضوع ، فاستخرت الله تعالى ثم عُدت إلى الديوان فألفيته واقرًا بالأحداث ، ورأيت أنه موضوع جدير بالدراسة ، فبعد استقرائي لنصوص الديوان وجدت أن الأحداث التاريخية التي أوردها أو استلهمها كثيرة جدًا ، ولا شكَّ أنَّ التاريخ سمة واضحة في شعره ، والعلاقة بين الشاعر وعصره علاقة باتنة للدارس .

وتظهر أهمية هذا الموضوع فيما يلي :

١ – أنَّ هذا الموضوع لم أسبق إليه من قبل فيما أعلم .

٢ – أنَّ هذا الموضوع يتعلق بمعرفة التاريخ في القرن الثالث الهجري وما له من مزايا وعيوب ، ولا شكَّ أنَّ هذا سيفيدني في تكويني العلمي .

٣ – أنَّ هذه الدراسة ستكشف عن شخصية البحتري التاريخية ، والفنية .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في فصلين يسبقهما مقدمة وتتلوهما خاتمة ، وذلك على النحو الآتي :

مقدمة : بيَّنتُ فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته وخطته والمنهج الذي سرت عليه في هذه الدراسة .

وقد درست في التمهيد العلاقة بين الشعر والتاريخ .

أمَّا عن الدراسة فهما :

**الفصل الأول** : التاريخ في شعر البحتري دراسة موضوعية ، وشرعت فيه بدراسة الأحداث التاريخية ، وجعلته في أربعة مباحث ، وهي :

المبحث الأول : شعر البحتري نتاج الأحداث التاريخية ، وذلك بتقديم الشواهد وتعريف الأحداث وأتبعته بالرواية التاريخية وتعريفها وأسبابها ومصادرها .

– المبحث الثاني : استلهام الأحداث وعرضت فيه بتعريف الاستلهام والعوامل التي حدث فيها الاستلهام ، وضمنتها دراسة العوامل السياسية ، والعوامل الاجتماعية ، والفنية والنفسية ، ودرست فيه القصائد المناسبة لكل عامل .

– المبحث الثالث : الجانب الوجداني والأخلاقي .

– المبحث الرابع : حياة المجتمع العباسي .

**الفصل الثاني** : الدراسة الفنيَّة ، وشرعت في المبحث الأول بالبناء الفني في شعر البحتري فدرست عشر قصائد مبتدأة بالمطلع ثم بنية الموضوع فالخاتمة للقصيدة .

– المبحث الثاني : المعجم اللغوي في القصائد التاريخية في شعره ثم نظرت في الألفاظ الأكثر شيوعا عنده .

– المبحث الثالث : الصورة الفنيَّة وفيها تعريف الصورة الفنيَّة مع بسط للدراسات القديمة في الصورة ثم وسائل استخدامها من تشبيه واستعارةٍ وكنايةٍ ومجازٍ ووسائل أخر ، ثم درست طرق استخدام الصورة الفنية من اقتباس وتضمين .

- المبحث الرابع : الموسيقى ، وتمَّ دراسة هذا المبحث ببيان الموسيقى الخارجية والداخلية وذكر النصوص المبينة لذلك .

- مناقشة القصائد وبيان النتائج في كل مبحث ما أمكن .

- قمت بترجمة الأعلام المغمورين في ظني من شعراء وخلفاء ووزراء...

- اتبعت طريقة التوثيق الكامل للهامش بذكر بيانات الكتاب عند وروده لأول مرة .

- خاتمة : سجَّلت فيها أهمَّ النتائج التي ظهرت لي في هذه الدراسة .

- وضعت الفهارس الفنية في نهاية البحث .

وكلي أمل أن يقع عملي هذا موقع الرضا والقبول ، وقد بذلت فيه ما وسعني الجهد ، ولم أضنَّ عليه بوقت أو بحث أو مشورة ، فإن أصبت فيما أسلفت فمن الله ، وأرجو من الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، ومدخرًا لي في صالح العمل ، ازدلفت به إليه يوم الحشر الأكبر وإن كنت أخطأت أوأسأت فأستغفر الله العظيم منه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

## شُكرٌ وتَقدِير

أشكر الله عز وجل الذي منَّ عليَّ بنعمة العلم ، وسهل لي سبله ، وشاء الله أن يكون هذا العمل الغراس الذي أحسبه عنده مقبولًا .

ثُمَّ أتقدَّم بوافر الشكر والعرفان إلى الوالدين الغاليين الذين من نبع طهرهما أوقدت آمالي ، ومن فيض حبهما جددت ترحالي ، حتى دنا ربيع العمر ، وافترقت أنفاس عطفهما عن يتم أحمالي ، رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته ، وجمعني بهما في مستقر رحمته ، فوالدي الحبيب لا أنسى فضله ما حييت ، ووالدتي الحبيبة التي تعلمت من مدرستها كيف تهيئ الأجواء المناسبة ، ودعمتني بكل معاني الدعم ، فزرعت في نفسي الحماس بأن أتقدم ولا يتقدمني أحد ، لكنني في هذا الوقت أذكر جميلهما فجزاهما الله عني خير الجزاء ، كما أسأل الله أن أكون بارة بهما بعد الممات .

كما أتقدم بالشكر لأسرتي الكريمة الذين كان لدعمهم أكبر الأثر في إنجاز هذا البحث ، وأخص بالذكر الأخوين العزيزين : مشعل بن محمد الحارثي ، ونواف بن محمد الحارثي وفقهما الله وجعل كل ما قدماه لي في ميزان حسناتهما ، وزوجي الفاضل : هاني الحارثي وفقه الله لما يحب ويرضى .

وحقيقة لم يكن لهذا العمل أن يخرج ويقوم على عوده بهذه الصورة لولا عناية الله ، ثم رعاية شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور : مصطفى بن حسين عناية ، الذي ما فتئ ينصح ويرشد ، ويوجهني لكثير من المواضع التي لاحظها في هذا البحث ، فقد وجدت فيه نعم المرشد الموجه ، وقد شد من عضدي في وقت كنت فيه بحاجة لنصيحة الوالد ، بل كان دائم السؤال ، وعودني على الصبر والتجلد ، وقد استفدت منه في كل ما كتبت ، فله الشكر الجزيل على ما ضحى به من جهد ووقت هو في أمس الحاجة إليه ، ولا أملك أخيرًا إلَّا الدعاء له بأن يجزيه الله أجر ما عمل ، ويطيل في عمره ، ويحفظه أبًا راعيًا لطلبة العلم ورواده .

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل لأعضاء اللجنة الموقرة الممثلة في الأستاذ

الدكتور «عبدالله بن إبراهيم الزهراني» ، وكيل كلية اللغة العربية ، والدكتور الشاعر «ناصر بن يوسف شبانة» الأستاذ المشارك بقسم الأدب ، على قبولهما مناقشة هذه الرسالة وتقويم ما اعوجَّ منها ، وما فات الباحثة في بعض الأمور ، والله أسأل أن يلبسهما لباس الصحة والعافية ، ويجزيهما عني خير الجزاء .

كما أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لجامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية ، وأخص بالشكر عميد الكلية السابق الأستاذ الدكتور : عبدالله القرني ، وعميدها الحالي الأستاذ الدكتور صالح بن سعيد الزهراني ، ورئيس قسم الدراسات العليا السابق الأستاذ الدكتور : عبدالله الزهراني ، والحالي الأستاذ الدكتور محمد دغريري .

والشكر موصول إلى كل من أسدى إليّ نصحًا أو مشورةً أو سدَّدَ خطأً ، أو وجه إلى صواب ، أو أعارني كتابًا ، وجزى الله مَن رأى نقصًا فأكمل ، أو زللًا فأحسن بي الظن ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التمهيد :

إنَّ النفس البشرية مجالها واسع ، تسبح فيه طاقتها الفكرية ، والوجدانية ، والثقافية بشكل يشبع رغباتها ويحقق وجهتها ، فمن المسلم به منذ وجودنا على وجه هذه البسيطة وحياتنا مليئة بالثنائيات ، سواء أكانت العلاقة بينهما متوافقة أم ضدية ، وفاقية أم عنادية ، ولا تجد حياة تخلو من هذا وذاك ، فالشراع ممتد ، جنة ونار ، إسلام وكفر ، نور وظلمة ، حق وباطل ، حب وكره ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[1] .

هكذا تبدو صفحة الكون خيرًا وشرًا ، ترادفًا وتضادًا ، توافقًا وتعارضًا ، والحرب سجال ، هذا على المستوى العام ، ولو حصرت الحدود في زاوية مستويات الخطاب لوجدنا تاريخًا وشعرًا ، ولكل خصوصية ومنحى ، ولاشك أن ما بينهما من ازدواجية يوقع في صدمة التعارض ما بين مصطلحين لا أكاد -في ظاهر الأمر- أن أجد توافقًا وتناسبًا بينهما ، لكنها محاولة جاهدة لاستكشاف ما بينهما في حدود المعالجة ليس إلا ، وإن كان ليس لي السبق في هذا ، فقد تقدمني صاحب الشعر والتاريخ[2] .

«ولا جرم أن الشعر استطاع -بكل ما أوتي من قوة- أن يمنح الذات الشعرية الإفصاح عما يدور بخلدها من إحساس وانفعال بالكون ، والحياة من حولها ، ثمة فضيلة أخرى تحسب له ، وهو أنه يفسح المجال للشعور بالانطلاق ، وللخيال بالتيه في معانٍ رحبة لا حدود لها ، وهذا يعني أن الشعر موقف ، وأداة ، ودعوة في الوقت نفسه إلى المثل والمبادئ الرفيعة ، ويحاول في كل هذا ، البحث عن قيم ومبادئ كادت أن تكون للسقوط أقرب ، فهو يصوغ الأشياء صياغة تدل على

---

(١) سورة البقرة : (١٤٨) .

(٢) انظر : نوري حمودي القيسي: الشعر والتاريخ ١٩٨٠م، بغداد . د.ط .

الإحساس بكل ما هو أجمل وأوقع وأخلد في نفس متلقيه»[1] .

ولا شك أنَّ محاولة الوقوف على شاعرية تتعدد فيها أوجه الخطاب ، بل وتتسع فيها مجالات التجربة لهو أصعب تفسير ، ومن ثَم هو خوض في غمار معركة نفسية خاصة ، وإن كان صاحبها ممن يحبون في طريقهم نحو بدايات مجهولة لا قرار لها .

لقد كان وما زال المجال أمام شعرائنا أكثر طلاقة وانسيابية ، لاسيما ممن يُشهَد لهم بقريحة شعرية خصبة ، ورؤى إبداعية ثرة ، وكانت لديه من العوامل المساعدة ما يحقق بواعث التجربة لديه .

«فالناظر في شعر البحتري يلحظ أنه أثرى ديوانه بمادة شعرية ضخمة ، فقد جمع في شخصه مزيجًا من ثقافات متنوعة ، وكان التاريخ مصدرًا ، واستلهامًا ، ومعينًا لا ينضب في قصائده ، كما أنه دليل ومزية على وعي الرجل بالماضي ، ومظهر من مظاهر جدارته ، حكَّمَ عقله ، وكان مخلصًا لتراثه ، مستفيدًا من حاضره ؛ إذ وظف المصادر التراثية -إلى أن ارتوى- توظيفًا يعكس إيحاءات متعددة في مجال الإنسان وحياته»[2] .

عُرِفَ أبوتمام بهذا الاتجاه ، لكن البحتري تاه في زحمة الشهرة لأكبر منافسي عصره وبالتالي كادت تُطْمَس هذه الظاهرة في شعره ، ومن حق هذه الدراسة أن تقدمه بقوة لاستكشاف أبعاد ربطه بين الشعر وتوثيق الحدث .

ومن العدالة بمكان قبل أن أفصل القول في وصف الظاهرة خلال مراحل زمنية ، أن أوضح ذلك عبر رؤى مختلفة تجلت في سياق استقرائي لديوانه ، هي كالآتي :

١ - الرؤية الشعرية .

٢ - الرؤية الإنسانية .

٣ - الرؤية الذاتية .

---

(١) انظر : سيد قطب : مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر ، دار الشروق ، د. ت. د. ط ص(١٥) .

(٢) د. حسن ربابعة : الصورة الفنية في شعر البحتري ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية . مخطوطة نوقشت (١٩٩٤م). إشراف: أ.د. عبدالكريم خليفة، ص(٢٨١) .

## الرؤية الشعرية :

يقول الشاعر[١] :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى  مِنَ الأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُم مَا بَدَا لِيَا

* * *

إنَّ محاولة الوقوف على مفردة دون تحديد أبعادها ، وتحويلها إلى مفهوم قابل للقياس ، والتقويم ، سيوقع في مأزق الترادف ، وبالتالي يصبح البحث عرضة للنقص والشك ، هذا من ناحية ، ومن جهة أخرى سوف يمنع مُقَدِّر الكلمة من الوقوف على دلالتها وإيحاءاتها التي تشع منها[٢] . وفي هذا السياق يجدر بي قبل الولوج في عالم الرؤية الشعرية أن أُعرِّف بالمفهوم .

فالرؤية في دلالتها اللغوية : يقال رأيته بعيني رؤية ، ورأيته رأى العين ، أي حيث يقع البصر عليه . والرِئي والرَواء والمرآة : المنظر ، والرئي والرُواء – بالضم – : حسن المنظر ، والبهاء ، والجمال ، فهي تقابل في الاستعمال العام شيئًا من الرؤية في الشعر[٣] .

ومما هو معلوم في اللغة أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى ، هذا يطلق على اللفظة الواحدة ، أمَّا في الإضافة كما هنا فيرجع الأمر إلى ما تفيده الإضافة وهذا مبثوث في كتب النحو ، فحين تضاف الرؤية للشعر تختلف الدلالة ، حيث إن رؤية الشاعر للكون ، والجمال ، والماضي رؤية متباينة عن الإنسان العادي، أو المتخصص ، وهي –إن صح القول– منبعثة من رؤية ذاتية إنسانية قادرة على توظيف أدوات الواقع ، والنظر فيها من زاوية عميقة ، ناضجة ، فطنة ، موائمة بين

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، (د.ط.)، ص(١٦٤) .

(٢) محمد طه عصر: مفهوم الإبداع في الفكر النقدي عند العرب، ط(١) ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، عالم الكتب، ص(١٧) .

(٣) جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، مادة رأى. ط. ٣، دار صادر بيروت .

المبنى والمعنى[١] .

وفي رأي كثيرين : لا يُسمى الشاعر شاعرًا إلَّا إذا شعر بما لا يشعر به غيره ، من معاني الشعر وأخيلته وتجارب الحياة ، ومذاهب الناس ، وهذا الإحساس هو ما عبر عنه في المصطلح النقدي (بالفطنة والذكاء) ؛ لأنه رأى الأشياء في صورة لم يفطن إليها غيره ، فأعاد صياغتها لتلائم مقدرته وتوجهاته ، وروح الإبداع المفطور عليها[٢] ، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : «روح الآدمي مخلوقة مبدعه باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة»[٣] .

فالشعر ليس قولًا موزونًا مقفى فقط ، وإن كان مثل هذا يمثل شكل الشعر لا روحه ، ويبين الخلل فيما ينظمه صاحبه ، فتلحقه عيوب من كل جهة ، وعليه حتى يصل إلى غايته أن يتوسع في علوم اللغة ، ويبرع في فهم الإعراب ، ويعرف فنون الآداب ، ويروي أيام الناس ، وأنسابهم ، ومناقبهم[٤] ، ثم إنَّ الشعر الذي يغرق في الجدل والمنطق والفلسفة ، مقتصر على آلة السمع والبصر ، لا يتجاوز أن يكون شعرًا سطحيًا ، هذا إن صح لنا تسميته شعرًا[٥] .

ولقد ظل (الشعر ديوان العرب)[٦] ، وظلت مضامينه الحية باقية بقاء الواقع التاريخي ، وعلى الرغم من كل المضامين التي تحرك فيها الشعر فقد ظلت أحداثه ومعانيه وألفاظه مجالًا من مجالات الاستشهاد في كل ميدان ، وذلك عندما بدأت الأمة تستعيد ذاتها ، وتنظر نظرة واعية إلى تاريخها ، وتوثق أخبارها[٧] .

إذن : إنَّ رؤية الشاعر للتاريخ رؤية حية تبعث روح الماضي المجيد من جديد ،

---

(١) محمد طه عصر: السابق، ص(٤٩) .

(٢) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية، صيدا، (١/ ١٠٤) .

(٣) ابن قيم الجوزية، الروح ، تحقيق بسام علي العموش ، ص٧٩ .

(٤) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق عباس عبدالستار ، دار الكتب العلمية، بيروت ط(١٠) ، ١٤٠٢هـ ، ص(١١) .

(٥) سيد قطب : السابق ص(١٥) .

(٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص(٣٤) .

(٧) نوري القيسي ، الشعر والتاريخ ص(٣) .

ومن ثم فإن اعتماد المؤرخ على الشعر -وما الطبري والمسعودي عنا ببعيدين- دليل على أنَّ الشعر جنس يتحول باستمرار بحكم مرونته ، وهذا ليس بغريب على من يتتبع حركة تاريخ الشعر ؛ إذ إن له إسهامات منذ أن عرف العربي قول الشعر ، فمواكبته للأحداث مع تغير خطة الرحلة الزمنية لكل عصر من العصور تجعل منه أنموذجًا حيويًا ناميًا ، وهذا لا يعني انحيازًا للشعر ، أو أن له أفضلية السير عند المؤرخين ، ولكنها مقدمات ترسل من بين سطورها أفكارًا وتساؤلات تتمحور في التاريخ في شعر صاحبنا .

«ولا ريب أن المجاورة بين الشعر والتاريخ ليست اعتباطية ، ولكنها تهدف إلى إبراز الثنائيات المتضادة : الشعر والتاريخ ، اللغة واللالغة ، ثم ما سر اقتران الشعر عند البحتري بالتاريخ ، هل من رابطة بينهما أم ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]؟!» .

لقد كان رصيد البحتري الشعري دليلًا على اهتمامه بالتاريخ ، بل إنه يعد ظاهرة صحية تشي بمعرفة أحوال العرب ، وأنسابهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، فهو يرصد تاريخًا اجتماعيًا، أو سياسيًا، أو أخلاقيًا .

ففي أكثر من ثلاثمائة وست وستين قصيدة يعرض ذلك ، وكان التاريخ الإسلامي مصدرًا هامًا وقف عند أحداثه يستلهم فيها قصص الأنبياء : سليمان ، ويوسف ، وموسى عليهم السلام ، ويستدعي تاريخ البيت الهاشمي ، ويذكر الشعائر الإسلامية ، ويكرر القسم بالأماكن المقدسة ، ويشير إلى مصطلحات مختلفة في علوم الحديث الشريف ، وقد ردد كثيرًا من الأسماء التاريخية بعضها يرجع إلى شخوص لهم في الذاكرة الجمعية مكانة في الدين والمجتمع[2] .

يتَّضح مما تقدَّم ، «حتى يكون الشاعر مبدعًا لا أن يكون ناظمًا ، عليه أن يبتكر ، وهو شاعر بفضل ما وهب من قدرة على الصياغة ، ومحاكاة للغير ، ولا ينقص من شاعريته أن ينتزع موضوعه من الواقع التاريخي ؛ إذ إن بعض الأحداث التاريخية قد

---

(١) سورة الأنبياء : (٣٣) .

(٢) عبدالله التطاوي، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات، د.ط، دار غريب ، القاهرة ، ص(٩٠) .

يكون واقعًا في نطاق ما هو محتمل أو ممكن ، وحين يتناول هذه الأحداث من هذه الناحية يعد شاعرًا قديرًا[١] .

ولعلَّ مَن يقرأ سيرة الخلفاء والوزراء يُدرك أنَّ للتاريخ قيمة عندهم ، وقد فطن البحتري لهذا ؛ إذ عرف ما يدور في مجالسهم عن الأيام ، وعن تغير الأحوال عبر أزمان مختلفة ، وأراد في سبيل ذلك أن يثبت تفوقه للآخر ، وأن يسحب البساط من غيره حتى يصبح نديمًا لهم ، فنال الحظوة وكان له ما أراد بعد هضم للثقافة قديمًا وحديثًا ، فاتسع زاده العلمي[٢] .

ولا شكَّ أن عيشته في ظل الخلافة العباسية ، وعلى وجه الخصوص بلاط المتوكل ، ونهله من ينابيع الحضارة ، والثقافة العربية ، والفارسية في شتى صورها ، من أقوى الدوافع -إن لم تكن أعظمها- في تشكيل عبقرية شعرية ترسم حدود المكان وروح الزمان ، ثم إنه عندما يدخل بريشته على عتبة الخلافة العباسية تنهمل قصائده انهمالًا على أرض خصبة ، فتتلون بألوان الواقع مازجة بين الآفاق المتباعدة ؛ لتعطي لوحة زاخرة بمدركات حسية ملموسة في القصور ، أو في مشاهد المعركة ، أو في رحلة الخلافة ، حينها علينا أن نشخص بأبصارنا إلى السماء لنحلق في فضاء إبداعي متوهج ثابت بقاء الحياة[٣] .

لذا فإنَّ طبيعة الموقف تفرض عليه روافد زمانية مكانية في آن ، فقد تعددت مشاهد المكان فانبجست منه أحداث تحمل فوق كاهلها رؤية إنسان ليطل بعنقه من نافذة التاريخ ، وطالما كانت هذه رؤيته فإن معنى ذلك أنه يثير في ذهنه ماضي الإنسان ، وماله من دور في صنع حضارة ، ومجابهة مشكلة ، واتخاذ قرار ، وهو حين يرنو إلى هذا حري به أن يتنبه للحس التاريخي ، وأن يسترشد به في وعي

---

(١) ديفد ديتشس ، مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ترجمة : محمد يوسف نجم، دار صادر ، بيروت ، ص(٢١٩) ، وما بعدها .

(٢) أحمد أحمد بدوي ، البحتري، دار المعارف (د.ط)، ص(١٤٥) .

(٣) د.صالح حسن اليظي: شاعرية البحتري رؤية في إبداع القرن الثالث، ١٩٩٤م، دار العوم ، ص(٦٤) .

ليدرك سنن الله في خلقه ، وطبيعة فطرهم ، ومن ثم فإنَّ النفاذ إلى لب الحياة الماضية موضوع التاريخ ، ماضٍ لم يبق منه إلا أمارات أو أنقاض بوساطتها يعاد بعثه ، وموضوع الفن هو الماضي ، لكنه ماضٍ باقٍ ، فالفن من الماضي والحاضر معًا[١] ، فذكر صلح بني تغلب ، أو استلهام موقعة صفين ، أو ذكر أمر بيعة المتوكل على الله لبنيه ، أو حتى الوقوف أمام قصر الكامل أو إيوان كسرى ، أو تجسيد حادث السقوط للفتح بن خاقان ، كلها ماضٍ يعيد الشاعر بناءه في قالب فني . بل إنَّ هذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل على استجابة للصوت الواقعي ، وكيف أن الشاعر نتاج لبيئته ، وممثل لجماعته[٢] .

وهذا أمر لا شك فيه ولا جدال ، فالشاعر العربي يتغنى بعواطفه ومشاعره الذاتية ، بل قد تتلاقى خواطره بعواطف آخرين ممن يشبهون الشاعر ، ويكون بذلك له دلالة اجتماعية ، وبذا نناقض ما قاله أرسطو بأن الفن الجيد هو محاكاة لأغراض اجتماعية ، وبذا نفي الشعر الغنائي من مملكته[٣] .

وهو يرى أنَّ على الشاعر ألَّا يتأنَّق في اللغة ؛ لأنه يخفي الأخلاق ، والأفكار ، بل من المفترض أن يمثل الأشياء كما كانت في الواقع أو كما يتحدث عنها الناس ، أو كما يجب أن تكون حتى يكشف عما يريد من وراء تصويره للواقع من إكمال له ، وبهذا يكون الممكن ، والمستحيل ، والمحتمل من طرق المحاكاة عنده[٤] .

هذا وإن كان يجري على مذهب الفن الأرسطي فهو ربما لا يمثل بحال من الأحوال ما في شعر الرجل ؛ إذ إن مهمته نقل وقائع كما ظهرت في تاريخها العربي دون تكلف الإتيان بحوادث لم تقع بالفعل[٥] .

---

(١) د.محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص(٣٩٧) .

(٢) د.محمد مندور، السابق ، ص(٤٠٠) .

(٣) د.محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص(٥١) .

(٤) نفسه ص(٥٤).

(٥) د.نصرت عبدالرحمن، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ حتى نهاية القرن الرابع ، ط(١)، ص(١٥٢).

فأبوعبادة عندما تضطره شاعريته إلى اقتصاص خبر أو رواية ما وقع، يدبره تدبيرًا بشكل يشعر بسلاسة القول ، واطراد المعنى ، ويبني هذا كله على وزن مخافة أن تفلت المجاديف من يمينه بما يحتاج من زيادة في الكلام أو نقص منه، قد تكون الزيادة والنقصان فيه غير صالحة بعدما أمل أن تكون مؤيدة له، وزيادة في حُسنه ورونقه[١] .

وهكذا فإنَّ تعبير الشاعر دلالة ناطقة ، وشعور ناتج من تفاعل قلبه مع ما يدور حوله من أحداث ، ومواقف ، بل إنها تمنح المتلقي صورة عريضة لما كان يسود الناس في عصر ضج بالمعرفة ، واختلف فيه موقف العربي ، وأفكاره ، وتطلعاته ، ولا بدَّ حينئذ من تأكيد أهمية الشعر في دراسة هذه الجوانب ، فقد ظل الشعر العربي خزانة كبيرة لوقائع التاريخ ، وأحداثه ، وقصصه ، وأخبار شعوبه البائدة[٢] .

ولا يخفى على ذي لب المجاورة بين الشعر والتاريخ ؛ إذ تبدو الظاهرة محسومة بطبيعتها ، لكنها في حاجة إلى مزيد من التأمل والتعمق ، خاصة إذا وضع في الاعتبار أن التاريخ في شعر البحتري يظل بمثابة الخلفية الأساسية التي تسعى إلى الإلمام بدراسة جوانب النص الشعري[٣] .

تلك هي الحالة المعرفية -السالفة الذكر- لرواية التاريخ شعرًا عند شاعرنا ، لذا فإن تعاقب حركة الزمن لا يتيح للجديد أن يظل جديدًا ، فهو لا يلبث أن يتغلغل في اللحظات المنغلقة نحو الماضي ليصير قديمًا ، لكن بعض القديم في الحساب الزمني يبقى منجزًا إنسانيًا يعتمد عليه أحيانًا في فهم الحاضر الجديد ، بل يظل على الأقل لبنات أساسية لا غنى عن تفحصها بين حين وحين لإبراز ما هو أصيل فيها .

إذن ليس ثمة انقطاع حقيقي بين قديم وجديد ، ومن البدهي أنَّ الرؤية الشعرية في نتاج البحتري التاريخي يطرح إشكالية أولية : كيف نستطيع أن نقيم علاقة

---

(١) ابن طباطبا العلوي، نفسه ص(٤٧).

(٢) نوري القيسي ، السابق ، ص(٤٩).

(٣) د.عبدالله التطاوي، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م (د.ط)، ص(٣١) .

جدلية بين الشعر والتاريخ؟ وكيف يمكن للشاعر رواية التاريخ شعرًا؟ الأمر من العسر بمكان إن لم يكن مستحيلًا ، فكان لابد من طرح فكرة التاريخ في الكشف عن الرؤية الشعرية.. مستأنسة بما فعله أستاذي الدكتور/ عبدالله التطاوي ، في : (الشاعر مؤرخًا) . وعفت الشرقاوي ، في : (أدب التاريخ عند العرب) ، الذي يعيد هذا الاختلاط إلى خصوصية الحضارة العربية الإسلامية[١] ؛ إذ هي حضارة قائمة على أساس النص[٢] .

وهذا ما لاحظته على شعر البحتري ، ولكن ألا يصح في هذا العصر الذي تقدمت فيه أدوات البحث النقدي والأدبي أن أغض الطرف عما استجد على الساحة العربية ، حديث البحتري عن الأحداث شعرًا ، ألا يدخل في إطار ما يسمى اليوم الالتزام[٣] ، ونظراته الجمالية ألا تدخل في حيز الشعرية[٤] ، بل واستلهامه لكثير من الشخصيات، ألا يدخل فيما يسمى بالتناص[٥]؟! .

ولا شك أن رائدي في ذلك كله ما ألف من مؤلفات سابقة عن الشاعر ، ليتسنى لي التعامل مع أبي عبادة بعين جديدة قدر المستطاع ، يتيح لي الكشف عن معين عذب المورد ، غزير العطاء ، لم ينل حقه من الدراسة على هذه الشاكلة ، بل ربما سارت قربه الركبان ، ولم تكتشف سوى النزر اليسير من إمكاناتها ، لكنه لم يفُتْنِي وأنا أسارع الخُطَا على الدرب أنَّ لدراسة الشاعر في ماضي الإنسانية أثرًا في وقوعي في مأزق مسكت بطرف خيطه ؛ إذ إن الإشكالية منبعثة من إهمال الجانب التاريخي في الدراسات السابقة ، لا لنقص في نظر الباحثين السابقين ولا في قدراتهم ، بل

(١) د.عفت الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، لبنان.

(٢) عبدالله التطاوي ، الشاعر مؤرخًا ، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٥م وانظر: حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، دار الثقافة ١٩٩٣م.

(٣) بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية .

(٤) د.فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ط، د. ت، وانظر: (للمؤلف نفسه) : تجليات الشعرية قراءة في الشعر المعاصر، د. ط، د. ت ، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ص(٥) وما بعدها .

(٥) نفسه ص(٩) .

الأمر يعود إلى كونهم تعاملوا مع النص بمحدودية ، لا تتجاوز النصوص تحليلًا شاملًا أو جزئيًا ، وهم بذلك نسوا أن الشعر جنس يتحول باستمرار بحكم مرونته ، على الرغم من أن الشاعر يدور في فلك النظرية ، ويسعى لتأصيلها في شعره ، ولا غرابة في هذا ؛ إذ نجده يؤسس نظرية قائمة في محتواها ، ومضمونها ، وتصورها ، على ما رسمه في ذهنه بناء على أصداء الأحداث ، التي كان لها عمق في وجدانه ، فدلل بذلك في أكثر من بيت بهذه النظرية التي لم يلتفت إليها في شعر الرجل ، التي طغت بشكل أو بآخر على شعره ، ولا شك أن هذه النظرية لها بذورها ، ولها جذورها الممتدة الصلبة التي يصعب نزعها من أدبنا القديم ، سواء أكان من الشعر الجاهلي أم الإسلامي ، أم شعر النقائض أم عند شاعرنا ، التي كان من نقص الاهتمام بها أن تأخرت صياغتها .

فعلى سبيل المثال : عرفت العرب نوعًا من التاريخ ، فقد كانت القبائل تروي أيامها ، وحروبها ، وانتصاراتها ؛ لتفخر بها على القبائل الأخرى ، سواء كان ذلك شعرًا خالصًا أم نثرًا تتخلله الأشعار ، ولم تكن الصلة واحدة ، دوامًا بين الشعر والتاريخ ، فأحيانًا تكون القصيدة شرحًا للخبر بكل تفاصيله ، وأحيانًا عرضًا للبطل دون أن تربطه صلة بالخبر الموثق ، وكان الرجل في كلتا الحالتين يحافظ على نقل الخبر ، وانتشاره ، حتى وإن كان نسيًا منسيًا لدى العرب ، فإنه بهذا يعقد قرابة بينه وبين هذا الخبر[1] ، ومن المعروف أن جل ما رواه من تاريخ قائم على أساس واقعي ، غير ما أتى به في شعره مثل صراعه مع الأسد[2] .

وعلى هذا فإنَّ التاريخ الذي كسا شعر البحتري يمكن تقسيمه إلى :

- قسم يتعلق بالتاريخ السياسي بما فيه من ولاية ، وخلافة ، وصراعات .
- وقسم يتكئ فيه على موقفه من ذاته ، ومن غيره .

---

(١) د.علي أحمد الخطيب، الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص(١٤٢) وما بعدها .

(٢) ديوانه ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، ١٩٧٧م ، القاهرة ، ط(٣) ، ٢/ ٧٤٠ .

وعلى هذا النحو استطاع أن يطوق التاريخ بحصار الفكرة التعبيرية ؛ إذ قد شكل من فكرة واحدة أنماطًا عدة للتوثيق ، ففي موقف الخلافة مثلًا ، يصبها في منبع من منابع القداسة التي سوف تجعل منها هبةً ، وفضلًا ، وأحقيةً ، يختص بها إنسان دون آخر ، وتارة مسؤولية ، ودافعًا قويًا لطغيان شخصية الخليفة ، كأنما هي تحمل على كاهلها التناقض[1] .

كما سيأتي في سياق حديث الباحثة في المباحث الآتية .

إذن : النص يمتد مناسبًا لذوق الشاعر الملتزم بأحداث عصره ، التي تجعل منه أحيانًا مرضيًا لغيره لا لشعوره .

---

(١) محمد أحمد النهاري، أثر القصر في شعر البحتري، رسالة ماجستير (مخطوط)، جمهورية اليمن العربية، جامعة صنعاء، ١٩٩٢م، إشراف أ.د محمد عبده غانم، ص(٢١٤) .

# الفصل الأول :

# التاريخ في شعر البحتري دراسة موضوعيَّة

وفيه أربعة مباحث :

## الرؤية الإنسانية :

- المبحث الأول : شعر البحتري نتاج الأحداث التاريخية .
- المبحث الثاني : استلهام الحوادث التاريخية في شعر البحتري التاريخي .

* الرؤية الذاتية :

- المبحث الثالث : الجانب الوجداني والأخلاقي في شعر البحتري التاريخي .
- المبحث الرابع : حياة المجتمع العباسي من خلال شعر البحتري التاريخي .

## المبحث الأول : شعر البحتري نتاج الأحداث التاريخية .

وفيه :

* البحتري بين التاريخ والرواية .
* الرواية التاريخية في شعر البحتري .
* أسباب اهتمام الشاعر بها .
* مصادره .
* موضوعها .
* منهجه .

* الرؤية الإنسانية :

ثقف البحتري ثقافة أعانته وأهلته لاستيعاب ظروف عصره ، فبقيت نصوصه تلمس جوانب من تجارب الحياة وأحوال الأمة ، وظلت الملامح الإنسانية صورة مشرقة في قصائده ، تعكس مدى ما حققه العربي في السعي إلى تحقيق إنسانية الإنسان ، بل تعددت إنجازات ابن العصر ، وصارت شكلًا للمرتكزات الحضارية للبناء ، والمنطلقات الأساسية في إعادة تقييم الحاضر ، وتصوير المراحل المختلفة لماضي الأمة ، ولهذا أصبح الإنسان الواعي لوجوده في خضَمِّ هذه الأحداث على صلة بها ؛ إذ سمحت له الظروف آنذاك بأن يكون قادرًا على إدراك دوره ، وتقرير مصيره ، وتحديد وجهة نظره ، ومن ثم كان تعامله مع الجمهور تعامل الاستجابة الإنسانية ، فبدا التاريخ واضحًا في ديوانه[١] .

بل إنَّ هذا التداخل بين نصوصه الشعرية والتاريخ يمنح القارئ المزيد من التأويلات إلى أبعاد فسيحة ، يلتقي فيها ذهن العربي بأيامه الخوالي حين ينتشي الفرح في سمائه في أحاديث السمر ، والدأب على أسلوب القص ، سواء ما انتشر كظاهرة عامة في حياة المجتمع القديم ، أو ما كان منها على المستوى البطولي ، والحربي ، والتغني بأمجاد القبيلة ، وذكر شرف أيامها ، وما كان لها من مكانة في صنع قرار ، كل هذا وذاك بدا ظاهرٌ بل ضرورة لإشباع رغبات الناس ، وحاجاتهم ، على مختلف مشاربهم ، وهم بعملهم هذا يحتذون منهجًا تاريخيًا متأرجحًا بين قصص شعري ، أو نثري ، أو خطب ، وكلها صيغ كلامية تلتقي في بوتقة فن القول الذي يحفزني للقول بأن التاريخ فن نثري من فنون النثر العربي القديم[٢].

---

(١) نوري حمودي القيسي، الأديب الالتزام، ١٤٠٠هـ دار الحرية للطباعة بغداد، بدون طبعة، ص(١٢٨).

(٢) انظر: د.عبدالله التطاوي: حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ ، ص(٦٣)، وانظر: للمؤلف نفسه الشاعر مؤرخًا ، ص(١٢) .

أ - البحتري بين التاريخ والرواية[١] :

يعيش الناس في كل زمان ومكان ، حياتهم الخاصة والعادية ، لكنهم أيضًا يحكون في كل يوم ما يتعلق بهذه الحياة ، بيد أن أحداثًا مهمة من هذه الحياة انثالت عليهم ، واستوقفتهم ، وتداولتْها ألسنتُهم في مختلف المناحي ، وقس على ذلك أخبار الجاهلية .

ولقد ارتقب أبوعبادة اللحظة التاريخية في نصوصه ، ومن ثم حاول رصدها في صياغة فنية ، وقد مكنته قدرته اللغوية من استيعاب القضية ، وبذا تكون شاهدة بأنَّ الشعر كان لا يستصعب على البحتري[٢] ، فصاغ الأحداث صياغة تنبئ عن أن أبا عبادة لا يقف عند حدود الشاعر المعزول ؛ إذ ولج النفوس فسبر أعماقها ، وأدرك بذكاء مفرط وجهتها وما ينتاب أواصرها من قوة وضعف ، فكيف الحال به وقد خاض صراعات ، وكانت له بطبيعة الحال محاولات جادة في إيقاف هذه الصراعات[٣] ، وأكد ذلك مواجهته لكل من يأبى إبراز فكر الإنسان ، وهويته ، ودينه ، وتثقيفه ثقافة دستورها كتاب الله وسنة نبيه محمد بن عبدالله ﷺ ، وهذا بحد ذاته يساعده على مواصلة سيره إلى طريق الوحدة والجماعة[٤] ؛ إذ إن «يَد اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ»[٥] .

وما دمت في سياق الحديث عن الأحداث ، فسوف أقف على ما جاء في اللغة :

---

(١) هناك بحث بعنوان الرواية التاريخية للمؤلفين : قاسم عبده قاسم، أحمد إبراهيم الهواري : الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ، دار المعارف – مصر ١٩٧٩م ، ص١٣ .

(٢) شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني ص(٢٩٢).

(٣) نوري القيسي، السابق ص(٦).

(٤) عبدالله التطاوي، حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية، دار غريب للطباعة ، القاهرة، ص(٢٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٤٦٦ ، رقم الحديث (٢١١١) ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة .

فقد أتى في لغة العرب :

«الحدث : قيل إنه الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ، ولا معروف في السنة ، حدث/ الحديث : نقيض القديم ، والحدوث : نقيض القُدْمه . حدث الشيء يحدث حدوثًا وحداثة وأحاديث ، وأحدثه هو : فهو مُحْدَثٌ ، وحديث ، وكذلك استحدثه ، والحدوث كون الشيء لم يكن ، وأحدث الشيء فحدث ، وحدث أمر أي وقع ، والحدث : من أحداث الدهر شبه النازلة ، والحدث : موضع متصل ببلاد الروم»[1] .

وقد أشار ابن النديم في كتابه الموسوم بالفهرست إلى أنَّ «التاريخ صنف من التأليف عن الأخبار ، فالحادثة المضمنة في رمز يدل عليها هي ما توحي به كلمة خبر»[2] .

«ثم تأتي هذه الازدواجية منبعثة من نشوء الوثيقة بعد حدوث الحادثة ، مقدار مطابقها ، وكيف يستنبط الواقع منها ، فالأول متعلق بالشاهد المباشر ، والثاني بالراوي الذي يأتي ، إلا أن اختيار أحد الموقفين في مستهل التحليل يتحكم مسبقًا في الخلاصة ؛ إذ يستتبع نظرة خاصة للتاريخ كواقع ، وكمعرفة ، فقد يقع الخبر ويختص بالمملكة الإنسانية ، وقد يختص بخبر دون غيره ، وقد يختص بالدولة الإسلامية ، وقد يكون أعمار الأعيان ووفياتهم بخبر دون غيره ، وقد يختص في اختطاط البلدان ، والحدث هو العمل الخارق الذي يدل على همة فاعله ، وقد يحاول البعض أن ينوع العبارات ، فيسمي المعركة واقعة ، والأمر الطبيعي حادثة ، والإبداع الفكري نكتة ، لكن ما يجمع بينهما هو الحدوث أو الظهور في التوالي الزماني وفي السير العادي»[3] .

وقد كثر ورود الحادث ، والحادثة ، والحوادث في شعر البحتري ، مثل قوله[4] :

---

(١) ابن منظور، مادة (ح د ث)، دار صادر، ط٢، (٢/ ١٣١).

(٢) ابن النديم، الفهرست ص(٧٦).

(٣) عبدالله العروي، مفهوم التاريخ، ط٣، ١٩٦٧م، المركز الثقافي العربي، بيروت، (١/ ٨٦).

(٤) ديوانه (٣/ ١٥٦٨).

جَعَلْتُ فِدَاكَ الدَّهْرَ لَيْسَ بِمنْفَكّ ... مِنَ الحَادِثِ المشْكُو وَ النَّازِلِ المُشْكِي

وقوله[١] :

زَكَتْ بِالفَتْحِ أَحْدَاثُ المَسَاعي ... وأَوْضَحُ دَارِس الكَرْمِ المَحِيلُ

وقوله[٢] :

بِعَدُوِّكَ الحَدَثُ الجَلِيلُ الوَاقِعُ ... ولِمَنْ يُكَابِدُكَ الحِمَامُ الفَاجِعُ

وقوله[٣] :

فَيَا وَيحَ الحَوَادِث كَيْفَ تُغْطِي ... شَقِيَّ القَوْمِ مِنْ حَظِّ السَّعِيدِ

وقوله[٤] :

تَعَاظَمَت الحَوَادثُ حَوْلَ حَظِّي ... وَشَبَّتْ دُونَ بُغْيَتِي الحُرُوبُ

وعندما يقع الحدث تهرع حوله لغات مختلفة لأجناس مختلفة ، فعندما يوثق الشعر الحدث تتباين تغطيته عن الرواية مثلًا ، وعندما يوثق الحدث من مؤرخ دون أدنى شك يختلف في التوثيق عن الشاعر ، وأحيانًا تغفل المصادر التاريخية عن نقل الخبر ، فيأتي شاعر ويسعى لروايته عن كثب وهذا يقوي شوكة الشعر ويقف في طريقٍ مُوازٍ للتأليف التاريخي . بصورة أخرى[٥] ، «فالمؤرخون وجدوا في الشعر مادة في الاستشهاد ، وركيزة من ركائز الاعتماد ، وصوتًا من أصوات الحقيقة التي بقي الشعر حريصًا على أدائها ، ودفعهم إلى الإكثار من الاستشهاد به ، وقد دلت الأحداث على أنَّ الشعر كان وثيقة من الوثائق المعتمدة في التدليل على سلامة الأحداث ، ولم تكن عادة الاستشهاد به حالة طارئة انفردت بها كتب معينة ، أو عرف بها مؤلف ، أو اقتصرت على فن أدبي وحده ، وإنما كانت الكتب على

---

(١) نفسه (٣/ ١٧٣٧).

(٢) نفسه (٢/ ١٣٧٢).

(٣) نفسه (١/ ٥١٨).

(٤) نفسه (١/ ٢٨٥).

(٥) عبدالله التطاوي، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ ص(٦٣).

اختلاف موضوعاتها وفنونها تضم شعرًا كثيرًا»[١] .

ثمة حقيقة هامة ينبغي أن تدون ، وهي أنَّ دراسة الشعر بجوار الحدث دراسة ماسة من أجل إعادة النظر في الأبعاد السياسية والثقافية والاجتماعية والجمالية في زمن بعينه يبدو فيه الشاعر علمًا من أعلام التاريخ .

ولا شك أن نتاج البحتري الشعري مظهر من مظاهر الحياة العباسية ؛ إذ يجد الدارس لنصوصه كل تيار للفكر ، والمشاعر التي امتدت بطبيعتها إلى الأحداث السياسية والاجتماعية ، وهذا أمر لا غبار عليه ، أخذ القسمة في طرح أفكاره لا على سبيل الإخبار ، ولا على صورة التفوق فحسب ، بل من منظور كَسْبِ الرضى عن نفسه بالدرجة الأولى ، ومن ثم كسب قلوب الخلفاء الذين عاصرهم ، فذهب يصرح -في أكثر من تسع مئة وثلاثة آلاف بيت- في طبيعة الحياة العباسية ، حتى عندما تهاوى الصوت الخلافي -في لحظة أقرب إلى الخيال- عند حادثة قتل أول خليفة عباسي ، قرأ ما في نفسه بملء فيه ، وبالتالي كان أقرب في روايته للخبر للعين الراصدة ، ونجم عن ترقبه لحياة من حوله أنْ وجّه معظم طاقته لرصد اللحظة التاريخية[٢] .

وفي سلسلة مثيرة من الأحداث رصف أبوعبادة ذلك كله من زاوية انفعاله التي دفعت به في كثير من أحواله إلى استنباط ما يدور في أعماقه من تجارب ، وما يعكسه موقفه منها ، ومن ثم تحولت آلته إلى نموذج خاص ، تتعدى مرحلة الإفهام أو التلخيص إلى ترسيخ مرحلة من مراحل التذوق الجمالي من خلال التصوير ، والاستعانة بلغة المجاز في نقل الحدث ، فتراه ينطلق في معظم حالاته من منطقة شعوره ، وفي أحيان أخرى قد يجمع بين العقل والشعور ، عندما يحاول إقحام مصطلحات العلوم أو تطويعها لعمله الفني[٣] .

ومن هنا يتجلى لي أمران :

(١) انظر : نوري القيسي، الشعر والتاريخ، بغداد ١٩٨٠م ، د.ط ، ص(١٧) .

(٢) انظر : عبدالله التطاوي، حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية ص(١٢٩).

(٣) انظر : عبدالله التطاوي ، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، ص(٣٢).

أحدهما : عمل الشاعر في الحدث .

ثانيهما : عمل الحدث في الشاعر .

وسيأتي تفصيل هذا في سياق هذا الفصل .

ولهذا يمكنني القول : إنَّ التاريخ بدأ سيدًا في الموقف الشعري عند شاعرنا ، وهو بتصرفه هذا يظهر شاعرًا لبقًا فقيرًا في بداية حياته ، مجاهدًا في كسب رزقه ، ينظم شعرًا جيدًا رقيقًا حتى بز أقرانه[1] ، ودخلت موسيقاه آذان مجتمعة بدون استئذان ، وفوق هذا وذاك برز في صورة مؤرخ بارع ألف تاريخ حياته ، وحياة عصره ، في نصوص شعرية أشبه ما تكون بالبحر ؛ إذ تحولت في غالبيتها إلى أدب إنساني رفيع ؛ إذ لم ينأ عن حركة الحدث ، سواء منه مالمس هموم مجتمعه ، أو ما شارك فيه من حرب ، أو ما اكتسبه من تعلمه لحركة التأليف الجديدة لعلوم عصره ، صحيح أن الموضوعية تنقصه في نقل الخبر ؛ إذ تأخذه روح الحماس والاندفاع في أحيان إلى تضخيم حجم الحدث ، وبخاصة عند مدحه للقائد ؛ إذ ينصرف إلى الوقوف عند المعاني التي تليق بالممدوح من بأس ، ونجده بالتالي ذكر للواقعة عرضًا في سياق انشغاله بالشخصية[2] . وهذا إن دلَّ على شيء فهو دليل على أنَّ الشاعر يراعي مهمته كشاعر ، وينقاد لما يرضاه عنه نقاده ، وكأنه يومئ من طرف خفي في بعض قصائد المدحية للواقعة على استحياء ، وأحيانًا نجده من أهل التخرق في البذل التاريخي للحدث ، فيصفه وصفًا (يقلب السمع بصرًا)[3] ، وهذا وكما سبق أن ذكرت أن ثقافة الرجل التاريخية ساعدته على أن يكون شاهدًا أمينًا على ما جاء في عصره ، فاستظهر قواهُ وبيّن ما كان يسود تلك الحقبة من فتن وحروب ، سواء فيما تعلق بالمستوى الخارجي أم الداخلي منها ، سجلت لنا كتب التاريخ جل ما دار فيها غير ما أثقل كاهلها فأعياها تسجيلها ، ولم يفت شاعرنا تسجيلها وعن

---

(١) د.عبداللطيف شرارة، سلسلة شعراؤنا القدامى، أبوعبادة البحتري، دراسة مختارات، ط١، ١٩٩٠م، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ص(١١) .

(٢) عبدالله التطاوي، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ ص(٦٨) .

(٣) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية، صيدا، (٢/ ١٤٩) .

قرب لكونه -كما سبق أن ذكرت- من المشاركين فيها ، أو جاءته الأنباء بما دار فيها من قتال[١] .

وحسبي دليلًا على ذلك قوله[٢] :

سَلاَمٌ عَلَى الفِتْيَانِ بِالشَّرْقِ إِنَّنِي ... إِلَى الجَانِبِ الغَرْبِيِّ يَمَّمْتُ وَاغِلاَ
مَعَ اللَّيْثِ وابْنِ اللَّيْثِ أَضْحَى مُغَاوِرًا ... حُمَاةَ الضَّواحِي ثُمَّ أَمْسَى مُقَاتِلاَ

فهو يخاطب أصحابه بالسلام ، وهو يسعى إلى السلام الذي حتى يتحقق شيء من أسبابه الذود عن الحمى ، والشجاعة والخوض في غمار القتال ، فقد ملأت الشجاعة نفسه إن لم تكن ملكته مع ابن الثغري .

وفي موضع ثانٍ يعبر عن مشاركته للحرب بقوله[٣] :

فَلَوْلاَ عَفَافُ البُحْتُرِي ومِنُّه ... عَلَيهِمْ لَمَا آبَتْ بعَوْفٍ ولاَ فِهْرِ

فالبيت يضيء جانبًا من حقيقة الشاعر المعنوية فهو يعف ، ويمن حتى على أعدائه .

وكما اعتمد العربي قديمًا على ذاكرته في نقل الرواية الشفهية للأخبار والشعر على السواء ، هكذا بدا البحتري أو كاد راويًا للأحداث .

---

(١) زيد بن محمد الجهني، شعر الحرب بين البحتري والمتنبي دراسة وموازنة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٤١٠هـ ، ص(٢٢) .

(٢) ديوانه (٣/ ١٦٠٠) .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٨٤) .

ب – الرواية التاريخية في شعر البحتري :

يحسن بي قبل أن أعرض لما روى الشاعر من أحداث ، ومدى ما رصده من مواقف ، وبيان موقفه منها ، أن أفرش البساط لذلك بتعريفٍ لمصطلح الرواية لغة واصطلاحًا .

جاء في لسان العرب : رَوَى ، ورَوِيَ ، ورَوِيٌّ ، ورواةٌ ، كثير مروٍ ، ويسمى البعير راوية على تسمية الشيء باسم غيره ؛ لقربه منه ، ويقال للضعيف الوادع : ما تَرُدُّ الرواية ، أي : أنه يضعُف عن ردِّها على ثقلها لما عليها من الماء ، ورويت القوم أرويهم : إذا استقيت لهم الماء ، وروى الحديث ، والشعر يرويه رواية وتروّاه[1] ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : «تروّوا شعر (حجية[2] بن المضرب) فإنه يعين على البر، وقد روّاني إياه»[3] .

وقال الفرزدق[4] :

أَمَا كَانَ فِي مَعْدَانَ والفِيلُ زاجرٌ  لِعنبَسَةَ الرَّاوِي عَلَى القَصَائِدِ

وراوية كذلك إذا كثرت روايته ، وقال روّى فلان فلانًا شعرًا : إذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه[5] .

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ر،و،ى) .

(٢) حجية بن المضرب السعدي : شاعر جاهلي فارس خليفًا من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان . (٣/ ١٩٩) .

(٣) أبوالحسن علي بن إسماعيل بن سيدة ، المحكم والمحيط الأعظم، ط١، ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، (١٠/ ٣٥٣) .

(٤) انظر : القاضي أبوسعيد الحسن بن عبدالله السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، تحقيق : محمد عبدالمنعم خفاجي ، طه محمد الزيني ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر ، ط(١) ١٣٧٤هـ– ١٩٥٥م ، ص١٩ .

حيث إنني بحثت في البيت فلم أجده في شرح ديوان الفرزدق الجزء الأول –إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط(١)١٩٨٣م .

(٥) ابن منظور، مادة (ر ، و ، ى) .

قال الجوهري[1] :

«رويتُ الحديث والشعر رواية فأنا راوٍ ، ورويته الشعر تروية ، أي : حملته على روايته وأرويته أيضًا ، وتقول : أنشد القصيدة يا هذا ، ولا تقل ازوها إلا أن تأمره بروايتها ، أي باستظهارها» .

ففي ظاهر اللغة لا أجد ما يبين أن الشاعر راوٍ للتاريخ ، بل إن هناك من الإيماءات ما توحي بذلك ، وإن لم تظهر بطريقة مباشرة ، فكما هو معلوم أن هناك رواة للحديث ، ورواة للتاريخ ، ورواة للشعر ، وهذا منذ أمد بعيد حتى في العصر الجاهلي كان لكل شاعر راوٍ أو رواة يلازمونه[2] .

وليس هذا مطلبنا في عصر انتشر فيه التدوين ، ليس للشعر فحسب ، بل في جميع مناحي الفكر والعلم ، فهو إذن ليس راويًا للقصائد ، وإنّما هو راوٍ للأحداث بطريقته الخاصة ، وعلى هذا أحمل القول القائل : رويت الحديث ، والشعر ، والتاريخ رواية وراوية فأنا راوٍ في الشعر ، وراوية في التاريخ إذا أكثرت في روايته ، وأنشدته القصيدة : إذا حملته على استظهار ما فيها من تاريخ .

والسؤال في هذا ، ما الدافع وراء القول : إنَّ البحتري رواية للتاريخ في شعره ، وجميعهم يقولون بالوصف عنده؟! وهذا يتبعه سؤال آخر ، يلقي بنفسه من بين سطور هذا المبحث ، ما الفرق بين الراوي والواصف؟! لكنني لا أرغب في القفز مباشرة إلى الإجابة قبل أن أعرّف بمصطلح الرواية التاريخية في شعر البحتري :

هي -إن جاز القول- عمل شعري يتخذ من التاريخ مادة له ، حيث تتداخل فيه شخصيات ومواقف لها حضور في الذاكرة الجمعية ، بطريقة مبدعة ، تساعد الشاعر على أن يروي ما وقع مادحًا .

فهو يبدو في كثير من الأحيان كالراوي المبدع الذي يسعى لتأطير مفهوم التاريخ في وجوده الإنساني ، وفق أحداث أثارت في نفسه روح الحمية ، هذا وقد عاشها

---

(١) نفسه .

(٢) يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، دار غريب للطباعة والنشر ، ص(١٩).

وشارك فيها ، يعدّ كشفًا للوجه الآخر لحياة العباسيين ، ومن الواضح أنَّ الرجل يعمل ذهنه ، ويشحن قريحته في أمر ما هو إلا حلقة من سلسلة جهود الإنسانية عبرتاريخها الطويل ، بحيث تصبح كاللحمة يصعب نزعها ، كل هذا عنوان على أن التاريخ من بنات أفكاره ، والتي تعهدها إلى أن استوت[1] .

وأرى أنه قد حان الوقت للوقوف على الفرق بين الرواية والوصف ، علني أجد الإجابة الموضوعية الشافية ، فالوصف كما يبدو للشيء الجامد حتى تبعث فيه الحياة بحيث تصير منه شيئًا حيويًا .

والرواية : تبدو لأمر واقع قابل للنمو والاستمرار في روايته . وشيء ثانٍ وهو أنَّ الواصف : يهيم في الخيال ، وعلى العكس منه الراوي : إذ هو يروي الواقع بما فيه دون زيادة أو نقصان . وأمر آخر : هو أن الواصف يعتمد على الأفعال المستقبلة والأسماء ، غير أن الراوي ، يتكئ على الأفعال الماضية وكأنه يقرأ الماضي ، وأيضًا ربما أن المسافة الزمنية للموقف/ الحدث لها دورها في رواية الحدث ، فقد يكون ذكر الموقف في نفس العام أو بعده بوقت طويل ، فيكون بهذا راوية للحدث .

هذا وقد ضم ديوان البحتري ما يقرب من خمسمائة قصيدة أو مقطوعة ، مدح بها كبار رجال الدولة ، وقد أسكتنا -في كثير من مدائحه- دنيا التاريخ ، بدت كالموسوعة التاريخية للخلافة العباسية ؛ إذ عاصرها لمدة خمسة عشر عامًا[2] ، وكانت كالفضاء الواسع الذي كلما زدته بصرًا زادك حسنًا ، تجوب فيه أخبار الجاهليين ، وأخبار العرب ، وصحابة رسول الله ﷺ وأتباعه ، فميزة البحتري الأولى هي الوثيقة التي اتسمت بنظرة شمولية للتاريخ ، ومن أضخم الأبواب التي طرقها البحتري في تاريخه : المدح .

والمدح في القصيدة العربية هو الأساس والمنطلق لتوثيق الأحداث[3] ، وهو

---

(١) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن ص(٢٤٨).

(٢) نديم مرعشلي، البحتري ، ١٩٦٠م، ط١، دار طلاس ، ص(٥٥٩) .

(٣) د.عبدالله بن صالح العريني، شعر جهاد الروم حتى نهاية القرن الرابع الهجري في موازين النقد الأدبي ، ١٤٢٣هـ ، الناشر الإدارة العامة للثقافة والنشر، الرياض، ص(٤٨) ، انظر : د. شوقي

«الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل ، والخصال ، ... والشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق ؛ لأنه يصور ما يشتهي ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال..»[١] .

وهذا ما يجعلني موضوعية في حكمي على الرجل ، فليس كل ما قاله من مديح باعثه التكسب ، وطلب النوال ، بل إن منه ما هو منبعث من رغبة ذاتية صادرة عن انفعال صادق يتلذذ به من خلال إعجاب الشاعر بالشخصية ، كمدائحه في الخليفة المتوكل على الله ، والفتح بن خاقان ، ومحمد بن يوسف الثغري ، وابنه يوسف .

ثم إن الشاعر لم يقتصر في مديحه على الفضائل النفسية وكأنه يوافق ابن رشيق ، ويتفق معه في كون اقتصار المديح على الفضائل النفسية لا سواها من وجهة نظره ؛ تعسفًا وتضييقًا على الشاعر ، وهو ما نادى به قدامة بن جعفر : «بأن يمدح الرجل بما فيه ، وبما كان الاتفاق عليه من خصال نفسية أربعة : العقل ، والعدل ، والعفة ، والشجاعة ، وكان القاصر لمدح الرجال بها مصيبًا وبغيرها مخطئًا ، ويجوز أن يمدح بالبعض منها ويفرق فيه دون البعض»[٢] .

إذ عقب ابن رشيق على هذا بقوله : «... وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة ، فإن أضيف عليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال ، والأبهة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ، وكثرة العشيرة ، كان ذلك جيدًا ، إلا أن قدامة قد أباه ، وأنكره جملة ، وليس ذلك صوابًا ، وإنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما إنكار ما سواها كرةً واحدة فما أظن أحدًا يساعد فيه ، ولا يوافقه عليه»[٣] .

---

=

ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف ط٢، ص(٢٩٦) .

(١) د.بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي ، ط٢، ١٣٩٠هـ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص(١٥٦) .

(٢) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق : عبدالمنعم خفاجي، ط(١) ، المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت، ص(٨٤).

(٣) ابن رشيق ، السابق (٢/ ١٥٤).

«وسبيل الشاعر -إذا مدح ملكًا- أن يسلك طريقة الإيضاح ، وأن يجعل معانيه جزلة ، وقد وفق البحتري في ذلك عند مدحه للخليفة وكيف يقول الأبيات ، ويبرز وجوه المعاني»[1] .

فَمَدْحه «للمتوكل على الله» تحدوه الأشواق ، وتسبقه المودة ، والقربة ، باعتباره بابًا زاهرًا من التاريخ الإسلامي ، نظرًا لأدواره المشرقة ، وعهده الأغر ، فقد كانت قصوره مركزًا للعلم ، والحضارة ، وكان رائد التقدم ، ومنه فتحت النوافذ التي أنارت للعرب طريق الصحوة ، بل كان عاملًا مباشرًا في إيقاظ العرب من سبات امتد أحقابًا متلاحقة[2] ، وهذا على النقيض مما ذكره فازليف : «من أن حكمه كان نحسًا على الدولة ، فإنه خرج على سياسة سلفه الدينية فاضطهد المعتزلة اضطهادا حادًا...»[3] .

وهكذا جاء البحتري فبرز التاريخ في شعره في عهد المتوكل على الله واستنطق الديار ، متلمسًا فيها آيات الماضي السحيق ، واستلهم العبر والدروس ، فبكى الخراب ، واتعظ ووعظ ، وحلق بقريحته في أجواء الماضي ، وطاف بفكره كسرب القطا في دروب العهود الغابرة ، فشعره في بداية حياته بذرة سقتها دروب الحاجة... ثم أثمرت ونضجت وآتت أكلها في سني المتوكل ؛ «إذ إن شعره في هذه المرحلة يعد سجلًا ناطقًا بكل ما حفل به عهد الخليفة العباسي العاشر من حوادث إلى الصفحة الأخيرة الحزينة الباكية الكئيبة التي صور فيها الشاعر اغتيال المتوكل بسيوف الأتراك أمام عينيه في قصر الجعفري في مؤامرة لم يغب عنها ولده وولي عهده من بعده»[4] .

فقد حفل شعره برواية تعد إضافة مؤكدة لما ورد في التاريخ ، ثم إنها من جهة

(١) نفسه ص(١٤٨).

(٢) انظر : يونس أحمد السامرائي، البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ، ١٩٧٠م، بغداد، د.ط ، ص(١٥٩).

(٣) فازيليف، العرب والروم، ترجمة، د.محمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي، د.ط، ص(١٨٨).

(٤) أبوبكر الصولي ، أخبار البحتري ، تحقيق: صالح الأشتر، ١٣٨٤هـ دار الفكر، دمشق، ص(٧).

أخرى تعطي المتلقي صورة حية لعلاقة الشاعر بمن حوله ، ومدى تأثره بما دار في البلاط ، وله أن ينشر ثقافته ، ويشرح ما أصاب الفكر العربي من داء حلّ بعقر داره ، حينها لا ينبغي أن يقف مكتوف اليدين ، ولأنه يمتلك قوة الكلمة عليه أن يوصل رسالته الكبرى للعالم أجمع ، ولأن الشعر أيضًا في حقيقة أمره متعة ، ولكن إذا مزجت بفائدة فقد تم له الحسنيان ، ودليل على قربه من موقع الحدث ، ويؤكد على هذا رائيته «في رثاء المتوكل» التي تعد متميزة تميز الحدث ذاته ، ذلك أن الموقف يتجاوز حدود الاغتيال كجريمة ؛ ليكشف عن أمور أخطر من ذلك بكثير حين تصبح الجريمة رمزًا من رموز تسلط الأجنبي على الخليفة العباسي ، ويحذر من مغبّة التمادي في ذلك حتى لايقع ، وتعبث الأيدي العابثة بمصير الأجيال القادمة ، وهذه القصيدة في نظري تلد ملايين العبر على موسيقى التاريخ ، بل وكأنها لم تكن في يوم من الأيام عبرة ، وكأننا لم نعتبر ، فخسرنا وضاع ملك الخلافة بطعنات الأيام»[1] ، فقد جاء في الخبر : «وفي هذه السنة أي سنة (٢٣٢)هـ قتل المتوكل ، وكان سبب قتله أنه أمر بإنشاء الكتب ، بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان ، فكتبت ، وبلغ ذلك وصيفًا ، وكان المنتصر واعد الأتراك ووصيفًا على قتل أبيه...»[2] .

ثم ها هو يقول[3] :

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً ... يَجُودُ بِهَا والمَوْتُ حُمْرٌ أظَافِرُهْ

أُدَافِعُ عَنْهُ باليَدَينِ، ولَمْ يَكُنْ ... لِيَثْنِي الأَعَادِي أعْزَلُ اللَّيلِ حَاسِرُهْ

وَلَوْ كَانَ سَيْفِي سَاعَةَ القَتْلِ فِي يَدِي ... دَرَى القَاتِلُ العَجْلاَنَ كَيْفَ أُسَاوِرُهْ

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أوْ أَرَى ... دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الأَرْضِ مَائِرُهْ

---

(١) د.عبدالله التطاوي، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ ص(١٨٥).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ذكر خبر مقتل المتوكل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٩م ، (٤/ ٣٤٢).

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٤٨) .

فشعر البحتري يعد وثيقة تاريخية هامة لدارسي تاريخ العرب والروم[1] ؛ لأنَّ شعره ما هو إلا رواية معظم المعارك التي وقعت بين العباسيين فيما بينهم ، وبين العرب والروم أيضًا ، وعلى ضوء التاريخ تقف قصائده على أحداث عصره ، لذا كان يقف من الخلافة موقف المعارضة المستترة خلف الظلام ، وينظر إلى السلطة القائمة نظرة السخط والكراهية ، ولا ريب أن معارضته وسخطه نتاج رؤية يكشف فيها عن مذهبه[2] ، ويدعو إلى اتباع أحزاب سياسية معينة .

يقول في قصيدة يمدح فيها المعتز[3] :

وَلَـوْ لاَ تَلاَفِيـكَ الخِلاَفَـةَ لاَنْـبرتْ ... لَهَا هِمَمُ الغَـاوِينَ مِـنْ كُـلِّ جانـب

إِذًا لاَدَّعَاهـا الأَبْعَـدُونَ، ولاَرْتَقَـتْ ... إِليهـا أَمـانيُّ الظُّنُـون الكَـوَاذِبِ

زَمَـانٌ تَهَـاوَى النَّـاسُ فِي لَيْـلِ فِتْنَـةٍ ... رَبُـوض النَّـواحِي مُـذْلَهِمُّ الغيَاهِـبِ

هذا وقد أقحم نفسه في غمار السياسة إلى حد الدفاع عن حق العباسيين ، والاحتجاج لهم ، وتحريضهم على التمسك بالخلافة بكل قواهم ؛ إذ إن شعره على هذا المنحى يعد موقفًا وأداة ، فقد كشف عن الأدوار التي خاضها «إسحاق بن إبراهيم المصعبي»[4] ، وطريقه في حل كثير من المعضلات ، على ما يذكره ابن الأثير من «أن المتوكل كلف إبراهيم بن إسحاق في بغداد بحبس «إيتاخ»[5] ، وعندما قرب إيتاخ لقيه المصعبي ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد أمر له بكسوة ، وهدايا ، وحلف عليه أن يدخل ، ففعل ، وكان في ثلاثمائة من غلمانه وأصحابه ، ومنعهم من الدخول عليه ، ووكل الأبواب ، وأقام عليها الحرس ، فحبسوه وولديه وكاتبيه إلى

---

(١) فازيليف، السابق ص(٢٩١).

(٢) إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في العصر الأموي ص(٣٩٦) .

(٣) ديوانه (١/ ١١٠) .

(٤) إسحاق بن إبراهيم المصعبي : اصطنعه المأمون وكان أثيرًا عنده ، توفي في أيام المتوكل فحزن لموته . انظر : هامش الديوان ، ١/ ٧١ .

(٥) رجل من أشراف مكة . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ١/ ٢٤ .

أن مات عطشًا»[١] .

هذا وقد نقل أبوعبادة خبر هذه الرواية في رؤية مرادفة للتاريخ ؛ إذ يقول[٢] :

وشَـدَدْتَ عَقْـدَ خِلافَتَـيْنِ خِلافَـةً ... مِنْ بَعْـدِ أُخْـرَى، والخَلَائِـفُ غُيَّبُ
حِـينَ الْتَـوَتْ تِلْـكَ الأُمُـورُ، وَرُجِّحَـتْ ... تِلْكَ الظُّنُـونُ، وَمَـاجَ ذَاكَ الغَيْهَـبُ
وتَجَمَّعَـتْ بَغْـدَادُ ثُـمَّ تَفَرَّقَـتْ ... شِـيَعًا يُـشَيِّعُها الـضَّلالُ المُـصْحِبُ
فَأَخَـذْتَ بَيْعَـتَهُم لِأَزْكَـى قَـائِمٍ ... بِالـسَّيْفِ إِذْ شَـغِبُوا عَلَيْـكَ فَـأَجْلَبُوا
ولَأَنْـتُمُ عُـدَدُ الخِلافَـةِ إِنْ غَـدَا ... أَوْ رَاحَ مِنْهَـا مَجْلِـسٌ أَوْ مَوْكِـبُ
وإِذَا تَأَمَّلْـتُ الزَّمَـانَ وَجَدْتُـهُ ... دُوَلًا عَـلَى أَيْـدِيكُمُ تَتَقَلَّـبُ!

على أنني ألاحظ ظاهرة انجراف البحتري إلى الأحداث بشكل طاغٍ في مرحلة اتصاله بالمتوكل على الله . وهو تعبيرعن غاية أصيلة ؛ إذ إنه غدا وسيلة لرواية التاريخ ، وطريقًا سهلًا لبلوغ المرام ، وقد أغرى شاعرنا بسلوكه هذا الخليفة ؛ فأصبح شاعر البلاط[٣] ، وهذا ما يوضحه صاحب العمدة ؛ إذ يقول[٤] :

«وليس في المولدين أشهر اسمًا من أبي نواس ، ثم حبيب ، والبحتري ، ويقال : إنهما أخملا في زمنهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد» .

وعلى ما يبدو لم يعد الشعر عنده يشبع حاجة نفسيه بقدر ما هو مطالب بإتقان هذه الحرفة التي يجد من ورائها الكسب ، وبذل غاية جهده في تجويدها ؛ لأن المعول عليه عنده هو صياغة الحدث أكثر من الاعتماد على الشعور ، وهكذا وجد الشاعر الطريق ممهدًا أمامه ، وقد اتبع بسلوكه طريق ملتزم ، سواء في مدح الخليفة ، أو الوزير ، أو المحارب ، ورأى من الغبن ألا يسجل كل حدث عاصره[٥] .

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤/ ٣١٣) .
(٢) ديوانه (١/ ٧٦) .
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤/ ٣١٣) .
(٤) ابن رشيق، السابق (٢/ ٧٤) .
(٥) إحسان النص، السابق ص(٣٩٨) .

فالشاعر يتجرد في أحيان عديدة من كونه الموافق الرسمي للخليفة ، ويقف مخبرًا عما دار في بلاطه ، متباهيًا بقدرته الشعرية في تصويره للحدث ، ففي قصيدة ينقل فيها وفد الروم على الخليفة المتوكل على الله ، يتخذ من الحدث مادة قابلة لرواية الخبر ، فقد جاء في الخبر «أن تذورة ملكة الروم وجهت (جورجس بن قريافس) يطلب الفداء لمن في أيدي الروم من المسلمين ، وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفًا ، فوجه المتوكل رجلًا من الشيعة ليعرف صحة من في أيدي الروم من أسارى المسلمين ، ليأمر بمفاداتهم ، فنفذ الكتاب بذلك يوم الأربعاء لخمس خلون من رجب ، وكان الفداء يقع في يوم الفطر من هذه السنة...»[1] .

والحدث كما يذكره المؤرخون جلل ، والمسلمون وقع بهم ما حذروا ، أُسِرَت نساؤهم وأطفالهم ، وقتل فيهم من قتل ، وتنصَّر فيهم من تنصر ، ومن أبى عُذِّبَ أيما عذاب ، ورمي بشرر من لهب العِدى ، وهم مع شدة الخطب مؤملون ومدركون عظمة الخليفة ، ودوره في ركود الفتن .

وفي ذلك يقول الشاعر[2] :

لاَ يَعْدَ مَنْكَ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ ... فِي ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَّلُوا

حَصَّنْتَ بَيْضَتَهُمْ وَحُطْتَ حَرِيمَهُمْ ... وَحَمَلْتَ مِنْ أَعْبَائِهِمْ مَا اسْتَثْقَلُوا

فَادَيْتَ بِالأَسْرَى وَقَدْ غَلِقُوا فَلاَ ... مَنٌّ يُنَالُ وَلا فِدَاءٌ يُقْبَلُ

وَرَأَيْتُ وَفْدَ الرُّومِ بَعْدَ عِنَادِهِمْ ... عَرَفُوا فَضَائِلَكَ التِي لاَ تُجْهَلُ

أَحْضَرْتَهُمْ حُجَجًا لَوِ اجْتُلِبَتْ بِهَا ... عُصْمُ الجِبَالِ لأَقْبَلَتْ تَتَنَزَّلُ

وكذلك صنع حين وقف مؤكدًا لما روته المصادر التاريخية من أمر البيعة التي عهدها المتوكل لبنيه من بعده ؛ إذ حاول أن يبين ذلك بطريقة تنفي عامل الظن الذي كان في نفوس الآخرين ممن يطمعون في الخلافة ، وتؤكد معالجة الخليفة

---

(١) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، دار ابن حزم ، لبنان ، بيروت ، تحقيق إياد القيسي ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (٢/ ١٠٥٢) .

(٢) ديوانه (٣/ ١٥٩٧) .

للأمور ، وإعطاء كل ذي حق حقه . فقد جاء في الخبر «أن الإمام جعفر ولي الإمامة من بعده ، وعقد البيعة لأبنائه الثلاثة على أن يكون عبدالله بن المعتز واليًا أعمال فارس وأرمينية وأذربيجان إلى ما يلي أعمال خرسان وكورها ، وأن يجعل محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين في ذلك ، والحائط في نفسه ، والواثق في أعماله ، والمضمومين إليه وسائر من يستعين به ، وإبراهيم المؤيد...»[1] .

وفي هذا يقول[2] :

حَاطَ الرَّعِيَّةَ حِينَ نَاطَ أُمُورَهَا ... بِثَلاثَةٍ بَكَرُوا ولاَةَ عُهُودِ
قُدَّامَهُمْ نُورُ النَّبِيِّ وخَلْفَهُمْ ... هَدْيُ الإِمَامِ القَائِمِ المَحْمُودِ
لَنْ يَجْهَلَ السَّارِي المحجَّةَ بَعْدَمَا ... رُفِعَتْ لَنَا مِنْهُم بُدورُ سُعُودِ
كَانُوا أَحَقَّ بِعَقْدِ بَيْعَتِهَا ضُحًى ... وَبِنَظْمِ لُؤْلُؤِ تَاجِهَا المَعْقُودِ
عُرِفُوا بِسِيمَاهَا فَلَيْس لِمُدَّعٍ ... مِنْ غَيْرِهِمْ فِيهَا سِوَى الجَلْمُودِ
فَنَبَتْ أَحَادِيثُ النُّفُوسِ بِذِكْرِهَا ... وَأَفَاقَ كُلُّ مُنَافِسٍ وحَسُودِ

ومن المحقق أن موقف البحتري الملتزم إنما تفسره إلى حد بعيد الأحداث السياسية ، وينبغي ألا يسقط من الحساب ما كان من المتوكل من عفو عن أهل حمص ، وما حققه هذا العفو من بُرء لأسقام الحياة ، ونعم أخرى أحالت نفوسهم ربيعًا ، فأزهرت الخلافة بعدها .

وهذا واضح من قوله[3] :

---

(١) الطبري، محمد بن جرير ، السابق (٢/ ٣١٠٤) .

(٢) ديوانه (٢/ ٧٠١).

(٣) ديوانه (٣/ ١٥٠٧).

فَكَمْ حَقَّنَتْ فِي تَغْلِبِ الغُلْبِ مِنْ دَمٍ ... مُتَاحٍ، وأَذْنَتْ مِنْ شَتِيتٍ مُفَرَّقِ
وَكَمْ نَفَّسَتْ فِي حِمْصَ عَنْ مُتَأَسِّفٍ ... غَدَا المَوْتُ مِنْهُ آخِذًا بِالمُجَنَّقِ!
وَقَدْ قَطَعَتْ عَرْضَ «الأُرَنْدِ» إِلَيْهِمُ ... كَتَائِبُ تُزْجِي فَيْلَقًا بَعْدَ فَيْلَقِ
بِهِ اسْتَأْنَفُوا بَرْدَ الحَيَاةِ وَأَسْنَدُوا ... إِلَى ظِلِّ فَيْنَانٍ مِنَ العَيْشِ مُورِقِ
فَشُكْرًا بَنِي كَهْلَانَ لِلمُنْعِمِ الَّذِي ... أَتَاحَ لَكُمْ رَأْيَ الإِمَامِ المُوَفَّقِ
ثَنَى عَنْكُمُ زَحْفَ الخِلاَفَةِ بَعْدَمَا ... أَضَاءَتْ بُرُوقُ العَارِضِ المُتَأَلِّقِ
هُنَالِكَ لَوْ لَمْ يَفْتِلِ اللَّهُ حُمْلَتُمُ ... عَلَى مِثْلِ صَدْرِ اللَّهْذَمِيِّ المُذَلَّقِ

وعلى ما يبدو فإن الشاعر قد استظل بأروقة التاريخ ، فقد ذكر «النزاع بين قبائل تغلب ، والذي جر إلى صدام ومعارك ، وقد انفرد البحتري بهذه الميزة وهي رواية النزاع بين القبائل العربية ، ولم تجد لها مكانًا في كتب التاريخ والمراجع الأخرى ، وقد دون دور (الفتح بن خاقان) في فض النزاع في حوادث حمص»[1] . يقول[2] :

رَدَدتَ الرَّدَى عَنْ أَهْلِ حِمْصَ وقَدْ بَدَا ... هُمْ جَانِبُ اليومِ العَبُوسِ العَصَبْصَبِ

وأبوعبادة يرتبط بكثير من المواقف ، ويتفاعل معها ، ففي قضية خلق القرآن الكريم أسرع إلى تسجيل هذا الموقف ، والإشادة بالمتوكل وبطريقه في القضاء عليها ، فقد شُغِل أهل عصره بقضية خلق القرآن . وسياسته أتت موافقة لما انفطرت عليها نفسه «فمنع الحديث فيها ، وأمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون ، وأمر بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة»[3] ، ولا شك أن الصلة بالعقيدة الإسلامية ترتبط بالكتاب المقدس ، لهذه العقيدة ، وقد وجد أهله طريقًا إلى شعورهم لما تربت عليه نفوسهم[4] .

---

(١) يونس أحمد، السامرائي ، البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل، ١٩٧٠م، مطبعة الإرشاد بغداد ، ص١٢٣ .

(٢) ديوانه (١/ ١٩٣) .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤/ ٢٢٤) .

(٤) د.شلتاغ شراد ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ط(١) ، ١٤٠٨هـ ، دار المعرفة ، دمشق ، ص(٢٣) .

وفي هذا يقول[١] :

أَمِـــيرَ المـــؤمنينَ لَقَـــدْ ســـكَنَّا ... إِلَى أَيَّامِـــكَ الغُـــرِّ الحِـــسَانِ
رَدَدْتَ الـــدِّينَ فَـــذًّا بَعْـــدَمَا قَـــدْ ... أَرَاهُ فِـــرْقَتَينِ تَخَاصَـــمَانِ
قَـــصَمْتَ الظَّـــالِمِينَ بِكُـــلِّ أَرْضٍ ... فَأَضْـحَى الظُّلْـمُ مَجْهُـولَ المكَـانِ
وَفِي سَـــنَةٍ رَمَـــتْ مُتَجَـــبِّرِيهِمْ ... عَـــلَى قَـــدَرٍ بِدَاهِيَـــةٍ عَـــوَانِ
فَـــمَا أَبْقَـــتْ مِـــنَ «ابْـــنِ أَبِي دُوَادٍ» ... سِـــوَى جَـــسَدٍ يُخَاطِـــبُ بِالمَعَـــانِي
إِذَا أَصْـــحَابُهُ اصْـــطَحبوا بِلَيْـــلٍ ... أَطَـــالوا الخَـــوْضَ فِي خَلْـــقِ القُـــرَانِ

وفي موضع آخر يناقض الشاعر نفسه ، ويأتي مؤيدًا لفكرة خلق القرآن ، وفق هواه ، ومراعيًا لمصلحته الشخصية ، قائلًا[٢] :

يَرْمُـــونَ خَـــالِقهم بِـــأَقْبَحِ فِعْلَهُـــمْ ... ويُحَرِّفَـــونَ كتابَـــه المنـــسوقا

فسأله سائل : أكنت معتزليا ، فأجابه : كان هذا ديني في أيام الواثق ثم نزعت عنه في أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عباده هذا دين سوء يسوء مع الدول...»[٣] .

وفي جو من تأزم الأوضاع الداخلية تنفس أبوعبادة تاريخه ، وبثه بطرائق اتبعها ، بحكم قرابته منها ، فموقف ربيعة -وهو مالم تهتم به المصادر التاريخية- شكل بالنسبة إلى شاعر ضررًا على المستوى الشخصي ، لكنه بَصُرَ بالشغب ، وحاول لم الشتات ، وهو في هذا الموقف يظهر بزي الضرير البصير ، فقد سعى إلى الخليفة يتلمس منه أن يمن على هؤلاء الأسرى بفك قيودهم ، والصفح عن زلتهم ، ويشير إلى علاقات النسب والقرابة التي تربطهم بالشاعر ، التي تخفف من حدة الغضب تجاههم ، وقد نجح في ذلك[٤] .

يقول[٥] :

---

(١) ديوانه (٤/ ٢٢٩٠) وما بعدها .
(٢) ديوانه ، ٣/ ١٤٥٠ .
(٣) أبوبكر الصولي : أخبار البحتري ، ص(١٢٣) .
(٤) انظر: يونس أحمد السامرائي، السابق ص(١٢٥).
(٥) ديوانه (٤/ ٢٢٥٤).

يَـوْمٌ مِـنَ الأَيَّـامِ طَـالَ عَلَـيْهِمُ ... فَكَأَنَّـهُ زَمَـنٌ مِـنَ الأَزْمَـانِ
أَيَّـدْتَ بِالنَّـصْرِ الْوَشِـيكِ وأُتْبِعُـوا ... فِي سَـاعَةِ الهَيْجَـاءِ بِالخِـذْلاَنِ
رَامُـوا النَّجَـاةَ وَكَيْـفَ تَنْجُـو عُـصْبَةٌ ... مَطْلُوبَـةٌ بِـالله والسُّلْطَانِ؟
جَاءَتْـكَ أَسْرى فِي الحَدِيـدِ أَذِلَّـةً ... مَـشْدُودَةَ الأَيْـدِي إِلَى الأَذْقَـانِ
فَافْكُـكْ جَـوَامِعَهُمْ بِمَنِّـكَ إِنَّهَـا ... سُـمِرَتْ عَـلَى أَيْـدي نَـدًى وطِعَـانِ
أَعْـمَامُ ثُلَّـةَ أُمُّكُـمْ، وهْـيَ الَّتِـي ... شَرُفَتْ، وإِخْوَةُ «عَـامِرِ الـضَّحيَان»[1]

هذا وقد وقف الشاعر في الطرف المتميز للتاريخ ، بحيث لم يكن منفصلًا عنه ، بل زوده وتزود منه ، وتلك نعمة أتمها الله ، رضي بها وأرضى مؤرخي العصر العباسي خاصة فازليف الذي يرى أنه أخذ من شعر البحتري قاعدة للتاريخ[2] . وهذا يعني أن الأحداث لم تنشأ إلا من وحي الصراع والمعاصرة .

من ذلك مديحه لقائد المعركة البحرية (أحمد بن دينار)[3] الذي خاض زمن الخليفة المتوكل على الله حرب العرب مع الروم، ولم تشر المصادر التاريخية لها.

يقول[4] :

وَلَّـمَّا تَـوَلَّى البَحْـرَ، والجُـودَ صِـنْوُهُ، ... غَدَا البَحْـرُ مِـنْ أَخْلاَقِـهِ بَـيْنَ أَبْحُـرِ
إِذَا شَـجَرُوه بالرِّمَـاحِ تَكَـسَّرَتْ ... عوامِلُهـا في صَـدْرِ لَيْـثٍ غَـضَنْفَرِ
يَغُـضُّونَ دُونَ الإِشْـتِيام عُيُـونَهُمْ ... وفَـوْقَ السِّمَاطِ لِلْعَظِـيمِ المُـؤَمَّرِ
وَحَولَـكَ رُكَّـابُونَ لِلْهَـولِ عـاقَرُوا ... كُؤُوسَ الرَّدَى مِنْ (دَارِ عَيْنَ) وحُـمَّرِ
تَمِيـلُ المَنَايـا حَيْـثُ مَالَـتْ أَكُفُّهُـمْ ... إِذا أَصْـلَتُوا حَـدَّ الحَدِيـدِ المُـذَكَّرِ
صَدَمْتَ بِهِـمْ صُـهْبَ العَثَانِينِ دُونَهُـمْ ... ضِرَابٌ كإِيقَـادِ اللَّظَـى المُتَـسَعِّرِ
كَـأَنَّ ضَـجِيجَ البَحْـرِ بَـيْنَ رِمَـاحِهِمْ ... إِذا اخْتَلَفَـتْ تَرْجِيـعُ عَـوْدٍ مُجَرْجِـرِ

---

(١) عامر الضحيان : هو عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم ، ساد ربيعة أربعين عامًا . انظر : هامش الديوان ، ٤/ ٢٢٥٤ .

(٢) د.عبدالله التطاوي : الشاعر مؤرخًا ، د.ط ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص(١١٣) .

(٣) أحمد بن دينار بن عبدالله ، والٍ من ولاة البحر . انظر : هامش الديوان ، ٢/ ٩٨٠ .

(٤) ديوانه (٢/ ٩٨٢) وما بعدها .

قَمَا رِمْتَ حَتَى أَجْلَتِ الحَرْبُ عَـن طُـلَى  مُقَطَّعَـةٍ فـيهِمْ وهَـامٍ مُطَـيَّرِ

والواقع أن أبا عبادة استطاع أن يكون رقيبًا بشعره على كثير من الحوادث التاريخية ، ناقلًا لها ، فها هو يروي ما كان من «خمارويه بن أحمد»(١) من دفاع عن المسلمين ؛ إذ جاء في خبر حوادث سنة خمس وسبعين بعد المائتين اتفاق ابن أبي الساج وخمارويه بن طولون ، إلا أنَّ خمارويه سمع بمخالفة أبي الساج ، فسار عن مِصْرَ نحو الشام آخر سنة أربع وسبعين ، فالتقوا عند «ثنية العقاب»(٢) ، واقتتلوا في المحرم من هذه السنة ، ومضى ابن الساج منهزمًا إلى حلب»(٣) .

وفي هذه الحادثة يقول البحتري(٤) :

لَقَـدْ كَـانَ فِي يَـوْمِ الثَّنِيَّـةِ مَنْظَـرٌ  وَمَسْتَمَعٌ يُنْبِي عَنْ البَطْشَةِ الكُبْرَى
وَعَطْـفُ أَبِي الجَـيْشِ الجَـوَادِ يكـرّه  مُدَافَعَةً عن (دِيرِ مرَّانَ)(٥) أَوْ(مَقرَى)
فَكَـائِنْ لَـهُ مـن ضَرْبـةٍ بَعْـدَ طَعْنَـةٍ  وقَـتْلَى إِلَى جَنْـبِ (الثنيـة) أو أَسْرَى
فَـوَارِسُ صَرْعَـى مـن تُـؤَام وَفَـارِدٍ  وأَرْسَـالُ خَيْـلٍ فِي شَكَائِمها عَقْـرَى
مُبَارَكَـةٌ شَـدَّتْ قُـوَى السِّلْمِ بَعْـدَمَا  تَوَالَت خُطُوبُ الحَرْبِ مُقْبِلَـةً تَـتْرَى

«وشاعرنا الذي اتخذ من الأحداث الواقعة وسيلة في شعره لم يفته شيء ذو بال في عهود من يمدحهم من الخلفاء، فهو يشير -في قصيدة يمدح فيها (المعتز)- إلى

---

(١) خمارويه بن أحمد (٢٥٠-٢٨٢هـ) ، أبوالجيش من ملوك الدولة الطولونية بمصر ، وليها بعد وفاة أبيه ، وله من العمر عشرون عامًا ، وفي أواخر أيامه تزوج المعتضد العباسي ابنته (قطر الندى) ، ولد في سامراء ، وقتله غلمانه على فراشه في دمشق . انظر : خير الدين الزركلي : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة (١٦) ٢٠٠٥م ، ٢/ ٣٢٤

(٢) ثنية العقاب : بالضم وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق بالثغور الشامية قرب المصيصة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة (ث ن ي ة) .

(٣) ابن الأثير: السابق (٤/ ٥٥٠) .

(٤) ديوانه (١/ ٥٩) وما بعدها .

(٥) دير مرّان : بضم الميم ، وهذه الدير بالقرب من دمشق . انظر : ياقوت الحموي : مادة (دير) .

مفاوضات الفداء التي جَرَتْ بين الروم والمسلمين ، التي انتهت بإتمام الفداء سنة ٢٥٣هـ[١] . يقول[٢] :

إمـامُ هُـدَى يُحَبَّـبُ في التَـأَنِّي ... ويُخْـشَى فِي الـسَّكينَةِ والْوَقَـارِ
إذَا نَظَـرَ الوُفُـودُ إليـه قَـالُوا: ... أَبَـدْرُ اللَّيـلِ أَمْ شَـمْسُ النَّهـارِ؟
هَزَزْنَـاهُ لأَحْـدَاثِ اللَّيَـالِي ... فَأَحْمَـدَنا مُـضَارب ذي الفَقَـارِ
لَـئِنْ تَـمَّ الفِـدَاءُ كَـمَا رَجَوْنَـا ... بِيُمْنِـكَ بَعْـدَ مُكْـثٍ وانتِظَـارِ
فَمِـنْ أَزْكَـى خَلائِقِـكَ ان تُفَـادى ... أَسَـارَى المـسلمينَ مِـنَ الإِسَـارِ
بَـذَلْتَ المَـالَ فـيهِمْ كـي يَعُـودُوا ... إِلَى الأَهْلِـينَ مِـنْهُمْ والـدِّيارِ

وينبغي ألا يسقط من الحسبان ما كان للمعتز من أثر في إخماد الفتن ، وقد لا يرى الشاعر مندوحة من مدحه الذي يظهر فيه علامات السياسة المحنكة ، والتفطن للرعية ، وكانت على شفا حفرة ؛ إذْ أكلت الفتن الأخضر واليابس ، وأصبح وجه الأرض مخضلًا بالدماء ، وذاق المسلمون الويلات ، وضعفت الخلافة[٣] ، وفي هذا يقول الشاعر[٤] :

تَـلاَقَى بِـهِ اللهُ الـوَرَى مِـنْ عَظِيمَـةٍ ... أَنَاخَتْ عَلَى الإِسْلاَمِ حَـوْلًا وأَشْـهُرَا
وَمِـنْ فِتْنَـةٍ شَـعْوَاءَ غَطَّـى ظَلاَمُهَـا ... عَـلَى الأُفْـقِ حَتَّـى عَـادَ أَقْتَمَ أَكْـدَرَا
أُعِـينَ بِأَسْـيَافِ المَـوالِي وصَـبْرِهِمْ ... عَلَى المَوْتِ لما كـافحوا المَـوْتَ أَحْمَـرَا
تَقَـدَّمَ فِي حَـقِّ الخِلاَفَـةِ سَـهْمُهُ ... إِذَا رُدَّ عَنْهَـا غَـيْرُهُ فَتَـأَخَّرَا
نَهَـضْتَ بِأَعْبَـاءِ الخِلاَفَـةِ كافِيًـا ... وَمَـا زِلْـتَ مَرْجُـوًّا لهـا مُتَنَظَّـرَا
فَـلاَ عَجَـبٌ في أَنْ يَغِيـضُوا وتَعْـتَلِي ... ولا مُنْكَـرٌ فِي أَنْ يَقِلُّـوا وتَكْثُـرا

وشعره الذي اصطبغ بلون سياسي ، وقيل في معارك كان لها صداها في أحداث

---

(١) انظر : يونس أحمد السامرائي، البحتري في سامراء بعد عصر المتوكل، د. ط، ١٩٧٠م، مطبعة الإرشاد، بغداد، ص(٨٢) .

(٢) ديوانه (٢/ ٩٣٧) وما بعدها .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤/ ٣٧٠) .

(٤) ديوانه (٢/ ٩٣٢) وما بعدها .

السياسية العباسية ، وحتى في الخلافات التي نشبت بين الأخ وأخيه يمثل اتجاهًا واضحًا في التعبير ؛ إذ لم يألف الشاعر جانب الهدوء ، بل عرف المضامين ، والأطر التي يتحرك بداخلها ، وكان من أعظمها على الإطلاق خلافة بني العباس ، وما أصابها إثر التبدل في خلفائها[1] ، إذ أكدت المصادر التاريخية ذلك ، وركز الشاعر على صفحات تاريخ المعتز ، فقد أورد قصيدة عقب حادث خلع المستعين وتقليده مقاليد الرئاسة ، مما يعكس رد فعل العرب وفرحهم بأن عادت الخلافة إلى ازدهارها[2] ،

يقول[3] :

أَلاَ هَلْ أَتَاهَا أَنَّ مظلمة الدُّجى ... تجلَّتْ، وأَنَّ العيْشَ سُهِّلَ جانِبُهْ؟

وَأَنَّا رَدَدْنَا المُسْتَعارَ مُذَمَّمًا ... عَلَى أَهْلِهِ، واسْتأْنَفَ الحَقَّ صَاحِبُهْ

مَتَى أَمَّلَ الدَّيَّاكَ أَنْ تُصْطَفَى لَهُ ... عُرَى التَّاجِ أو تُثْنَى عليهِ عَصَائِبُهْ؟

فَكَيْفَ ادَّعَى حَقَّ الخِلاَفَةِ غاصِبٌ ... حَوَى دُونَهُ إِرْثَ النَّبِيِّ أَقارِبُهْ؟!

فكيف رَأَيْتَ الحَقَّ قَرَّ قَرارُهُ؟ ... وَكَيْفَ رِأيتَ الظُّلْمَ آلَتْ عَوَاقِبُهْ؟!

وَلَمْ يكُنِ المُعتزُّ بالله إِذْ سَرَى ... لِيُعْجِزَ والمُعْتَزُّ بالله طَالِبُهْ!

تَدَارَكَ دِينَ الله من بَعْدِ مَا عَفَتْ ... مَعَالِمُهُ فِينا وغارَتْ كَوَاكِبُهْ

وضَمَّ شَعَاعَ المُلْكِ حتَّى تجَمَّعَتْ ... مَشَارِقُهُ مَوْفورةً ومَغَارِبُهْ

تَغَمَّدَ بالصَّفْحِ الذُّنُوبَ وأَسْجَحَتْ ... سَجَاياهُ في أعدائِهِ وضَرَائِبُهْ

وقَدْ تلاقت قصائده مع تاريخ المهتدي ، ومضت معانيه هادئة كهدوء الممدوح ، تكتسي وقارها من عزوفه عن ملذات الدنيا وبذخها ، فالظروف التي أحاطت بالمهتدي ما عادت تغريه ، وما كانت تبهره ، يدفعه في هذا كله حب صادق لما جاء به الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فعادى الأعياد التي اقتبسها العباسيون من

---

(١) نوري القيسي : الشعر التاريخ ص(١٧١) .

(٢) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٣٢٠٦) .

(٣) ديوانه (١/ ٢١٤) وما بعدها .

الفرس ، وتقيد بفروض الشريعة[١] .

يقول راويًا الأحداث التي كانت في عهده[٢] :

لِيَهْنَكَ أَنْ قَالُوا سَرِيَّةَ «مُفْلِحٍ» أَبَانَ طُلَى العَاصِينَ وَقْعَ جِلادِهَا
وَقَدْ طَارَدَتْهُم بِالثُّدَيَّيْنِ خَيْلُهُ فَبَاتَتْ حُمَاةُ الكُفْرِ صَرْعَى طِرادِهَا
كَتَائِبُ نَصْرِ اللهِ أَمْضَى سِلاَحُهَا وَعَاجِلُ تَقْوَى اللهِ أَكْبَرُ زَادِهَا

وبتأييد من الله تم نصر السرية ، ودارت الدائرة على أعداء الإسلام ، فقد مضت جيوش المسلمين وزادهم تقوى الله ، فبات العاصون منكسرين خائبين .

«وقد انفرد البحتري بذكر حوادث في زمن المهتدي ، مثل انتصار أحد قواده»[٣] .

يقول[٤] :

تَوَالَى سَوادُ الرِّيشِ مِنْ عِنْدَ صَالِحٍ إِلَيْكَ بِأَخْبَارٍ يَسُرُّ قُدُومُهَا
مُحَلِّقَةً يُنْبِي عَنِ النَّصْرِ نُطْقُهَا وَقَبْلَكَ مَا قَدْ كَانَ طَالَ وُجُومُهَا
نُخَبِّرُ عَنْ تِلْكَ الخَوَارِجِ أَنَّهُ هَوَى مُكْرَهًا تَحْتَ السُّيوفِ عَظِيمُهَا

ويقول الأستاذ محمد مهدي البصير : «إن مدائح البحتري تصور الوقائع السياسية والحربية بمنتهى الأمانة والمهارة ، ويعقب عليها بصورة مؤثرة وبكثرة عجيبة»[٥] .

ومن نمط شعره الذي كان صدى لتلك الأحداث : مدحه للخليفة المعتمد ، من مثل قوله[٦] :

---

(١) انظر : يونس السامرائي : البحتري في سامراء بعد عهد المتوكل ، ص(١٨٤).

(٢) ديوانه (٢/ ٦٧٨) وما بعدها.

(٣) يونس السامرائي، نفسه ص(١٧٤).

(٤) ديوانه (٣/ ٢٠٢٠) وما بعدها .

(٥) د.محمد حمود : البحتري ، سلسلة شعراء العرب ، دار الفكر اللبناني . ط١، ١٩٩١م، ص(٥١) ، نقلًا عن محمد مهدي البصير، في الأدب العباسي ، مطبعة النعمان، النجف، ط٣ ، ص(٢٤١) .

(٦) ديوانه (٢/ ٦٦٩) .

فَلَـــهُ كـــلُّ صَـــبَاحٍ فِي العِـــدَى ... وَقْعَـــةٌ تَـــثْلُمُ فـــيهِمْ وَتُهَـــدْ
وأبوالـــصَّهْبَاءِ قَـــدْ أَوْدَى عَـــلَى ... حَوْلـــه الخَيـــلُ كَـــمَا أَوْدَى لُبَـــدْ
فَـــرَّ عَنْـــه جَيْـــشُه حَيْـــثُ الظُّبَـــا ... شُرَّع تَفْـــرِى طُلاَهُـــم وتَقُـــدْ
ولَقَـــدْ رَاعَ الأَعَـــادِي خَـــبَرٌ ... مِـــنْ طَلَمْجُـــورَ وقَـــدْ قِيـــلَ يَفِـــدْ

فهو يذكر «أن الرعب أصاب الأعداء حين طرق سمعهم أن هذا القائد سيسير إليهم على رأس جيش كثير العدة والعدد ، والشاعر يحث الخليفة على إرسال هذا القائد للحد من طغيان الأعداء»[1] .

ثمة وصف للخليفة المعتمد بالحزم ، والثبات عند الشدائد ؛ إذ أخذ للأمور وقتها ، وأهبتها ، حين يستقبل أعداءه ، يقول في قصيدة يمدح فيها وزيره (عبيد الله بن يحيى بن خاقان[2]) ذاكرًا ما كان من أمر الخارجين في الزاب ، ويبدو أن الشاعر قد انفرد بهذا الحادث ؛ إذ تشير المصادر التاريخية إلى قتل مساور الشاري يحيى بن جعفر ، وذلك وارد في حوادث سنة (٢٦١هـ) ، وفي حوادث سنة (٢٥٦هـ) ، تذكر أن المعتمد سير مفلحا إلى قتال مساور في عسكر كبير...»[3] .

وفي هذا يقول الشاعر[4] :

---

(١) يونس بن أحمد ، السامرائي ، السابق ص(٢٠٩) .

(٢) عبيد الله بن خاقان : استكتبه المتوكل ثم ولي الوزارة حتى قتل المتوكل . انظر : هامش الديوان ، ٥١٦/١ .

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤/ ٤٢٤) .

(٤) ديوانه (٢/ ٧٣٨) .

وَاقَعْـــنَ جَمْـــعَ الـــشُّراة مُحْـــتَفِلًا ... بـ «الـزابِ» والـصُّبْحُ ساطعٌ وقَـدُهْ
غَـــدَاةَ يَـــوْمٍ أعْيَـــا عَـــلَى عُـــصَبٍ ... مِـــنَ المُحلِّـــين أنْ يَكُـــرَّ غَـــدُهْ
أيْـــنَ نَجَـــوْا هَـــارِبِيْن عَارَضَـــهُمْ ... بـــاغٍ مِـــنَ المَـــوْتِ مـــشْرِفٌ رَصَـــدُهْ
بَـــاتُوا، وبَـــاتَ الخَطِّـــيُّ آونـــةً ... مُنَـــشَّبَةً فِي صُـــدُورِهِمْ قِـــصَدُهْ
يَخْـــتَلِطُ «الـــزَّابُ» فِي دِمـــائِهِم ... حتـى غـدا «الـزَّابُ» مُـشْرِبًا زَبَـدُهْ
أرْضَى «الموالي» نُـصْحٌ يَظَـلُّ «عُبَيْـد الـ ... ـلَـــهِ» يَغْلُـــو فِـــيهِمْ ويجتَهِـــدُهْ

ولقد استطاع الشاعر أن يقرع باب التاريخ لا من جهة واحدة ، بل من جهات متعددة ، تبرهن على رحابة التجربة الشعرية ، وقد ضمها في روح الإنسانية بدت إثرها صلبة تأبى الذل ، وترسخ مبدأ التوعية ، والاستيعاب لجل القضايا . وقد نجم عن هذه الأحداث أن كانت الباعث الأقوى ، والعطاء الأجرأ على روايتها بمختلف الأضرب ، فاختار لإنجاز هذه المهمة النهج الذي يتوافق وأبعاد القضية ، ثم إن الشاعر يستجمع حاسته التاريخية ليضيفها إلى وعائه الشعري ، فتزيده قوة إلى قوته ، لذا تجده حريصًا على أن يدور في فلك الأحداث ، إما أن يعرض لها ، أو يسردها ، سواء إزاء الحدث أو إزاء الأعلام ، وإما أن يستوقفه المكان كصدى من أصداء الواقعة ، ولا يخفى أن هذه الأحداث جسام ، مست العقيدة في كثير ، وفُجِعَ بها المسلمون .

فمما ذكره قصيدة يمدح فيها (إسحاق بن إبراهيم المصعبي) ودوره في حرب الخرمية ؛ يقول[1] :

(١) ديوانه (١/ ٧٥) وما بعدها .

وَلِحِزْبَـةِ الإِسْـلَامِ حِـينَ يَهُزُّهَـا ... هَـوْلٌ يُـرَاعُ لَـهُ النِّفَـاقُ وَيَرْهَـبُ
تِلْـكَ المَحَمـرَّةُ الـذين تَهَـافَتُوا ... فَمُـشَرْقٌ فِي غَيِّـه وَمُغَـرِّبُ
وَالحَرْمِيَّـةُ إِذْ تَجَمَّـعَ مِـنْهُمُ ... بجبـالِ «قُـرآن» الحَصَى والأَثْلَـبُ
جاشُـوا، فـذاك الغَـوْرُ مِـنْهم سـائلٌ ... دُفَعًـا، وذَاكَ النَّجْـدُ مِـنهم مُعْـشِبُ
يَتَسَـرَّعُون إلى الحُتُـوفِ كأنَّهـا ... وَفْـرٌ بِـأَرْضِ عَـدُوِّهِمْ يُتَنَهَّـبُ
حتـى إِذَا كَـادَتْ مَـصَابِيحُ الهُـدَى ... تَخْبُـو، وكَـادَ مُمَـرُّه يُتَقَـضَّبُ
ضَرَبَ الجِبَـالَ بِمِثْلِهَـا مِـنْ رأيِـهِ ... غَـضْبانُ يَطْعـنُ بـالحِمَامِ ويَـضْرِبُ
فَمُجَـدَّلٌ، ومُرَمَّـلٌ، ومُوَسَّـدٌ ... وَمُـضَرَّجٌ، ومُـضَمَّخٌ، ومُخَـضَّبُ
سُـلِبُوا، وَأَشْرَقَـتِ الـدِمَاءُ عَلَـيْهِمُ ... مُحْمَـرَّةً، فكـأنهُمْ لَمْ يُـسْلَبُوا

وفي عهد يوسف اضطرب أمر أرمينية حين خرج عليها كبير البطارقة (بقراط بن آشوط) ، بطلب الأمارة لنفسه على المنطقة ، فحاربه يوسف وانتهى بأن ألقى القبض عليه ، وبعث به إلى الخليفة المتوكل[1] ، إلى هذه الحادثة التاريخية أشار البحتري ، حين قال في مدحه[2] :

ولا عِـزَّ لِـلإِشْرَاكِ مِـنْ بَعْـدِمَا انْتَمَـتْ ... عَلَى السَّفْحِ مِنْ عُلْيَا (طَرون)، عَسَاكِرُه
وَمَـا كَـانَ (بِقْـراطَ بـن آشـوطَ) عِنْـدَه ... بِـأَوَّلِ عبدأسـلمتهُ جَرَائِـرهْ
وَقَـدْ شَـاغَبَ الإِسْـلاَمَ خَمْسين حجَّـةً ... فلا الخَوفُ نَاهيـه وَلاَ الحِلْـمُ زَاجِـرُه

فالعدو قد استفحل أمره ، وطال شغبه ، فلا رادع ، ولا زاجر له ، إلا ما كان من يوسف الثغري ، فقد كانت (طرون) نقطة الالتقاء ، وهي الفيصل في القضية ، عزت الإسلام وأهله ، وذلت الشرك وأهله .

إن التحولات السياسية التي طرأت على العصر العباسي من شأنها أن تحدث أصداء واسعة المدى ينبع منها الوعي بضرورة المقاومة ، والشعور بالفرق العظيم

---

(١) د . عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي الرؤية والفن، د.ط، ١٩٧٥م، دار النهضة العربية، بيروت، ص(١٥٣) .

(٢) ديوانه (٢/ ٨٧٨) .

بين لذة الانتصار والاستسلام للذل والهوان ، لذا أخذت الأحداث مسارها ، وأخذ الشاعر أهبته للحديث عنها ، ولاسيما فيما تعلق بالخلافة والمناوشات ، التي أصبحت ظاهرة من الظواهر التي طبعت العصر بطابعه ، إذ ما زال البحتري حريصًا على توثيق الأحداث السياسية ، خصوصًا في بيئتها الحربية التي كان يشيع فيها الفزع والهول ، ويعم فيها الاضطراب والخوف[1] ، من ذلك قصيدة يصف فيها مقدرة يوسف بن محمد الثغري (أسد الثغور)[2] ، على الاستيلاء على الثغور .

يقول[3] :

صَرَفُوكَ عن حَرْبِ الثُّغورِ بِقَدْرِ ما ... عَرَفُوكَ يابن مُحَمَّدٍ بسوَاكَا!

دَحَضَتْ بِهِ قَدَمَاه في أُهوِيَّةٍ ... ثَبَتَتْ عَلَيْهَا بِالهُدَى قَدَماكَا

فَوَارُوكَ الإِسْلامُ مَحْرُوسِ القُوَى ... لَمَّا جَعَلْتَ أَمَامَكَ الإِشْرَاكَا

والرُّوم، تَعْلَمُ أَنَّ سَيْفَكَ لَمْ يَزَلْ ... حَتْفًا لِصَيْدِ مُلُوكِهَا وهَلاَكَا

وَلَوِ اخْتَضَمْتَهُم بأَيْدك لاَلْتَقَتْ ... مِنْ خَلْفِ أَمْواجِ الخَلِيجِ يَداكَا

هذا وقد استند الشاعر في توثيقه للمدح بما صال وجال في أيام الممدوح ، واقتضى ذلك منه إيداع حركة الزمان في نهيب سواط الذل على الخوارج .

إذ يقول[4] :

---

(١) محمد حامد الناصر، الحياة السياسية عند العرب، دراسة مقارنة على ضوء الإسلام، سلسلة كتب الجاهلية في الشعر الجاهلي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، مكتبة السنة، القاهرة، ص(٦٧).

(٢) د.زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب، ط٢، د.ت، دار المعارف، مصر، ص(٢١٢).

(٣) ديوانه (٣/ ١٥٦٥) وما بعدها.

(٤) ديوانه (١/ ٩) وما بعدها.

مَازِلْتَ تَقْرَعُ بَابَ (بَابِكَ) بِالقَنَا ... وَتَزُورُهُ فِي غَارَةٍ شَعْوَاءِ
حَتَّى أَخَذْتَ بِنَصْلِ سَيْفِكَ عَنْوَةً ... مِنْهُ الَّذِي أَعْيَا عَلَى الخُلَفَاءِ
أَخْلَيْتَ مِنْهُ (البَذَ)[1] وَهِيَ قَرَارُهُ ... وَنَصَبْتَهُ عَلَمًا (بِسَامِرَّاءِ)
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ خَوْفَ بَأْسِكَ مَطْعَمًا ... لِلطَّيْرِ فِي عَوْدٍ وَلاَ إِبْدَاءِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ نَتَجْتَ مَنِيَّةً ... لِحُمَاتِهَا مِنْ حَرْبِكَ العُشَرَاء

وكما يبدو أن الفجوة بين المؤرخين ومحمد بن يوسف وابنه كانت كبيرة جدًا ، فقد كانت المصادر التاريخية تذكرهما بغير اكتراث ، يمرون عليهما لمامًا ، إذ أُغرِقوا في بحر الأحداث ، والحق يقال : إنهما يُعدَّان سورًا إنسانيًا منيعًا حصنت به الخلافة العباسية نفسها من الروم طيلة سبع عشرة سنة[2] ، والحق أن الشاعر استنزف كل ما عنده عن هذين العلمين ، وأدوارهما المشرقة ، فوقف على رواية أعمالهما وما حققاه من انتصارات ؛ لحماية الثغور ، ويظل أبوسعيد وابنه درسًا من دروس التاريخ لاينضب ماؤه ، يتجدد ، ويقدم العبرة لمن يعتبر .

يقول الشاعر[3] :

أَمَّا الثُّغُورُ فَقَدْ غَدَوْنَ عَوَاصِمًا ... لِثُغُورِ رَأْيٍ كَالجِبَالِ الشُّرَّعِ
مَدَّتْ وِلاَيَةُ (يُوسُفَ بنِ مُحَمَّدٍ) ... سُورًا عَلَى ذَاكَ الفَضَاءِ البَلْقَعِ
أَدْمَى فِجَاجَ الرُّومِ حَتَّى مَالَهَا ... سَيْلٌ سِوَى دُفَعِ الدِّمَاءِ الهُمَّعِ
بَحْرٌ لِأَهْلِ الثَّغْرِ، لَيْسَ بِغَائِضٍ ... وَسَحَابُ جُودٍ لَيْسَ بِالمُتَقَشِّعِ
وإِذَا هُمُ قَحَطُوا فَأَعْشَبُ مَرْبَعٍ ... وإِذَا هُمُ فَزِعُوا فَأَقْرَبُ مفْزَعِ
رَجَعُوا مِنَ الشِّبْلِ الَّذِي عَهِدُوا إِلَى ... خَلَفٍ مِنَ اللَّيْثِ الضَّبَارِمِ مُقْنَعِ
مُتَشَابِهَانِ إِذَا الأُمُورُ تَشَابَهَتْ ... حَزْمًا وَعِلْمًا بِالطَّرِيقِ المَهْيَعِ

ثم إنَّ الشاعر يذكر خبر ولاية ابن يوسف ، وأنه أحق بها ، بل إن الولاية هي

(١) البذ : مدينة بابك ، دخلها المسلمون وخربوها، واستباحوها، وذلك لعشرين بقين من شهر رمضان، ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤/ ٢٤٦) .
(٢) د.زكي المحاسني، السابق ص(١٦٤) .
(٣) ديوانه (٢/ ١٢٨٧) وما بعدها .

التي طلبته ، هذا وإن صحت رواية الصولي في تولية محمد بن يوسف بعد لأي ، وظلم عندما وقع ضحية أعداء الإسلام ، في قوله : «فأمر بإطلاقه ، وتوليته»[1] ، فهو دليل على أنَّ الشاعر أمضى جل وقته وشعره لرواية رجال التاريخ ، بل إنه يعيش الهم الذي عانوه ، ويتفانى في إبراز جوانب حياتهم ، سواء المظلم أو النير .

يقول[2] :

وَلْتَهنِكَ الآنَ الوِلاَيَةُ إِنَّهَا ... طَلَبَتْكَ مِنْ بَلَدٍ بَعِيْدِ المَنْزِعِ

لَمْ تُعْطَهَا أَمَلاً، وَلَمْ تَشغَلْ بِهَا ... فِكْرًا وَلَمْ تَسْأَلْ لَهَا عَنْ مَوْضِعِ

وفي هذا وذاك دليل على أنه راوٍ للتاريخ ، شاهد على ما وقع فيه ، «ولو لم يفدنا شعر البحتري سوى التاريخ لكان جديرًا بالمعاودة ، فكيف وهو تعبير عن وضع العبارة الجمالية»[3] .

---

(١) أبوبكر الصولي، أخبار البحتري ص(٩٧).

(٢) ديوانه (٢/ ١٢٩).

(٣) علي شلق ، البحتري ، ص(١٩٢).

جـ - أسباب اهتمام الشاعر بالرواية التاريخية :

على ما يبدو فإنَّ البحتري لم يكن الشاعر الوحيد الذي عبر عن مواقف التاريخ في عصره ، فقد سلك الطريق نفسه شعراء آخرون ، فهذه ظاهرة من ظواهر الشعر في العصر العباسي ، ولكنه من أكثر الشعراء الذين ظهرت عندهم هذه الظاهرة بوضوح تام .

«ففي ظل الحروب الدامية سواء على مناطق الثغور مع الروم ، أو بقية حروب العباسيين فيما بينهم ، أو مع الثورات المضادة لهم في ظلال الزنج أو القرامطة ، اختلفت وظيفة الشاعر ، ومن ثم غلف شعره التزام بجوهر الأحداث ، إيمانًا منه بأن الشعر رسالة ، وأن الشاعر يوظف شعره مواكبة لظروف عصره»[١] .

لذا ازدحم ديوانه بالروايات التاريخية ، وهو ينطلق من فهم واعٍ لماهية النص ، وكأنه يكاد يتوسع من دائرة الإبداع إلى دائرة أكثر علمية ، قد يطرح فيها صدى حدث تاريخي ، ربما وثقه بعمله وربما طرح فيه رؤيته الواقعية لإحدى قضايا عصره[٢] .

ففي أوقات ينسج فيها أشعاره يجعل جل همه الالتزام بالملامح التي يذكرها التاريخ ، وفي أحيان كثيرة يغنيه قليل الحدث عن كثيره ، فلا يكون لديه إلا اهتمامًا بالشخصية اهتمامًا مبالغًا فيه ؛ مما يدعو إلى تغييب ميثاق الحدث ، فلا يكون إلا ملحمًا له ، مزاوجًا بينه وبين الشخصية ، ثم إنه يقف على أحداث لم يذكرها التاريخ ، وهو مما يكسب حقائقه التاريخية ثراء عريضًا ، وهكذا لم ينحدر عن الأصل الشعري ، ولم تحده موضوعيته إلى أن ينحرف في توجيه الحدث[٣] بل وقف

---

(١) د.عبدالله التطاوي، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، ص(٣٤) وما بعدها .

(٢) د.عبدالله التطاوي، الشاعر مؤرخًا ص(١٢) .

(٣) نوري القيسي، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ، عالم الكتب ، بيروت ، ص(٣٣) .

في منزلة بين المنزلتين .

والسؤال الذي يلقي بظلاله بين سطور هذا المبحث ، ما السبب الذي جعل البحتري يهتم كثيرًا بالرواية التاريخية حتى أصبح عنده ذلك ظاهرة مستفيضة؟

يبدو أنه سببان :

١ – ذاتي .

٢ – خارجي .

١ – ذاتي : يندرج تحته :

أ – «حاجة الشاعر المادية التي دعته إلى قول الشعر ؛ إذ كانت موارد الكسب الشريف قليلة ، ولم يكن هناك مطابع ولا ناشرون ، ولا تعلّم شامل لأبناء الأمة ، حتى يمكن أن تروج الأفكار ، ويقبل الناس على المؤلفات والدواوين التي تحدث عن أشياء تروق للشعب ، ويستطيع أن يستغني بها كاتبها عن أن يطرق أبواب الملوك»[1] .

ب – رغبة بعض الخلفاء في التعرف على قصص وأخبار الأمم السابقة ؛ لمعرفة سياستهم في الحكم ، والبحتري نفسه عاصر الخلافة العباسية لمدة تزيد على سبعين عامًا ، عرض خلالها تاريخ العباسيين بوجه عام ، وتاريخ المتوكل بوجه خاص ، ثمة عرْضٍ لتفاصيل إيقاع الحياة الجديدة ، وما أحدثته من قفزة نوعية ، سواء على المستوى العام للحياة ، أم على المستوى الخاص ، وتأكيد ذلك في وزن وقافية[2] .

جـ – إقدامه وشجاعته ، فقد عرف التاريخ لرجال هذا العصر سمات ، ثم إنه توفر له من الأسباب ما يجعله حقيقًا بهذه الصفة .

د – البيئة المكانية ، التي نشأ فيها ، وكانت ملهمة للشعراء ، إذْ أكسبت المكان سمة التاريخ .

---

(١) أحمد أحمد بدوي، البحتري، دار المعارف، د.ط.د.ت، ص(١٤٥) .

(٢) نديم مرعشلي، البحتري، ١٩٦٠م، ط١، دار طلاس، مطبعة، ص(٥٥) .

هـ - حبه لعلوه التي ضن التاريخ عليها بالخبر .

٢ - خارجي : فالواقع أن عصر العباسيين كان عصر انتقال وقلق ، انتقال في الحياة من عيشة البدو إلى عيشة الحضر ، وانتقال في الدين ، وهو أكثر الانتقالات اضطرابًا ؛ إذ تنتشر في أطرافه الفتن والملل والتعصب والإباحية والحقائق والأباطيل[1] .

لذا اتخذ من الأحداث التي مرت بها الخلافة طريقًا من طرائق روايته .

ولقد كان العصر الذي عاش فيه قمة في التفاعل بين الشعر والتاريخ ؛ لأسباب منها : «أنه عصر انتشار التدوين ، وتسجيل المادة العلمية ، وكذا الازدهار الفكري أثر في دراسة النص الشعري أو في تبيين ثقافة مبدعة ، أو في استكشاف حقيقة الحركة الأدبية حوله ، بل حتى في التاريخ نفسه كمصدر من مصادر ثقافته ، نتيجة في تنوع طبيعته بين تاريخ العرب أو تاريخ الأمم المجاورة»[2] .

---

(١) د.محمد صبري : أبوعبادة البحتري درس وتحليل سلسلة الشوامخ ، ١٩٤٦م. د.ط، مطبعة دار الكتب المصرية، ص(٨) .

(٢) د.عبدالله التطاوي : حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، ص(٣٤) وما بعدها .

د – مصادر الرواية التاريخية :

لم تكن المادة التاريخية في شعر أبي عبادة محضًا أو من قبيل المصادفة ، فالمصادفة عمياء لا قانون لها . ولكنه كان يتعمد هذا ، ويقصده قصدًا ؛ إذ كان يستوفيها من مصادرها الأساسية ، فلا تكاد تقرأ قصيدة من ديوانه إلا ويستثمرها في خدمة هدفه ، فالواقع الذي يرويه يحدوه إلى ذلك ، ويكشف عن عمق الصلة بينه وبين عصر ضج بالزعزعة ، والعلوم ، والحضارة ، ولا غضاضة في هذا ، فهو مما يزيد من صحة وتأكيد توثيقه للخبر ، فكان من أهم المصادر التي اتكأ عليها الآتي :

أ – القرآن الكريم .

ب – أخبار النبي محمد بن عبدالله ﷺ وصحابته .

جـ – أيام العرب .

## أ- القرآن الكريم :

«ولقد كان كتاب الله مصدرًا أساسيًا للحضارة الإسلامية ، اعتمدت عليه منذ نشأتها في توضيح المعالم للقيم الاجتماعية ، ومذاهب التشريع ، والأخلاق ، والنشاط العلمي والثقافي فيه ، وكما أثبت القرآن مفهومًا متفاعلًا للزمان ، كيف ذاك وهو في كثير من آي القرآن الكريم ، يدعو لوجوب النظر في أحوال الأمم السابقة ، فجاء القرآن بنظرة عالمية للتاريخ . تتمثل في توالي النبوات التي هي في أساسها رسالة واحدة بُشِّرَ بها أنبياء عديدون . وهكذا صارت أخبار النبي ﷺ والصحابة والتابعين مصدرًا أساسيًا من مصادر الرواية التاريخية ، بالإضافة إلى ما ورثه العرب بعد الإسلام من أخبار الجاهلية ، وقصص الأيام والأنساب»[1] .

ولا ضير أن تجد ذلك مرصودًا في شعر البحتري ، فقد استثمر النص القرآني لخدمة فكرته ، فكثير من الشواهد تستمد طاقتها من كتاب الله ﷻ بما وسع من قصص السابقين والنظر في أحوال الأمم الماضية لأخذ العظة والعبرة ، وهذا أمر طبيعي أن يهتم الشاعر في عصر ولي من العناية بالفكر والتدقيق في كتب المفسرين ، ما الله به أعلم . وكان لزاما عليه أن يوجه جهده وفق تحديد خاص بمنطق عصره ، وإلا لاندرج في عداد المتأخرين عن منعطفات واقعهم ، فها هو يستثير بأكثر من ثلاث وستين آية من اثنتين وثلاثين سورة من القرآن الكريم[2] . يقول[3] :

أَيُّهَذَا الأَمِيرُ! قَدْ مَسَّنَا الضُّرُّ (م) وَمُدَّتْ يَدُ الخُطُوبِ إِلَيْنَا
وَلَدَيْنَا بِضَاعَةٌ مُزْجَاةٌ قَلَّ خَطَّابُهَا، فَبَارتْ لَدَيْنَا
أَيُّهَذَا الأَمِيرُ! أَوْفِ لَنَا الكَيْلَ بِمَا شِئْتَ أَوْ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا

فقد اعتمد على مصدر عالٍ يشكل صورة أنموذجية أعلى ؛ لأنه نابع من كلام الله

---

(١) عفت الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب ص(٢٤٧) وما بعدها .

(٢) د.حسن ربابعة : الصورة الفنية في شعر البحتري ، ص(٢١٧) .

(٣) ديوانه (٤/ ٢٣٩٢) .

ﷺ ، وربما أنه قالها من باب إيضاح توجهه ، والسؤال في هذا توظيف النص القرآني في سياق شعري مدعاة لماذا؟..

ربما ليعطي القارئ خبرًا عن طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وما يحدث بين أواصرها من أزمات ، فهو يشكو ضيق يده ، وهوانه على الناس ، فانتهى به الحال إلى أن يروي حاله وحال من معه إلى الأمير مستدلًا بقصة أخوة يوسف ﷺ ، وعلى ضوء ذلك يستطيع الباحث أن يقرر بأن الصلة بين العقيدة الإسلامية والقيم الحضارية قوية جدًا ، تركت بصماتها على ثقافة أفرادها ، والقرآن من أقوى هذه الصلات التي ساعدت على سريان هذه الروح في نفوس شعرائه ، وفي مجالات الحياة كافة[1] ، فقد ورد في كتاب الله تعالى قوله سبحانه[2] : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

هذه الرؤية حاول الشاعر العمل على تأصيلها في شعره ، وعيًا منه بأن مثل هذا الازدواج بين الشعر وقصص الأنبياء عليهم السلام ينبلج منه قوة تخفي وراءها أسرار النفس الإنسانية ، وقد تجمع المهابة والجمال في آن[3] . لذا فإن تفاعله مع الأحداث التي ألمت بعصره جعلت من الأثر القرآني ما يوضح سلوكه استجابة للخلق الديني الذي جبل عليه[4] .

وعلى هذا يستند في إطار حبس الثغري (محمد بن يوسف) على مصدر عالٍ يتشكل منه قصة يوسف ﷺ أعظم سجين في التاريخ ، حتى قال بعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ إنها أعظم قصة سمعنا بها،

---

(١) د.شلتاغ شراد ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، دار المعرفة ، دمشق ص(٢٢) وما بعدها .

(٢) سورة يوسف : (٨٨) .

(٣) انظر : د.حسن ربابعة ، السابق ص(٢٨٠) .

(٤) شلتاغ شراد ، نفسه ص(١٩) .

وقيل أحسن القصص ؛ لأنَّ كل ما جاء فيها عاد إلى أحسن حال[1] ، فيوسف تحول من حال الحبس والاضطهاد إلى النبوة والملك ، وأبوه بشّر بالانفراج واجتماع الشمل ، وعادت كل آثار القصة إلى الخير والفرح ، وفيها كثير من القيم التربوية ، والخلقية ، ففيها الصبر والالتجاء ، والتوبة ، وكذا الثغري تحول حاله من حبس إلى انفراج بعد أن كان في زنزانته ، فالجامع هو الحادث نفسه ، والعلاقة بينهما طردية ، فقد جاء في الخبر «أنَّ أبا سعيد طُولِبَ بمالٍ بعدَ غَزَواتِهِ المشهورة ، وسلم إلى أبي الخير النصراني ليستخرج المال منه ، فجعل يعذبه ، فشق ذلك على المسلمين ، وروي ذلك على المتوكل ، فأمر بإطلاقه ، وتوليته»[2] .

وفي هذا يقول البحتري[3] :

عَلَى أَنَّهُ قَدْ ضيمَ فِي حَبْسِكَ الهُدَى ... وأَضحَى بِكَ الإِسْلاَمُ فِي قَبْضَةِ الشِّرْكِ

أَمَا فِي نَبِيِّ اللهِ يُوسُفَ أُسْوَةٌ ... لِمِثْلِكَ محبُوسًا عَلَى الظُّلْمِ والإِفْكِ

أَقَامَ جميلُ الصبْرِ فِي السِّجْنِ بُرْهَةً ... فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الجَميلُ إِلَى المُلْكِ

وفي موقف آخر من مواقف الحياة ، يروي الشاعر قصة موسى عليه السلام مع السامري ، بطريقة تمس الحدث مسا خفيفًا لماحًا ، يفصح فيه الرجل عن مقصده .

يقول في قصيدة يمدح فيها (محمد بن عبدالله بن طاهر)[4] :

لِي حُرْمَةٌ مُذْ أَرْبَعُونَ أَعُدُّهَا ... حِجَجًا،وَلَسْتُ عَنِ القَدِيمِ بِنَاسِ

وَلَقَدْ رَجَعْتُ إِلَيْكَ بَعْدَ مَلاَوَةٍ ... فَقَبِلْتُ رَجْعَةَ وامِقٍ مستاس

فَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِي، وصِنِّي إِنَّنِي ... كالسَّامِرِيِّ مَحَرَّمٌ بِمَسَاسِ

فحرمة الشاعر منذ أربعين حجة ، وغياب موسى عن قومه لملاقاة ربه كانت

---

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق : عبدالله بن معلا اللويحق ، ط١، ١٤٢٣هـ مؤسسة الرسالة، بيروت(١٠/ ٤٠٤) .

(٢) أبوبكر الصولي ، أخبار البحتري ص(٩٧) .

(٣) ديوانه (٣/ ١٥٦٤) .

(٤) ديوانه (٢/ ١١٧٤) .

أربعين ليلة ، يقول الله جل وعز[١] : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إذ يكتمل المفهوم لدى المتلقي وقتئذ إتيانه بالملمح القصصي الذي استوحاه بذكر قصة السامري وتحريم مساسه قال تعالى[٢] : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ﴾ .

فالسامري عصى موسى ، وأشرك قومه مع الله ، فعاقبه موسى بالعزل وعدم مسه أو القرب منه ، ولكنه بتأييد إلهي يعاقب من له صلة به من مجتمعه بالحمى ، والبحتري أخذ من تاريخ القصة حرمة مسه بأذى ؛ لأنَّ الشاعر وعلى العكس منه يؤذي من يؤذيه ، ولكن حرمة الصداقة القديمة تمنعه من ذلك ، هذا من جانب ، ومن جانبٍ ثانٍ أن الشاعر لم يجنِ ذنبًا يتطلب بسببه القصاص .

والشاعر يستثمر النص القرآني خير استثمار ، فمن الناس من يحاول حفظ العهود ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وهو تعبير عن خُلق استغله الشاعر ليواكب حدث النسيان ، وهو يبرر ذلك ، أن الذي حصل من مهجوه قد حصل من أبي البشرية آدم عليه السلام الذي عاهد الله[٣] . يقول[٤] :

إنْ كُنْتَ أَنْسيتها فَلاَ عَجَبٌ قَدْ عَاهَدَ اللهَ آدَمُ فَنَسِي!

هذا وقد كانت النصوص القرآنية شعاعًا يضيء في نفسه وعقله عند شحن قريحته الشعرية ، بل ويعززه انفعال تجاه الشخصية ، وخيال ثري ، يقفزان به إلى الذروة التي خلدت بشكل أو بآخر في نفسه ونفس متلقيه .

---

(١) سورة الأعراف : (١٤٣) .

(٢) سورة طه : (٩٥-٩٧) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (١/ ٤٧) .

(٤) ديوانه (٣/ ١١٤٣) .

### ب - أخبار النبي محمد ﷺ (السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ) :

لاشك أن تيار الذاكرة الفاعلة للبحتري ما زال يسعفه بمدد من السيرة التاريخية، مشكلًا من أخبار النبي محمد ﷺ وصحابته والتابعين مصدرًا ثانيًا من مصادر روايته للتاريخ ، وهو يبعثها في حركة إحياء رائعة للسلوك يرى فيها اعترازًا وأسوة حسنة ، وهو يقدم فيها موضوعات شتى للتأمل ، وإن كان يشوبها أحيانًا فقدان النظرة الصائبة[1] .

لقد حمل البحتريَّ شوقٌ ملتهبٌ إلى التزود بمعين يسمو بقداسة التاريخ ، يتمثل في ذكره حادثة الإسراء لنبينا محمد بن عبدالله ﷺ ، واختلاط رحلة الإسراء برحلة المحب وحبيبته في تكريس للموقف يكسر الحواجز ، وبشكل مغاير لشكل الرحلة ، وما ذاك إلا انعكاس للرغبة الذهنية في إشباع حاجتها . فقد أسرى الله ﷻ بنبيه محمدًا ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلًا ، في شهرين من مكة إلى الشمال الغربي إلى بيت المقدس ، على ما يذكره ابن هشام من أن أكثر الناس من قريش قالوا مكذبين هذه الحادثة : «والله إن العير لتطرد شهرًا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرًا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة»[2] !! لكن رحلة الشاعر للحبيبة يتشكل من الشام غربًا إلى حبيبها الشاعر في العراق شرقًا ، وهنا بعد منتصف الليل ، فقضى من هيامه ثم عاد إليها قبل أن يبزغ الفجر ويخلع الدجى ثوبه . فالاتفاق في زمن الرحلة .

وعلى هذا يقول الشاعر[3] :

---

(١) د.عبدالله التطاوي ، حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية ص(٢١٩) .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وضبطها : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، ط(١) ١٤١٥هـ-١٩٩٤م ، بيروت -لبنان (٢/ ٣٣) .

(٣) ديوانه (٣/ ١٤٥٧) .

إِنَّ رَيَّـا لم تـسْقِ رَيَّـا مِـنَ الوَصـ ـل، ولَمْ تَـذْرِ مَـا جَـوى العُـشَّاقِ
بَعَثَـتْ طَيْفَهـا إِلَيَّ وَدُونِي وخْـدُ شَـهْرَينِ لِلْمَهـارِي العِتَـاقِ
زَارَ وَهْنًـا مِـنَ الـشَّام فَحَيَّـا مُـستَهامًا صَـبَا بِـأَعْلَى العِـرَاقِ
فَقَـضَى مَـا قَـضَى، وعَـادَ إِلَيْهَـا والـدُّجَى فِي ثِيَابِـهِ الأَخْـلاَقِ

ثم إنه يستند إلى معنى من المعاني التي أكد عليها النبي محمد بن عبدالله ﷺ من مخالفة اليهود والمجوس في هيئاتهم بإعفاء اللحى وإحفاء الشوارب ، فثار على مهجوه من هذا المنطق ، وهو يسر في نفسه لتعليل وتبيان موقفه ، هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلُّ على أنه قالها في مرحلة اتصاله بالمتوكل على الله ؛ إذ كان متمثلًا بالسنة ، معفي اللحية ، وما يوضح لنا أن ابن الرومي عاب عليه طول لحيته بقصيدة طويلة ؛ يقول[1] :

والبُحْـتُرِيّ ذَنَـوب الوَجْـهِ نَعْرِفُـهُ وَمَـا رَأَيْنَـا ذَنَـوبَ الوَجْـهِ ذَا أَدَبِ

وقد قال البحتري[2]:

أَعْفَـى ذِرَاعَيْـه وانْحَـى عَـلَى لِحْيَـتِـهِ بِـالنَّتْفِ يُخْفِيهَـا

فقد روي عن رسول الله ﷺ في كتاب الطهارة قال : «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ ، احفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللِّحَى»[3]، «احفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى»[4] ، «حُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحى خَالِفُوا الْمَجُوسَ»[5] .

وقد سعى إلى تعزيز رؤيته في سبيل تطويع فكرته ، وأنه في أغلب الأحيان راوٍ يلتقي ماضيه بحاضره باستناده إلى رؤية هلامية ليست من الصحة والعدالة والثقة

---

(١) ديوان ابن الرومي، شرح محمد شريف سليم، ، دار إحياء التراث العربي ص(٩٢١) .

(٢) ديوانه (٤/ ٢٤٣٦) .

(٣) أبوالحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم تحقيق محمد عبدالباقي ١٩٥٤م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت(١/ ٢٢٢) حديث رقم (٥٤) .

(٤) نفسه (١/ ٢٢٢) حديث رقم (٥٢) .

(٥) نفسه (٥٥) .

بمكان ، ففي معرض حديثه وهو يعزي أبا الحسن بن الفرات عن ابنته ، يقول[1] :

وَمِـــنْ نِعَـــمِ اللهِ لاشَـــكَّ فِيـــهِ بَقَـــاءُ البَنِـــينَ وَمَـــوتُ البَنَـــاتِ
لِقَـــولِ النَّبِـــي عَلَيـــهِ الـــسَّلاَ مُ: دفْـــنُ البَنَـــاتِ مِـــنَ المَكْرُمَـــاتِ!

سقمت رؤيته ، وخاب وخسر ، إذ تقوّل قولًا على أكرم الخلق ، وأصفاهم ، ليعمق فلسفة مريضة ، لم تتحملها الأسماع ، بل وصرحت بمقتها ونفيها ، وإن كان لي الحق في إلغائها من ديوانه ، فقد ادلهمت رؤيته ، وزادها أنه تشبث بحديث لم يتأكد من صحته قولًا وسندًا ، وماضره لو قال :

وَمِـــنْ نِعَـــمِ اللهِ لاشَـــكَّ فِيـــهِ تكـــاثرُ نَـــسْلٍ إِذَا المـــرءُ مَـــاتْ
لقَـــولِ النَّبِـــي عَلَيـــهِ الـــسَّلاَ م: دُخُـــولِ الجِنَـــانِ بِعَـــوْلِ البَنَـــاتْ

وهذا فيه من الخطورة مالا يعلمه إلا الله ، وربما أنه يشير من طرف خفي إلى ما كان عليه العرب قبل بعثة النبي ﷺ من عادات جاهلية ، وأد البنات وهن أحياء ، وفي هذا السياق عزا أستاذنا الدكتور حسن ربابعة فعله هذا إلى : «تعزيز فلسفتة الخاصة بمقت النساء ، وكيل التهم غير المقنعة إليهن ، وكان حريصًا على أن يبرز صورة مشوهة عن المرأة»[2] .

وإن كنت لا أوافقه القول ، فلا يكاد يكون هذا رأي صاحبنا ، فأنى له علوة ، وسلمى ، وسعدى ، ... وهو ينظم شعرًا جميلًا عن المرأة ، فلا يذكر إلا الحنين وشدة التوق لها . وربما أراد الشاعر مواساة المصاب ، لكن بطريقة سلبية .

ثم إنَّ معرفته بتاريخ العرب يشوبها أحيانًا خطأ ، وفي أحيان أخرى تجدها مستمدة من الخرافات الشائعة في عصره[3] ، مثل قوله[4] :

---

(١) ديوانه (١/ ٣٨٢) .

(٢) د.حسن ربابعة ، الصورة الفنية في شعر البحتري ص(٢٩١) .

(٣) أحمد أحمد بدوي ، البحتري بدون طبعة، دار المعارف ص(١٤٥)، انظر: مأمون محيي الدين الجنان، سلسلة الأعلام من الأدباء والشعراء البحتري دراسة نقدية حول فنونه الشعرية، ، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية بيروت ص(٩٣) .

(٤) ديوانه (٣/ ١٩٥٢) .

وَمِنْ إِرْثِكُمْ أَعْطَتْ صَفِيَّةُ مُصْعَبًا جَمِيلَ الأَسَى لَمَّا اسْتَحَلَّتْ مَحَارِمُهْ

يقول المعري -معلقًا على هذا البيت- بنى أبو عبادة هذا المعنى على أن صفية بنت عبدالمطلب كانت توصم بالصبر، ولم يرو عنها شيء من ذلك[1].

«لذا فإن تفاعل الشاعر مع الأحداث التي في عصره جعلت من الأثر التراثي الذي يتكئ على معنى من المعاني كتأييده للخلافة، ما يبين أن شعر هذه الفترة خاض صراع المذاهب في هذا العالم الواسع العريض، المائج المزدحم، وكان سلاحها في معترك الطوائف»، وحسبنا أن نعرف أن أبا عبادة شاعر القصر لم يهتم إلا بما اتصل بالسياسة من قريب أو بعيد[2].

ونشأ عن ذلك الاحتدام بين الأحزاب أن جعلوا المعول في الخلافة «الوراثة التي ابتدعها الأمويون، فالعلوية تقول: إن ابني فاطمة بنت رسول الله أحق بميراث جدهم الرسول، والعباسية تقول: «إن العباس عم الرسول ﷺ ووارثه[3]»، وعلى هذا يشير إلى أمر السياسة وما نالها من الحيف، ويضرب بشعره في جذور التاريخ الملهم. ممثلًا في أبيات من الشعر يقولها[4]:

هَلاَّ سَأَلْتَ مُحَمَّدًا بِمُحَمَّدٍ نَجِدُ الخَبِيرَ الصَّادِقَ المَصْدُوقَا

كُنَّا نُكَفِّرُ مِنْ أُمَيَّةَ عُصْبَةً طَلَبُوا الخِلاَفَةَ فَجْرَةً وَفُسُوقَا

وَنَلُومُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ كِلَيْهِمَا وَنُعَنِّفُ الصِّدِّيقَ وَالفَارُوقَا

وَهُمُ قُرَيْشُ الأَبْطَحَيْنِ إِذَا انْتَمَوْا طَابُوا أُصُولًا فِيهِمُ وعُرُوقَا

وحتى يجعل محور حديثه مصادر الرواية في حقب الماضين، جعل التعبير عن أحقية الخلافة أحيانًا للعلويين وأحيانًا للعباسيين حسب ما تمليه عليه ظروف الحكم.

---

(١) ديوانه (٣/ ١٩٥٢).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٣٢١).

(٣) ديوانه (٣/ ١٤٤٨).

(٤) ديوانه (٢/ ٨٥١).

قائلًا[١] :

وَإِنَّ عَلَيَّ لَأَوْلَى بِكُمْ ... وأَزْكَى يَدًا عِنْدَكُمْ مِنْ عُمَر

كما قال أيضًا[٢] :

رَدَدْتَ المَظَالِمَ واسْتَرْجَعَتْ ... يَدَاكَ الحُقُوقَ لِمَنْ قَدْ قهِرْ

وآلَ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَمَا ... أُذِيعَ بِسِرِّهِم فَابْدَعَرْ

ثُمَّ إنَّه يرجع بذاكرته إلى نسب ممدوحه (ابن القمي)[٣] ، ويرى أنَّهُ أحقُّ بالملك ؛ نظرًا لما يرجع إليه من نسب الأشعريين ، حيث أدد جد الأشعريين ، وإلى جدات النبي ﷺ العواتك والفواطم[٤] . منتمى الممدوح. يقول[٥] :

وَشَرِيفُ أَشْرَافٍ إِذَا احْتَكَّتْ بِهِمْ ... جُرْبُ القَبَائِلِ أَحْسَنُوا وَأَسَاءُوا

هُمْ الفِنَاءُ الرَّحْبُ والبَيْتُ الَّذِي ... أددٌ أَوَاخِرُ حَوْلَهُ وفِنَاءُ

بَيْنَ العَوَاتِكِ والفَوَاطِمِ مُنْتَمَى ... يَزْكُو بِهِ الأَخْوَالُ والآبَاءُ

---

(١) ديوانه (٢/ ٨٥٠) .

(٢) ديوانه (٢/ ٨٥٠) .

(٣) ابن القمي : أبوجعفر محمد بن علي بن موسى بن طلحة بن محمد بن السائب بن مالك الأشعري ، ولد بقم وهي مدينة بين أصبهان وساوة . انظر : هامش الديوان ، ١/ ٢٠ .

(٤) انظر : ابن الأثير، الكامل في التاريخ (١/ ٤٦٨) .

(٥) ديوانه (١/ ٢١) .

جـ - أيام العرب :

لعلَّ أيام العرب مصدر من مصادر الرواية التاريخية ، وما قال فيها البحتري من أشعار تدل دلالة واعية على أن شعره أصبح المصدر الأساسي لما عجزت عن تقديمه الوثائق ، وفيه من المواقف ما غفله التدوين[١] ، هذا ولقد تعددت صور الأخذ ، وتنوعت درجاته في زحام الأحداث ، سواء أكان منها في عصور الماضين أم في عصر الشاعر[٢] .

هذا وقد أسهب البحتري في رصد فكرة التاريخ ، والعناية برواية أيام العرب والارتواء بكأسها من خلال قصائده ، ولقد تبين وقوفه عند ذلك ، وهي لائحة عريضة في شعره تعد -إن صحَّ القول- مثلًا في التحقيق التاريخي .

فهو يشير إلى (يوم الفتح)[٣] في قصيدة مدح بها (الفتح بن خاقان)[٤] ، فاجتمعت في الرؤية رؤيتان ، واحدة منها فتحت آفاقًا واسعة تجلى فيها فتح مكة ، وربط تاريخ الفتح بتاريخ الممدوح ، واستبشار المسلمين بالفتح الإسلامي باستبشارهم بالفتح بن خاقان ، وفي كل استبشار ونصرة ، وخير كثير .

يقول[٥] :

---

(١) انظر : د.نوري القيسي،شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، ص(٣٩)، وانظر: د.محمد الخطراوي، شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م دار القلم، دمشق، بيروت ص(٩٤) .

(٢) د.عبدالله التطاوي، حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية ص(١٦١) .

(٣) يوم الفتح : كان هذا اليوم في رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة ، بين بكرٍ وخزاعة . انظر : محمد أبوالفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي : أيام العرب في الإسلام ، المكتبة العصرية ، صيدا-بيروت ، ط(١) ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م ، ص٧٣ .

(٤) الفتح بن خاقان : هو أبومحمد الفتح بن خاقان القائد ، أديب ظريف له شعر مليح ، وهو ظل المتوكل ، والمقتول معه . انظر : محمد بن عمران المرزباني : معجم الشعراء ، دار الجيل -بيروت ، ط(١) ١٤١١هـ ، ص١٧١ .

(٥) ديوانه (١/ ٤٧٤) .

قَـــدْ جَـــاءَ نَـــصْرُ اللهِ وَالفَـــتْحُ وَشَـــقَّ عَنَّـــا الظُّلْمَـــةَ الـــصُّبْحُ
وَزِيـــرُ مُلْـــكٍ وَرَجَـــا دَوْلَـــةٍ شَـــيمتُه الإِنْعَـــامِ والـــصَّفْحُ
وَكُـــلُّ بَـــابٍ لِلنَّـــدَى مُغْلَـــقٍ فَـــإِنما مِفْتَاحُـــه الْفَـــتْحُ

وربما خدمت البحتري تلك الحداث ، وظلت أمامه نهر عطاء ينهل من معينه شهادة له على قدرة التوثيق بالصورة التي تحلو له ، وفي إطار مصادره التي اعتمد عليها في روايته للتاريخ تبدو وليدة الصنعة ، والانفعال والوجدان والعقل جميعًا ، وهذا ما يوضحه من خلال ما يدلي به شهادة على عصره ، أو على حقب الماضين ، وربما أنه يطرح فيه رؤيته الواقعية لإحدى قضايا عصره . وبناء على هذا تبدو وظيفة نتاج البحتري الشعري مشدودة إلى التاريخ/ الأحداث[1] .

واستمرارًا في تدفق شلال النوال يأتي أبوعبادة ليغرف منه ما يتوافق وأبعاد القضية التي عاشها ، متدرجًا من أيام العرب في الجاهلية ثم الإسلام ثم ما حدث في عصره .

فها هو لم يكتف بالبحث عما دار في عصره ، بل دفعه إلى ما آلت إليه الأمم السابقة .

يقول[2] :

تَفَـانَى النَّـاسُ حَتَّـى قُلْـتُ عَـادُوا إِلَى حَـرْبِ البَـسُوسِ أو الفِجَـارِ[3]

وقائلًا[4] :

---

(١) د.عبدالله التطاوي ، الشاعر مؤرخًا ص(١١٢) .

(٢) ديوانه (٢/ ٣٧١) .

(٣) الفجار : وذلك عندما التقت الأوس والخزرج ، وكان على الخزرج عبدالله بن أبي سلول ، وعلى الأوس أبوقيس بن الأسلت ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كاد بعضهم يفني بعضًا ، وسمي ذلك يوم الفجار لغدرهم بالغلمان وهو الفجار الأول . أما يوم الفجار الثاني ، فقد اجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالًا شديدًا وسمي الفجار الثاني لقتل الغلمان من اليهود . انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ١/ ٤٤٠ وما بعدها .

(٤) ديوانه (٣/ ١٣٥٣) .

مَضَوْا بَيْنَ أَضْعَافِ الخُطُوبِ كَمَا مَضَتْ (جُدَيسُ) وَبَانَتْ فِي مَنَازِلِهَا جَفُّ

وقال[1] :

نُصِرَتْ رَايَاتُهُ أَوْ نَاسَبَتْ رَايَةُ الدِّين (بِبَدْرٍ) و (أُحُدْ)

ولقد ظلت مصادر روايته للتاريخ قائمة على التنوع ، يلتقط منها ما يؤيده ، وما يكشف عن رغبة في التشفي من الأعداء ، فهاهو يجعل من أيام عصره ركيزة لذلك .

حيث يقول[2] :

وَفِي (يَوْمِ صِفِّيْنَ) اقْتَسَمْنَا ذُرَى العُلاَ وَقَدْ جَعَلَ الخَطِّيُّ يَعْثُرُ بِالكَسرِ

ويقول[3] :

وَ(يَوْمُ القَرِينَيْنِ) انْتَصَرْنَا وَلَمْ نَخَفْ بِكُلِّ طَوِيلِ الباعِ مُنْفَسِحُ الصَّدْرِ

وقال[4] :

أَوَمَا سَمِعْتَ بِيَوْمِهِ المَشْهُودِ فِي لُكَّامِهِمْ إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَشْهِدِ؟

(يَوْمُ الزَّوَاقِيلُ) الَّذِينَ تَقَاصَرَتْ أَعْمَارُهُمْ فَتَقَطَّعَتْ عَنْ مَوْعِدِ

ثم إنه يروي ما وقع من انتصار أبي سعيد وقتاله محمد بن عمرو الشاري ، متخذًا من هروب ابن عمرو على فرس نزق مرعوب مادة للتوثيق ، تحدوه نظرة للتأمل والارتداد إلى يوم الكحيل ، فهروب الشاري مجتازًا نهر دجلة العريض العميق دونما غرق ، على أنه لعمقه يغرق (عمليق) العربي الذي يوسم بطوله الأسطوري ، فهو يجاور بين ما حدث للشاري وما حدث في يوم الكحيل ؛ إذ العلاقة بينهما الاشتراك في الحدث نفسه (إراقة الدماء) . قائلًا[5] :

---

(١) ديوانه (٢/ ٧٠٦) .

(٢) ديوانه (٢/ ١٨٤) .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٨٤) .

(٤) ديوانه (١/ ٥٤٦) .

(٥) ديوانه (٣/ ١٤٥٠) وما بعدها .

وَمَضَى ابْنُ عَمْرو قَدْ أَسَاءَ بِعُمْرِه ... ظَنًّا يُنَزِّق مُهْرَه تَنْزِيقَا
رَكِبَتْ جَوانِحُه قَوَادِمَ رَوْعِهِ ... يحذفنه حَذْفَ المِرِير الفُوقَا
فَاجْتَازَ دِجْلَةَ خَائِضًا وَكَأَنَّهَا ... قُعُبٌ عَلَى بَابِ (الكَحيل)[1] أُرِيقَا
لَوْ خَاضَهَا عِمْلِيقُ أَوْ عِوَجٌ إِذَا ... مَا جَوَّزَتْ عِوَجًا وَلاَ عِمْلِيقَا

ويظل البحتري ملحًا على الأحداث ، ويقف على أحداث عصره كشاهد عيان ، ومثل هذا النغم الحار ، المليء بلحظات النصر يرفع لواء الصحو للأمة العربية ، ويتزعم إعادة بناء التاريخ في حقول شعره .

يقول[2] :

إِنِّي رَأَيْتُ جُيُوشَ النَّصْرِ مُنْزَلَةً ... عَلَى جيُوشِ أَبِي الجَيْشِ بن طُولُونَا
(يَوْمُ الثَّنِيَّة)[3] إِذْ يُثْنِي بِكَسْرِيَه ... في الروع خمسين ألفًا أو يزيدونا
والحربُ مُشْعِلَةٌ يَغْلِي مراجِلُها ... حِينًا، ويَضْرِمُ ذاكِي جَمْرِهَا حِينَا

وفي كثير من مواقفه التي يعتد بها توضح جانبًا من مسلكه وفخره بما ضيه .

يقول في وقعة الجسر[4] :

أَبَدْنَا جُمُوعَ الرُّوم حِين تَنَازَعَتْ ... فَوَارِسنَا الهَيْجَاء فِي وَقْعَةِ الجِسْرِ

ولك أن تتصور استمرارية ذلك الإيقاع / الأحداث في شعره الذي يدفعه إلى التمعن في مديحه ، بحيث توزع قصيدة ما بين مدح وسياسة ، وهذا ما ذكره في مدح (عبدون بن مخلد) في (يوم فِصْح) .

---

(١) الكُحَيْل : موضع بالجزيرة ، وكان فيه يومٌ للعرب ، قال أحمد بن الطيب السرخسي : الكحيل مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين ، ذكر ذلك في رحلة المعتضد لحربه خمارويه في سنة ٢٧١هـ ، أما الآن فليس لهذه المدينة خبرٌ ولا أثر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٤٣٩ ، مادة (ك ح ل) .

(٢) ديوانه (٤/ ٢٢٠٤) .

(٣) يوم الثنية : وفيها التقى خمارويه بن طولون مع أبي الساج نحو الشام سنة ٢٧٤هـ عند ثنية العقاب واقتتلوا في المحرم من هذه السنة . انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٤/ ٥٥٠ .

(٤) ديوانه (٢/ ١٠٠٤) .

كما في قوله[1] :

فَـتْحٌ وفِـصْحٌ قَـدْ وَافَيَـاكَ مَعًـا  فَـالفَتْحُ يُقْـرَا والفِـصْحُ يُفْتَـحُ

ويبدو -مما سبق- أن أبا عبادة يطرح أخباره بين يدي ممدوحيه ليثبت للأيام تفوقه على صعيد الوعي بالكتابة ، فصار نصه يتعامل مع التاريخ ، ولا شك أن هذا يستدعي في سياقه المزيد من الخبرة ، والثقافة ، والجهد ، والثقة ، ونجم عن هذا أن تسنم الريادة للإبداع ، ولا حرج في توظيفه لها عرضًا باعتبار أن الفكرة دوارة جوالة في ذهنه ، ولكنها مقيدة بطريقة آدائها ، واستيفائها من مصادرها الأساسية .

(١) ديوانه (١/ ٤٥٦) .

## المبحث الثاني :

## استلهام الأحداث التاريخية في شعر البحتري التاريخي :

ومما هو جدير بالذكر على مستوى هذا المبحث أن أبين أنه لا نتوقع جدلًا بأن الشاعر العربي عامة والعباسي بخاصة لم يقف عند أحداث مضت ، وهذا يعني أنه استعان بأحداث سابقة ، وأخذ منها ، واستمد منها ؛ لتعزز رؤية خاصة لم يسمح للشاعر وقتها أن يحضرها ، أو أن يشارك فيها ، فاستخدمها تعبيريًا لتحمل بُعدًا من أبعاد التجربة ، أي أنها تصبح وسيلة وإيحاء في الوقت نفسه يعبر الشاعر من خلالها عن رؤياه الحاضرة . أو بمعنى آخر : الاستعانة بأحداث سابقة غائبة عن مرأى الشاعر ، فأخذ منها لتوافق رؤية خاصة[١] .

ومن بين هذا اللهاث تندفع قوة الاستلهام في النص ، ولو تتبعت ظاهرة الاستلهام أجد أنها ظاهرة قديمة بدأ الاهتمام بها منذ زمن فلاسفة اليونان القدامى وبالأخص منهم أفلاطون الذي أرسى قواعدها[٢] . ثم تبعه في ذلك الفكر العربي القديم الذي عني بهذه الظاهرة على نحو ما هو مدبج في قصائد الشعراء ، فاستكشفوا بذلك مصدر الإلهام النابع من الذات الداخلية عن طريق هاجس خفي ، تتداعى من خلاله ذكريات أحداث ماضية يصل من خلالها إلى استلهامها[٣] . ليس كما يظنه الفكر اليوناني بأن الشاعر لا يعتمد على ملكاته الشخصية ، وإنما ينفذ إرادة عليا أسمى من إرادته ، تمليها قوة خارقة لكي تنقله إلى ما يكتب[٤] .

---

(١) انظر : د.علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ط١، ١٩٧٨م، الشركة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس ، ص(٥٠) .

(٢) مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، ، ط٣، دار المعارف ص(١٩٠) .

(٣) انظر : عبدالقادر فيدوح ، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ، ص(٥٢) .

(٤) مجدي وهبة ، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الهمزة، حرف الألف، ، ط٢ ، منقحة ومزيدة ، ١٩٨٤م ، مكتبة لبنان ، ص(٦٠) .

والواقع أنه ينبغي ألا يفهم الاستلهام على أنه نوع من التدفق والانثيال ، فيندفع للقول مبدعه دون روية أو فكرة ، وإنما هو الصنعة الجيدة التي تنبعث من استعدادٍ فطري ، وثقافة مكتسبة[1] ، «فالإلهام نضج فني يبزغ من داخل الذات الشاعرة بعد فترة من التحصيل الثقافي ، والتأمل الواعي ، والإثارة النفسية ، وليس إشراقًا على النفس فجأة»[2] .

ولذلك فإن أصداء الأحداث متنفس للشاعر ، تبعثه على التركيز على فكره ، وانفعاله ، وهذه الصلة ما هي إلا موازنة بين الأوضاع الآنية التي يعيشها وبين سابقتها ، وهي أيضًا تكشف عن المعاني الإنسانية التي يسعى الشاعر إلى تعميقها في النفس ، وتحتم موقفه عبر شخصياتها ليكون ترصيعًا إبداعيًا واعيًا ، هذا وكونه يجسد موقفه عبر شخصيات مستمدة من النمط الواقعي ليس إلا شعورًا يضيؤه عالم التاريخ خلال حقبة زمنية ممتدة ، وما هو إلا طريقة من طرائق استكشاف عالم الحدث الفسيح ، وفيه أيضًا إمعان في طبيعة النفس الإنسانية وما يعتريها ، وهي إن جاز القول نظرة مختصرة إلى أشياء/ أحداث ليست موجودة في واقعها ، لكن عبر منظور شعوري انفسح مجالها ، وأصبحت ذات أبعاد متعددة منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو فني ، ونفسي ، وللشاعر في هذه الحالة أن يدع ما وسعه ذلك ؛ ليكسب تجربته إطارًا شموليًا باذخًا[3] .

«كما أن في الاستلهام دليلًا على أن الشاعر قصد التغلب على الأوضاع الخارجية ، والاهتمام بوعي الذات انطلاقًا من كونه لايعدو أن يكون شاعرًا فردًا ، إذ إن هذا يعطيه رؤية يبرهن من خلالها على مصداقية ما يقول ، ويعلل في كثير من أحواله على مدى التفطن أو النباهة باستكشاف ما يعتري أو ما يتخلل الإنسان من

---

(١) عبدالقادر فيدوح، السابق ص(٥٢) .

(٢) عبدالفتاح عثمان ، نظرية الشعر في النقد العربي القديم، مكتبة الشباب ١٩٨٤م ، ص(٥٥) وما بعدها .

(٣) انظر : نوري حمودي القيسي، الأديب والالتزام ، ص(١٥٠) .

مشاق أثناء تغذية الفكر ، أو ما يعترضه من جهد حين يستلهم الأحداث»[1] .

وعلى هذا النحو ، فإن استلهام الأحداث التاريخية وسيلة إلى الخلق الموضوعي يضفيه الشاعر على عساجده ليعطيها نوعًا من المصداقية في التوثيق ، ولا أدل على عمق تأثره من أن أكثر أبياته تعلق واستذكار بالمواقف السياسية التي مر بها العصر ، وهي من جهة ثانية ، توضح من بين حناياها عمق صلة الشاعر بموروثه ، ومن أخرى تنبع عن شعور يراود الشاعر بأن الماضي لا يحيا إلا في الحاضر[2] .

لهذا كله تجد شاعرنا لم يكن بعيدًا عن الأحداث الغائبة ، خاصة في مرحلة الخليفة المتوكل إذ استطاع آنذاك أن يدخل المعركة ، ويرسم صورها ، ويعيش مع الأحداث فيكشف عن أوضاعها ، ويتابع نتائجها .

ومن اللطيف أن يقتص مشهدًا من مشاهد تلك الأحداث ، فلقد شعشعت في نفسه أحداث كانت غائبة عنه لكنه بحذق في الصياغة استلهمها وفق عوامل تكاد تؤكد ما يعتري الشاعر من ظروف تجعله يستمد من تلك الأحداث ، وسأوردها على وفق الآتي[3] :

أ - عوامل سياسية .

ب - عوامل اجتماعية .

جـ - عوامل فنية .

د - عوامل نفسية .

---

(١) عبدالقادر فيدوح ، السابق ، ص(٥٠) .

(٢) علي عشري زايد ، استدعاءات الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص(٤٠) وما بعدها .

(٣) نفسه ، ص(١٨) .

أ - عوامل سياسية :

إنَّ النَّاظر في العصر العباسي والحياة السياسية على وجه الخصوص يلحظ أن الأحداث خلفت ظلًا ثقيلًا وأصبحت في أغلب حالاتها موئلًا للهزل والتشتت[1] ، لذا عبَّر شعراء هذه الفترة عن هذه الأحداث وما تركته من أثر في نفوسهم ، والبحتري واحد من أولئك الذين لم يعودوا يقاومون ذلك الجحيم فأشعل في أبياته كثيرًا من الآلام التي أصابت الأمة العربية جراء عدوان الروم ، وفي حمى هذه السياسة كانت تظهر أهدافه المثلى في التخلص من جحافل الغزاة ، والدعوة إلى التصالح ، واستنهاض الهمم ، وهو يحاول من خلال استذكاره أن يرسم في قصائده الأسلوب الذي يستطيع أن يقدم به أنموذجًا مناضلًا ، وبه يقوّم ما اعوجّ ، ويعيد ثقة العربي بربه أولًا وقبل كل شيء ، ومن ثم ثقته بنفسه ، ولابد أن يكون الشعر في هذه الحالة الوسيلة المعبرة عن هذا الطموح ؛ لأنه يترك في الذاكرة البصمات الحقيقية لأهل الكفاح ، حتى يستعيدوا قوتهم ، ولا شك أن استلهام الأحداث فضاء رحب لكل ذلك[2] .

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي مر بها الإسلام والمسلمون ، إلا أن مَزج الأحداث في قصائده يظل محط عطاء ، وموقع انتباه لما صال وجال ، وتبدو في كثير من أحوالها وليدة حس صادق ينتهي البحث فيه إلى اعتبار «أن النص الأدبي جزء صغير في بنيان ثقافي أكبر ، يدخل فيه بشكل واسع التاريخ وغيره من العلوم»[3] . كما أنَّ فيه إدراك الشاعر لعظم الدور الإنساني الذي تردد صداه حتى جاوز الأسماع ، ثم إن متابعة شاعرنا للأحداث الغائبة والاستعانة بها وتطعيم شعره بها

---

(١) انظر على سبيل المثال ، الطبري/ تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٤٥٤) ، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٣٥٤) ، المسعودي/ مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤/ ١٤٦)، فازيليف ص(١٩٣) .

(٢) انظر : الأديب والالتزام ص(١٥٠) وما بعدها .

(٣) عبدالله التطاوي ، ص(١٢) .

يمثل الخط الواضح في تقديم الخبر بثوب قشيب ؛ مما يزيد الاطمئنان إلى صحة ما يقول ، ثم إن كثرة استلهامها في مرحلة بعينها لهي دلالة على تخليده للماضي ووقوفه على نهج حاول أبوعبادة أن يرسمه[1] ؛ «إذ يكشف القناع عن واقعه المأساوي حين يعلن ضجره وسخريته من واقع الاتكال والإهمال ، فكيف الحال وهو يقدم صورة إنسانية بارزة ، ويعلن للجمهور موقفه الصريح منها وهو بهذا شاعر وناقد في الوقت نفسه»[2] .

ولقد عاود الشاعر استلهام الحوادث التاريخية ، فهو يواصل ما خطه في طريقه ، حيث استلهم موقف الخلافة زمن المعتمد ، وما أصاب الشاعر خاصة في مرحله متأخرة من عمر الزمن الشعري ؛ إذ كان ينكر في قرارة نفسه طريقة المعتمد التائهة في الخلافة ، وقد مضى في هذا ليشرح المراوغة في عدم إحكامها ، ومن ثم بدا طابع التوجس من خلافة كهذه منكبة على مغريات ، ولذيذ شهوات الدنيا ، ففي قصيدة يمدح فيها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل في حسن رويته في استقبال الأمور في روح استلهامية تلميحية ؛ يقول[3] :

إنَّ الخِلافَـــةَ لاَ تُلْقِـــي كَتَائِبَهـــا ... كَـمَا لَقِيـت (بعـوادٍ) و (صـناج)

تَرَكْـتَ عُـودَ (كُنَيـزٍ) فِي العَجَـاجِ فَلَـمْ ... تَرْبَـعْ عَـلَى رَمَـلٍ فِيـهِ وأهـزاجِ

تَـصِيحُ أَوْتَـارُهُ والخَيْـلُ تَخْبِطُـهُ ... يَطَـأَنَ حِفْنَيْـه فَوْجًـا بَعْـد أفْـواج

فهو يستلهم ظروف الخلافة وما آل إليه أمرها زمن المعتمد بخلافة إسماعيل وما في أمرها من عزم ، ومضاء دون فتح باب اللهو المسرف ، والموسيقى ؛ إذ ذلك معول خفق وفشل في تركيبة الخلافة ، وفي انشغال أهلها عن الرعية ؛ بل هو العيب نفسه ، وهو في سخرية يعرض بطريقة المعتمد ، فهو يمدح إسماعيل وماله من سياسة راشدة عكس ما رآه في سالف الزمن من الخليفة المعتمد وما كان من حال

---

(١) نوري القيسي، الشعر والتاريخ ، ص(٧٧) .

(٢) نوري القيسي، الأديب والالتزام ، ص(١٣٨) .

(٣) ديوانه (١/ ٤١٣) .

الخلافة وحاله ، فقد ترك الأمر إلى أخيه الموفق ومضى مشغولًا بالموسيقى وفنونها ، ويشير إلى لجلجة وغطرسة ما كان لهم أن يفعلوها فقد بلغ من صرفه على ملذات الدنيا ما رواه أبوالفرج الأصفهاني عن (جحظة) : «وهو أنه كان عند المعتمد يومًا فغنته شارية فاستحسن غناءها ، فأمر لها بألف ثوب من جميع أنواع الثياب الخاصية ، وهو أمر لم يسبقه فيه خليفة آخر»[1] ، وهو يشير إلى طريقة الرجل في استلهامه ، خاصة إذا كان الموقف سياسيًا وهي من السهل الممتنع الذي يخدعك ظاهره عن أعمق البواطن[2] ، فهو يقرر سياسة الخلافة ، ويومئ من بعيد إلى غفلة المعتمد .

ولا تثريب على الشاعر ؛ إذ وظف أحداثًا غير موجودة ، وهو دليل على أن هذه الصيغة هي التي حكمت علاقة الشاعر بماضيه ، وهي صورة من صور الارتباط به . فارتداد الشاعر إلى الماضي يستلهمه ويأخذ منه العبر ما هو إلا انعكاس لطبيعة المرحلة التاريخية التي عاشها ، خاصة في الحقبة الأخيرة ، واختيار الشاعر من أحداث التاريخ وشخصياته ما يتوافق وطبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد إيصالها إلى المتلقي ، بل واستنطاقه في العديد من قصائده للحدث الماضي ، لاشك أنه يفتح لذاكرته رتاجًا ثر المناحي[3] ، فمن ذلك قصيدة مدح فيها (أحمد بن عبدالعزيز بن دلف) يستلهم فيها وقائع الموفق للصفّار . يقول[4] :

آلَ آلُ الدَّجَّالِ كَالأَمْسِ لَمْ يَأْ ... تُ انْقِضَاءٌ لِكُلِّ نَارٍ خُمُودُ

غَابَ عَنْ تِلْكُمُ الْجَوَانح مِنْ عُو ... فِي مِنْهَا والأَخْسَرُونَ شُهُودُ

فَضَّ جُمَّاعَهُم بِرُوَذَانِ يوم ... بَادَ فِيهِ مَنْ خِلتَهُ ولاَ يَبِيدُ

لَمْ تَقُم صُفْرُهُمْ عَشِيَّةَ زَارَتْ ... هُ جِبَالٌ يُضِيءُ فِيهَا الحَدِيدُ

نَسَفَتْ حَاضِرَ الرُّوَم فَمَا قَا ... مَ بتلْكَ الخِيَامِ بَعْدُ عَمُودُ

---

(١) أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني ، ط٣، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان(٨/ ١٧٦) .

(٢) محمد صبري ، أبوعبادة البحتري درس وتحليل ، ص(١٤) .

(٣) علي زايد ، السابق (١٦) .

(٤) ديوانه (١/ ٥٠٣) وما بعدها .

فهو يشيد في استلهامه لوقائع الموفق مع الصفار «الذي سار في المحرم من فارس إلى الأهواز ، فلما بلغ المعتمد إقباله أرسل إليه إسماعيل بن إسحاق رسالة ، فلما سمع المعتمد رسالة يعقوب خرج من سامراء في عساكره وسار إلى بغداد ثم إلى الزعفرانية فنزلها ، وقدم أخاه الموفق ، وسار يعقوب من عسكر مكرم إلى واسط ، والتقيا ، وأما أبوأحمد الموفق فإنه سار إلى واسط ليتبع الصفار ، وأمر أصحابه بالتجهيز لذلك ، فأصابه مرض...»[1] .

وكثيرًا ما يحس شاعرنا بنشوة الظفر حين يستلهم أحداثًا لها وقع في نفوس المسلمين ، وعلى العكس منها نفوس الأعداء ، وعلى الخصوص إذا كان استلهامه لشخص يوسف بن محمد ؛ إذ يذكر يوم الزواقيل ، وتكراره لهذه الأعمال بدافع الحس القوي الذي يجعله يدلل على كثير من الأحداث بتلقائية مرتبطة في وجدانه . يقول[2] :

أَوَمَا سَمِعْتَ بِيَوْمِهِ الْمَشْهُودِ فِي ... لُكَامِهِمْ إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَشْهَدِ؟
يَوْمُ (الزَّوَاقِيلِ)[3] الَّذِينَ تَقَاصَرَتْ ... أَعْمَارُهُم فَتَقَطَّعَتْ عَنْ مَوْعِدِ
وَتَوَقَّدُوا جَمْرًا فَسَالَ عَلَيْهِمْ ... مِنْ بَأْسِهِ سَيْلَ الغَمَامِ المُزْبَدِ
مَزَّقْتَ أَنْفُسَهُمْ بِقَلْبٍ وَاحِدٍ ... جَمَعَتْ قَوَاصِيهِ وَسَيْفٍ أَوْحَدِ
لَمْ تَلْقَهُمْ زَحْفًا وَلَكِنْ حَمْلَةً ... جَاءَتْ كَضَرْبَةِ ثَائِرٍ لَمْ يَنْجِدِ
وَجَعَلْتَ فِعْلَكَ تِلْوَ قَوْلِكَ قَاصِرًا ... عُمْرَ العَدُوِّ بِهِ وعُمْرَ المَوْعِدِ
وَقَعَدْتَ عَنْكَ وَلَوْ بِمُهْجَةِ آخَرٍ ... غَيرِي أَقُومُ إِلَيْهِمِ لَمْ أَقْعُدِ
مَا كَانَ قَلْبُكَ فِي سَوَادِ جَوَانِحِي ... فَأَكُونَ ثَمَّ وَلاَ لِسَانِي فِي يَدِي
وَأَنَا الشُّجَاعُ وَقَدْ بَدَا لَكَ مَوْقِفِي ... (بِعَقَرقس) والمُشَرَّفِيَّةُ شُهَّدِي
وَرَأَيْتَنِي فَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرٍ ... رَبُّ القَصَائِدِ فِي القَنَا المُتَقَصِّدِ

فحديثه عن أحداثه شعرًا امتزج بنبض من استلهامه لوقائع يوسف بن محمد ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (٤/ ٤٦٤) .

(٢) ديوانه (١/ ٥٤٧) وما بعدها .

(٣) الزواقيل : قوم بناحية الجزيرة وما حولها .

حيث إن إزماعه على القضاء على أعداء الإسلام لم يكن وليد الصدفة ، بل هو سياسة تنبع عن مشهد من مشاهد البطولة التي تأخذ حيزًا من ذاكرة العربي ، ويوم الزواقيل وما كان منهم واحدة من تلك المشاهد المعبرة عن إخماده للفتن ، وإيقاظه لأفئدة العِدى بالبلابل والعذاب .

ولقد كان لغزوتي بدر وأحد حضور في المشهد الاستلهامي ، استمد منه قوة أبياته ، كما أن فيه استعادة لذكرى أمجاد العرب ، وطريقتهم في رد جحافل الغزاة ، وذلك من خلال مدحه للمعتمد ، وفي رأيي أنه في هذه القصيدة يراعي المصلحة الفردية لشخصه إذ هذا لم يكن رأيه في المعتمد من قبل ، وقد قابلتني أبيات تشير إلى هذا ، لكنه يبدو شخصًا آخر ، نجده يستعين بأحداث سياسية إذ يقف على أحداث السنة الثانية للهجرة ، والسنة الثالثة للهجرة[1] ، ويناسب بين وقائع المعتمد على الأعداء وبوقائع النبي محمد بن عبدالله ﷺ على المشركين ، كما يربط بين غنائم المسلمين وغنائم العباسيين التي حصلوا عليها من قِبل المعتمد . يقول[2] :

نُصِرَتْ رَايَاتُهُ أَوْ نَاسَبَتْ ... رَايَةَ الدِّين بِبَدْرٍ وأُحُدْ

فَلَهُ كُلَّ صَبَاحٍ فِي الْعِدَى ... وقعةٌ تَثْلِمُ فِيهِمْ وتهُدْ

ثم إن لأحداث البيعة حظٌّ وافرٌ من الاستلهام ، فقد تكرر التعبير بها ، ومن الطبيعي تكرار استلهام مثل هذه الأحداث ؛ لأنها تهز النفس البشرية ، وتدعم من الروح الاستلهامية السياسية ، وتبهج من عقدت لهم ، وبالتالي تطمح بهم إلى التطلع إلى الأفضل ؛ لأن هذه المسؤولية تحتاج إلى جهد ومصابرة ؛ إذ من الواجب إحكامها وعدم تضييع الميثاق . قائلًا[3] :

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ط٦، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، دار المعرفة، بيروت، لبنان(٢/ ٢٦٢) .

(٢) ديوانه (٢/ ٧٠٦) .

(٣) ديوانه (٢/ ٧٠٦) .

أعْـــزَزْتَ أُمَّـــةَ أحْمَـــدٍ بِالفَاضِـــلين وُلاَةِ عَهْـــدِكْ
فَهُـــمُ جَمِيعًـــا يَحْمَـــدُو نَ، ويَـــشْكُرُونَ، جَمِيـــلَ رِفْـــدِكْ
مُتمـــسكين ببيعـــةٍ أحْكَمْتَهَـــا بِوَثِيـــق عَهْـــدِكْ

ومما يتصل باستلهام حوادث تاريخية كان لها ثقلها في ذاكرة العربي : فتنة الطالبي ؛ إذ فيها نظرة عجلى لماضي الانتصارات للعرب ، وهي تربي السكينة في قلوبهم ، وتبعث الارتفاع في رايات الإسلام لتكون شامخة عزيزة أبية ، من مثل استلهامه لحادثة (إسماعيل بن يوسف الطالبي) الذي ظهر بمكة في ربيع الأول سنة ٢٥١هـ ، فانتهب ما كان في الكعبة من الذهب ، ثم خرج منها بعد خمسين يومًا ورجع إليها في رجب ، فحصر أهلها[1] . ولقد كان للمعتز دور في القضاء على هذه الفتنة ، فالشاعر يستلهم ذلك من مثل قوله[2] :

بَـرِئَ الله مِـنْ مُحِـلٍّ حَـرِيم الْـ ـلَـهِ كفْـرًا وبيْتِـهِ المقْـصُود
لم يَكُـنْ سَـعْيُهُ هنـاك بِمرْضِـ ـيٍّ، ولاَ كَـانَ أمْـرُهُ بِرَشِـيدِ
غَـيْرَ أنَّ القُلُـوبَ سَـكَّنَ فِيهـا أنْ أتَانَـا مُـصَفَّدًا فِي الحَدِيـدِ
عَالِمًـا أنَّ رايَـةَ النَّـصْرِ لاَ تُـنْ ـزَعُ إلاَّ مَـعَ البُنُـودِ السُّودِ

ولقد توافدت على الشاعر مشاهد من قوة الاستلهام لأحداثٍ زلزلت كيان الأعداء وما كان من أمر انتصار إسماعيل بن بلبل في القضاء على فتنة الصفار[3] . فمن ذلك قوله[4] :

أغْـرَى الخُيُـولَ بأَصْـبَهَانَ فَـلاَ تَـسَلْ عَـنْ رأيِـهِ ،والجَـيْشِ حَـيْنَ تَـسانَدا
وَكَـأنمَا الـصَّفَّارُ كَـانَ بِفَـارِسٍ فِرْعَـوْنُ مِـصْرٍ إذْ أضَـلَّ ومَـا هَـدَى
أتبعتَـهُ العِجْـلِيَّ ثُـمَّ رَفَدْتَـهُ بـالكويكين مُكَاتِفًـا ومُعَاضِـدا
فَـالخَوْفُ مِـنْ خِلْـفِ العُلَـيج ودُونَـهُ مِنْ مُوبِقَـاتِ الحَـرْبِ أوْحَاهَـا رَدَى

---

(١) انظر : ابن الأثير ، السابق (٤/ ٣٨٦) .
(٢) ديوانه (٢/ ٧٢٩) .
(٣) انظر : ابن الأثير، السابق (٤/ ٣٩٨) .
(٤) ديوانه (٢/ ٨٢٤) .

ولئن كان الشاعر يتوج الأحداث باستلهامه لها ، فإنها موضع الرأس من الجسد التي منها يستمد نظرته ، وفيهايودع فكره ، ومن أجلها تترابط أجزاء القصيدة لتحمل على كتفيها تاريخ الانتصارات والقضاء على الفتن ، بل ثمة صفة أخرى تضاف إلى استلهامه ، وهي التغني ببسالة الخلافة أمام ما يعترضها من المحن والأهوال ، وقد أتى على تقديم الحدث في إطار يقف فيه عند أدق المسائل التي لا تعيدها مصادر التاريخ ؛ لأنها لا تجد فيها ما يوائم طبيعتها ، أو يوافق منهجها ؛ إذ تكتفي بنقل الخبر أو روايته دون استلهامه مرة ثانية 'وهذا شيء طبيعي' لكن الشاعر وقف موقف الالتزام[1] . فهو يستلهم ما كان من أمر مفلح وسريته ، وكيف أن المعتز بحنكته أخمد فتنة عبدالعزيز بن أبي دلف والثورات التي نشبت في مصر ، وكيف قضى عليها ابن خاقان[2] . يقول الشاعر[3]:

أَتَاكَ هِلاَلُ الشَّهرِ سَعْدًا فَبوركا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ هِلاَلٍ ومِنْ شَهْرِ
أَتَاكَ بِفَتْحَى مُولِيكَ مُبَشِّرًا ... بِأَكْثَرِ نَعْمِي أَوْجَبَت أَكْثَرَ الشُّكْرِ
بِمَا كَانَ فِي المَاهَاتِ مَنْ سَطْوِ مُفْلِحٍ ... وَمَا فَعَلَتْ خَيْلُ ابنُ خَاقَانَ فِي مِصْر
وَإِدْبَارُ عَبدوسٍ وقَد عَصَفَتْ بِهِ ... صُدُورُ سُيُوفِ الهِنْدِ والأَسَلِ السُّمر
فَلَسْتَ تَرَى إِلا رُؤُوسًا مُطَاحَةً ... يجِيدُ المَوالِي نَحْرَهَا أَوْ دَمًا يَجْرِي
وَلَمْ تَحْرِزِ المَلْعُونَ قَلعَتُهُ التِي ... رَأَى أَنَّهَا حِرْزٌ عَلَى ثُوبِ الدَّهْرِ

ثم يواصل بقية استلهامه ؛ إذ يجعل من الحدث محور القصيدة ، فيقول :

---

(١) بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي ١٩٧١م ، ب.ط ، مكتبة الأنجلو المصرية ص(٥) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (٤/ ٤٠١) .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٠٥)وما بعدها .

مَضَى فِي سَوادِ اللَّيْلِ وَالخَيلِ خَلْفَهُ ... كَرَادِيسُ مِنْ شَفْعٍ مُفَذٌّ وَمِنْ وِتْرِ
قَضَى مَا عَلَيهِ مُفْلِحٌ مِنْ طَلاَبِهِ ... فَلَمْ يَبْقَ إلا مَا عَلِيَّ مِنَ الشَّعْرِ
سَيَأْتِي بِهِ مُسْتَأْسِرًا أو بِرَأْسِهِ ... بَنُوا الحَرْبِ وَالغَالُونَ فِي طَلَبِ الوَتْرِ
سُرَاةُ رِجَالٍ مِنْ مَوَالِيكَ أكَّدُوا ... عُرَى الدين إحْكَامًا وبَتُّو قوى الكُفْرِ
إذَا افتتحوا أرْضًا أعَدُّوا لِمِثْلِهَا ... كَتَائِبَ تَفْرِي مِنْ أعَادِيكَ مَا تفري
فَفِي الشَّرقِ إفْلاحٌ لِمُوسَى ومُفْلِحٍ ... وَفِي الغربِ نَصْرٌ يُرْتجى لأَبِي نَصْر
لَقَدْ زَلْزَلَ الشَّامُ العرِيضَةَ ذِكْرُهُ ... وَأَقْلَقَ سكانَ الجَزِيرَةِ بِالذُّعْرِ

وكذا يستلهم أبوعبادة أيام استيلاء الزنج على البصرة ، فالسياسة في ردها خير كثير ، وقد بُذِلت الأسباب لإرجاعها ، كما سعى عشرة أشهر لإرجاع ضياعه ، لكنه يعزي نفسه إن لم تُرَد ضياعه ، فإن هناك ما هو أولى منها ، وهي البصرة التي لم يمكن العرب من استرجاعها ، على الرغم مما بذلوه من أسباب إعادتها ، لكن الفجر والنصر سيعودان ؛ يقول[1] :

وَقَدْ غَدَتْ ضَيْعَتي مَنُوطَةً ... بِحَيْثُ نِيطَتْ لِلنَاظِرِ الزُّهَرَه
أَرُومُ بالشِعرِ أنْ تَعُودَ فَما ... أَقْطَعُ فِيمَا أَرُومُهُ شِعره
حُكْمٌ مِنَ الله أرْتَضِيهِ ولاَ ... تَرْتَابُ نَفْسي فِي أنَّه خيرَهْ
وَإنْ قَضى الله أنْ تَبِينَ فَقَدْ ... كَانَتْ فَبَانَتْ مِنْ أَهْلِهَا البَصْره
إنْ رَدَّهَا السَّعيُ الدَؤوبُ فَقَدْ ... وَفِيَت فِي السَّعْي أشْهُرًا عَشْره

ولعلَّ كثيرًا من القصائد التي استمد منها مادة الاستلهام تشير إلى أنَّ الرجل يقف تحت وطأة الأحداث التي استقرت في تيار الذاكرة ، وأثرت في طبيعة السياسة فالتقطها كصياد حاذق ، يأخذ منها ما يخدم فكرته ، ويعالجها وفق منظور الانتصار لقيمه ومبادئه ، ودفاعه في سبيل دين الله ، وهذا مما يحمد للشاعر ، كما أنه لم يكد يترك فرصة لإثبات إقدامه على الحرب إلا ويطرح جانبًا من الاستلهام ، وهو في

---

(١) ديوانه (٢/ ١٠٠٩) .

هذا يكشف عن تأثره بالماضي الملهم ، ولا شك أن الإطالة والكثرة التي لم نَر لها نظيرًا عند شاعرٍ قبله ، تحولت إلى ظاهرة عمّت ديوانه ، واتسم بها شعره[١] ، على نحو ما فعل حين ذكر ما كان منه وقبيلته في وقعة الجسر[٢] ، وما كان من نزاع بين المسلمين والروم ؛ يقول[٣] :

أَبَدْنَا جُمُوعَ الرُّومِ حِيْنَ تَنَازَعَتْ ... فَوارِسَنَا الهَيجَاءُ فِي وَقْعَةِ الجِسْرِ
غَدَتْ بِيضُنَا مِثْلَ اللُّجَينِ ابْيَضَاضُهَا ... ورَاحَتْ مِنَ التضرابِ كَالذهَبِ التِّبرِ
وَخَلُّوا لَنَا عَنْ مَنْبِجٍ وَذَوَاتِهَا ... مَخَافَةَ صَدِّ البيضِ والأسلِ السمرِ
سَمَوْنَا لهم في عُصبَةٍ بحتريَّةٍ ... يكُرُّونَ، ليسوا يعرفون سوى الكرِّ
قَلِيلِينَ إلاَّ أَنَّ حُسْنَ بَلاَئِهِمْ ... كَثِيرٌ إذَا قَلَّ الحِفَاظُ لَدَى الفَرِّ
أَشِدَّاءُ مَا شَدُّوا كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ ... وآرَائهم فِي الحَرب يَنْحِتنَ مِنْ صَخرِ

ولقد عاود أبوعبادة استلهام حرب (بابك الخرمي)[٤] الذي كان مثار شغب وقلق عند العرب ، وما كان من محاولات ناجحة لمحمد بن يوسف الذي رابط في سبيل توطيد دعائم الأمن ، ثم هو يستذكر ذلك ليجعلها صبغة تشي بتفسيرات لأحداث تلك المرحلة ، وأهمها على الإطلاق انسجام المقاصد الدينية والاجتماعية ، بل وتحقيقها ؛ قائلًا[٥] :

---

(١) انظر : عبدالله التطاوي، حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية ص(٢٢١) .

(٢) انظر : أبوحنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، تقديم: د.عصام محمد الحاج علي، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية ص(١٦٦) .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٨٣) .

(٤) بابك الخرمي : رجل فارسي ، من المجوس ، قتله المعتصم . انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٤/ ٦٣ .

(٥) ديوانه (٢/ ١٢٥٥) وما بعدها .

لله دَرُّكَ يَـــوْمَ بَابِـــكَ فَارِسًـــا ... بطـلًا لأبـوابِ الحُتُـوف قَرُوعَـا
لَمَّـا أَتَـاكَ يَقُـود جَيْـشًا أَزْعَنًـا ... يَمْـشِي عَلَيْـهِ كَتَافَـةً وَجُمُوعَـا
وَزَّعْـتهم بَـيْنَ الأسِـنَّةِ والظُبَـا ... حتـى أَبَـدْت جُمُـوعَهُم توزيعَـا
حَتَّـى ظَفِـرتَ بِبـذهم فتَرَكْتَـهُ ... لِلـذُّلِّ جَانِبُـهُ وكَـانَ مَنِيعًـا
كُنْـتَ السَّبِيلَ إِلَى الـرَّدى إِذْ كُنـت فِي ... قَـبْض النُّفُـوسِ إِلَى الحِمَام شَفِيعًا

وقد اتجه الشاعر في قصيدة يمدح فيها محمد بن طاهر إلى ذاكرته ليستمد منها ما وقع من أمر الصفار ، ويتخذ من سلوكه السلبي محورًا لحديثه ؛ إذ لا طائل من شره ومن غلظته التي جاوزت الحدود ، لكن الدائرة دارت عليه وانقلبت الموازين ؛ إذ ارتدع أمره ، ولم يصل إلى بغيته ؛ فانفض جمعه على يد (رافع بن هرثمة) الذي استخلفه الممدوح محمد بن طاهر عندما ولاه الموفق خرسان[1] ؛ يقول[2] :

إذا صَـنَعَ (الـصَفَّارُ)[3] سُـوءًا لنفسِهِ ... فـلا تحـسد الـصَّفارَ سُـوءَ صَـنِيعِهِ
وكَانَ اخْتِيَالُ العِلْجِ مِنْ عَطَشِ الرَّدَى ... إِلى نَفْسِهِ، شَرَّ النُّفُـوسِ، وجُوعِـهِ
عَبَـا لجميـعِ الـشَّرِّ هِمَّـةَ مـائِقٍ ... وَقَدْ كَـانَ تَكْفِي بَعْـضُهُ مِـنْ جَمِيعِـهِ
وَرَدَّتْ يَدَيْـهِ عَـن مُـسَاواة رَافِـعٍ ... زِيَـادَةَ عَـالِى القَـدْر عنـه رفيعـهِ
بِـصَوْلَتِه كَـانَ انْقِـضَاضُ بِنَائِـه ... لأَسـفل سُـفْلٍ وانْفِـضَاضِ جُموعِـهِ

ويظهر مما سبق ، أن أبا عبادة البحتري لديه قدرة على استيفاء الحادثة التاريخية ، وبالتالي تخلق له حالة من حالات الاستلهام التي بقيت تدور في ذهنه ؛ إذ هي تحمل المغزى من وراء ذلك ، ثم لكونه يجعلها ركيزة من ركائز الاستذكار تكسبه مادة جديدة لاستنهاض قصيده ، ناهيك عن أنها تعد ينبوعًا من ينابيع الجرأة في تسجيل الحادثة[4] ، وهذا ما فعله حين استلهم حادثة الأمين عندما ناهض أخاه المأمون ،

---

(١) ابن الأثير، السابق (٤/ ٥١١) وما بعدها .

(٢) ديوانه (٢/ ١٢٧٦) وما بعدها .

(٣) الصفار، هو عمرو بن الليث الصفار ، كان أعور ، قتل عام ٢٨٩هـ . انظر : ابن الأثير ، السابق ٤/ ٦٠٤ .

(٤) نوري حمودي القيسي ، شعر الحرب حتى نهاية القرن الأول الهجري ، ط١، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م مكتبة

فقد جاء في الخبر : «.. فزحف طاهر نحو حلوان ، حتى وفاه هرثمة بن أعين من عند المأمون في ثلاثين ألف رجل من جنود خرسان ، فتقدم هرثمة حتى أحدقا ببغداد ، وأحاطا بمحمد الأمين ، ونصبا المنجنيق على داره حتى ضاق محمد بذلك ذرعًا ، وكان هرثمة يحب صلاح حال محمد الأمين واجتهد في إصلاحه ، وأرسل إليه لسلام أمره ، وأن يصلح ما بينه وبين المأمون على أن يخلع محمد نفسه عن الخلافة ، ويسلم الأمر لأخيه ، فلما سمع بذلك الأمين استشار وأشاروا عليه بالعبور في جماعة من خاصته وثقافه وجواريه إلى هرثمة ، فأحس طاهر بن الحسين بالمراسلة التي جرت بينهما ، فوثب عندما ركب الأمين ومن معه الماء ، وشد عليهم ابن الحسين فرمى الحراقة بالسهام والحجارة.. فغرق محمد هرثمة وأخذوه ومن معه ، ثم دعا به في منزله فاحتز رأسه ، وأنفذه من ساعته إلى المأمون[1] . وفي هذا يقول البحتري[2] :

لولا الحُسَينُ ومُصْعَبٌ وقَبيلُهُ ... ما قامَ مُلْكٌ في بني العَبَّاسِ

وَبِذِي اليَمِينَيْنِ الَّذي ما مِثْلُهُ ... لمشيرِ أخماسٍ إلى أسْداسِ

يَنْفِي عَلِيًّا إذْ أتى في جَحْفَلٍ ... حنِقين أهْلِ شَرَاسَةٍ ومِرَاسِ

فَبَدا بِجِدِّهِم فَدَقَّ شَبَاتَهُ ... داسُوا أبا يَحْيى أشدَّ دِيَاسِ

والخطُّ يَطْلُبُ بابِلًا وقَلِيلُهَا ... فَأَماطَ بالمَلِكِ الخَلِيعِ النَّاسِ

دَاجَاهُ حِينًا عَلَّهُ أنْ يَرْعَوِي ... فأَبَى ومالَ إلى الهجفِّ الجاسِي

قَدْ كَانَ حِلْمُ أخيهِ حِلْمًا واسعًا ... غَمَرَ المُلُوكَ وسائرَ الأجْنَاسِ

لكنَّهُ أصْغَى لـ «هرثمة» الَّذي ... خلاَّهُ بين صَراري أطفاس

فأتَتْ قَوارِبُ «طاهر» فتشبثت ... بِخَلِفَةِ الخِصْيَانِ والنِّسْناسِ

فَرَمَى «الأمينَ» بِنَفْسِهِ في دِجْلَةٍ ... يَرْجُو النَّجَاءَ فَصَارَ في الدِّيماس

=

مكتبة النهضة العربية، بيروت ص(٤٣) .

(١) أبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود : الأخبار الطوال ، ط(١) ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت ، ص(٥٨٣٩) وما بعدها .

(٢) ديوانه (٢/ ١١٦٨) وما بعدها .

مَـنْ كَـانَ يَـدْرِي أَنَّ آخِـرَ أَمْـرِهِ يَبْقَـى أَسِـيرًا فِي يَـدِ الحُـرَّاسِ
بَـلْ كَيْـفَ يَنْـجُو والمُطَالِبُ «طاهرٌ» بِـمواقِفِ الأَرْصادِ والأَحْراسِ؟!

وما من شك فإنه يستمد من استذكاره قاعدة رصينة تأبى أن تتزعزع أو تنهار ممثلة في صورة النضال الحقيقي ، والإيمان الصادق ، والتعبير الموحي بروح الاندفاع ، كما يبدو في كثيرٍ من النماذج المستوحاة ، وهي مشفوعة بالثقة المطلقة بالثواب المرجو والحياة الخالدة والقناعة بالوعد الحق والمبايعة ؛ طاعة لله ولولي الأمر ، فها هو يجعل من بيعة الرضوان أنموذجًا يربط من خلاله كيف أن العباسيين ارتضوا البيعة للمعتز الذي أمنهم على أنفسهم وأحاطهم بكريم عنايته ، وكيف أنهم قبلوا بها كما كان من صحابة رسول الله والمسلمين حين بايعوا النبي محمد بن عبدالله ﷺ وباعوا أنفسهم ، واسترخصوا الحياة طلبًا للشهادة ، فخلدوا لأنفسهم ولأمتهم الذكر الحميد[1] . لذا هو يمدح المعتز مستلهمًا ذلك ؛ فيقول[2] :

الله لِلْمعتَـزِّ جَـارٌ ، إِنَّـهُ جَـارٌ لَنَـا مِـنْ رَيْـبِ كُـلِّ زَمَـانِ
أَعْطَـى الرَّعِيَـةَ سُـؤْلَهَا مِـن عَدْلِـهِ فِي السِّرِّ مُجْتَهِـدًا وفِي الإِعْـلاَنِ
جُمِعَـتْ قُلُـوبُهُم إِلَيـهِ بِبَيْعَـةٍ كَانَـتْ شَـبِيهَةَ بَيعَـةِ الرِّضْـوَانِ

وهذا يعني أن أبا عبادة ارتمى بين أحضان الاستلهام ، وشق طريقًا سياسيًا بحتًا يحاول من خلاله أن يلفت الانتباه ، وهو مشغوف بمدد من قيادة المعتز ، التي يرى فيها سببًا من أسباب الاندفاع والتضحية ، وهو وفاء منه في تسجيل الحوادث ، وحرص على روح الأمة في استدامة جذوتها في نفوس أبنائها ؛ إذ إن التنازع بين العرب والروم ما زال يمثل فجيعة بالنسبة للشاعر ، بل للأمة العربية جمعاء .

ولقد استطرد البحتري يتشرب من مواقف متعددة للانتصارات التي حققها هو وقومه ، ثم إن استلهامه لانتصارات تلك الأيام الماضية ما هو إلا طريق يبتعد من خلاله عن سقم الواقع الذي رأى فيه من الانهزامية ما الله به أعلم ، ويوم القرينين

---

(١) القيسي، السابق ص(٤١) .
(٢) ديوانه (٤/ ٢٢٢٦) .

وما دار فيه من سفك وتدمير واحد من انتصارات متعددة ؛ يقول[1] :

وَيَوْمَ (القَرِينَيْنِ)[2] انْتَصَرْنَا وَلَمْ نَخَفْ ... بِكُلِّ طَوِيلِ البَاعِ مُنفسحِ الصَّدْرِ
كَأَنَّهُم تَحْتَ السُّيُوفِ غَرَائِبٌ ... مِنَ البُدْنِ سِيقَتْ يَوْمَ عِيدٍ إِلى نَحْرِ
فَلَوْلاَ عَفَافُ البُحْتُرِيِّ وَمَنُّهُ ... عَلَيْهِمْ، لَمَا آبَتْ بِعَوْفٍ ولا فِهْرِ
ومَرَّ طَرِيدًا للقَنَا السُّمْرِ بَعْدَمَا ... نَكَحْنَاهُ بِالخَطِّيَّةِ السُّمْرِ فِي الدُّبْرِ
وأَسْلَمَ مَوْلاهُ، وخلَّفَ بيْنَه ... ونجَّاهُ خِنذِيذٌ كَخَافِيَةِ النَّسْرِ
هناكَ يَقُولُ، وهو يعدل نفْسَهُ ... ويَشْكُو تَمادِي الحَرْبِ فِي مُحْكَمِ الشَّعْرِ
لَحَا اللهُ قَيْسًا حِينَ وَلَّتْ حُمَاتُها ... عَنِ الأَشْعَثِ المَقْتُولِ والكَاعِبِ البكرِ
وَلَمْ تَكُ مِنِّي نَبْوَةٌ غَيرَ هذه ... فِرارِي وَتَرْكِي صَاحِبِيَّ ورا ظَهْرِي

ثم هو يستذكر ما كان منهم في يوم صفين وما حققوه من انتصار ؛ يقول[3] :

وفِي يَوْمِ صِفِّينَ اقْتَسَمنَا ذُرَى العُلاَ ... وقد جَعَلَ الخطِّيُّ يعثُرُ بِالكَسْرِ

وفي كثير من استخدامه للاستلهام بدافع سياسي ، تتناسب طريقته تناسبًا طرديًا مع ما توحي إليه الحادثة أو الواقعة ، من ذلك حرب البسوس والفجار التي تكرر مشهدها خلال فترة تولي المستعين الخلافة ، التي عدها شؤمًا على العباسيين ، كما كانت البسوس والفجار نحسًا على العرب ، بل إن المستعين أوقع بهم وأفناهم أكثر من (قدار) عاقر ناقة ثمود ، ففي سياق مدحه للخليفة المعتز يستخدم الموقعة الملهمة له استخدامًا يتناسب وطبيعة الموقف[4] . كما في قوله[5] :

---

(١) ديوانه (٢/ ١٠٨٤) .

(٢) يوم القرينين : اسم موضع ، حدث به موقعة مرج راهط بين قيس وتغلب . انظر : هامش الديوان ٢/ ١٠٨٤ .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٨٤) .

(٤) انظر : علي عشري زايد، السابق ، ص(١٥٥) .

(٥) ديوانه : (٢/ ٩٣٧) .

وَكَـــانَ أضرَّ فِـــيهِمْ مِـــنْ سُـــهَيلٍ إِذَا أَوْبَـــا، وأَشْـــأَمُ مِـــنْ قَـــدَارِ
تَفَـانَى النَّـاسُ حَتَّـى قُلْـتُ عَـادُوا إِلَى حَـرْبِ البَـسُوسَ أَوْ الفِجَـارِ

فالخلافة منذ سنين قديمة في نزاع مستديم ، وما كان من أمر الخوارج في زمنه[1] حدث بين المسلمين بعد وفاة نبينا محمد بن عبدالله ﷺ ، حتى وقع بهم ما وقع من الفرقة والهلاك ، فالخلاف قائم ما دامت الحياة ، وقد استلهم أبوعبادة هذا من خلال مدحه محمد بن يوسف الثغري ؛ إذ يقول[2] :

وَسَـلِ الـشُّرَاة فـإنَّهُمْ أَشْـقى بِـهِ مِـنْ أَهْـلِ مُوقَـانِ الأَوائِـلُ مُوقـا؟
كُنَّـا نُكَفِّـرُ مِـنْ أُمَيَّـةَ عُـصْبَةً طَلَبُـوا الخِلاَفَـةَ فَجْـرة وفُـسُوقا
وَنَلُـومُ طَلْحَـةَ وَ الـزُّبَيْرَ كلَـيْهما وَنُعنِـفُ الـصِّدِّيق وَ الفَارُوقـا

مما سبق، يتبين أن البحتري يتفرد بنفاذ عجيب إلى الحقائق السياسية ، وقدرة على التغلغل في دهاليز القلب البشري[3] ، كما قال وهو يمدح بني مخلد[4] :

سـيرةُ القَـصْدِ لاَ الخُـشُونَةُ عُنْـفٌ يتَعَـدَّى المَـدَى ولاَ اللِّـينُ ضَـعْفُ

فالسياسة في حاجة إلى الاعتدال حتى يتحقق النصر لها وعدم التنازع ، فيقول من قصيدة يرثي فيها قومه[5] :

إنَّ التَنَـازِعَ فِي الرِّئَاسَـةِ زَلَّـةٌ لاَتَـسْتَقَالُ ،ودَعَـوة لمْ تُنْـصَرُ

ويقول من قصيدة يمدح فيها يوسف بن محمد الثغري في حسن سياسته[6] :

---

(١) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة : رياض رأفت ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط(١) ، ١٤٢١هـ ، ص(٤٩) وما بعدها .

(٢) ديوانه (٣/ ١٤٤٨) .

(٣) انظر : عبداللطيف شرارة، سلسلة شعراؤنا القدامى، أبوعبادة البحتري، دراسة ومختارات ، ط١، ١٩٩٠م، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان ص(٧٠) .

(٤) ديوانه (٣/ ١٣٧٤) .

(٥) ديوانه (٢/ ١٠٣٠) .

(٦) ديوانه (٣/ ١٤١٥) .

تَبْـــدُو مَواقِـــعُ رَأيـــهِ وكأنَّهَـــا غُـرَرُ السَّوابِقِ مِـنْ يَفَـاعِ مُشْرِفِ
وإذَا اسـتَعَانَ بِخَطْـرَةٍ مِـنْ فِكْـرِهِ عَنَنٍ، فسَتْرُ الغَيْـبِ لَـيْسَ بِمُسْجَفِ

ولا شك أن البحتري أخلص الولاء في مديحه للسياسة ، سواء كان هذا منسجمًا مع إيمان الشاعر وقناعاته أو كان منه من قبيل الفضلة على أبياته ، ولا أظن أن مثل هذه اللغات للسياسة سواء ما نتج عنها من أحداث أو ما كان منها من استلهام من قبيل العبث ، ولكي أكون أكثر إنصافًا فإن هذه ليست إلا إشارة إلى تأمل عميق ، وطويل في الظواهر والأحداث ، واختزان هذه التأويلات في سريرة تعاني من جهل الآخرين ، وسوء تقديرهم ، وعجزهم عن التحلي بالمزايا ، والمكارم ، والشمائل الحميدة والمنشودة[1] .

(١) انظر : عبداللطيف شرارة، نفسه ، ص(٧٠).

ب - عوامل اجتماعية :

لجأ البحتري إلى وسيلته الخاصة حتى يبرز من خلالها كثيرًا من قيم المجتمع العربي التي يرى أنها ذبلت ثم ماتت ، لذلك كان لحضور شخصيات من العصر الجاهلي والمخضرم والأموي حضورٌ طاغٍ في ديوانه ، فكثيرًا ما استلهم مواقف شتى في حقول العلاقات الإنسانية ، إذ استمد منها جود بني السمط[1] من باب تجديد العطاء، وإثبات الكرم ، وإحياء متفاعلًا للمبادئ ، التي تنبعث في أوصالها الحياة ؛ إذ توحي له أفعال الشخصية بأن يخلق منها أنموذجًا يعينه على إيصال فكرته[2] .

فقد تحمل وجهًا من وجوه العلاقة بينه وبين من حوله ، بيد أن العلاقة بينه وبين عالمه علاقة طردية ، ولهذه العلاقة قوانينها الخاصة التي تميزها عن غيرها من العلاقات الفكرية والإنسانية والعلمية ، ويرجع مصدر كل هذه العلاقات إلى النشاط العملي للبشر ، «وهذا معناه أن العمل المنتج المهدف بغايات الإنسان هو الجوهر الأساسي له ؛ لأن الإنسان كائن ، عامل ، منتج ، وعمله الواعي الهادف هو حقيقته ؛ إذ تكونت في أثناء العمل خصائصه ، وتولدت قدراته ، ونمت طاقاته ، من خلال التراكم المعرفي الذي حصل عليه الشاعر ، هو في مجمله صورة تتبدى في عمله الفني عن طريق العادات والأعراف والمثل العليا والقيم المفسرة للسلوك العملي في هذا المجتمع»[3] .

ولا شك أن الثقافة ذات طبيعة اجتماعية[4] ، فلقد اتضح هدفه السامي النبيل في استلهامه لكثير من الشخصيات ، فانتشرت نماذج الهمة ، والإقدام ،

(١) بنو السمط : قوم من أهل حمص كان البحتري يمدحهم ويتتبع فضلهم ويكثر شكرهم . انظر : هامش الديوان ١/ ٥٤٣ .

(٢) انظر : د.حسن ربابعة ، ص(٢٩٩) .

(٣) عبدالمنعم تليمه، مقدمة في نظرية الأدب ، بدون طبعة، ١٩٧٦م، دار الثقافة للطبعة والنشر، القاهرة ص(٧) .

(٤) نفسه ص(٩) .

والتضحيات ، والكرم ، والشجاعة ، والتمرد ، وما يتحمله بعضهم في سبيل توفير حياة متزنة ومستقرة تبعث في نفوسهم الطمأنينة والاستقرار ، وكان العامل الاجتماعي هو أهم ما دفعه إلى ذلك ، فلا تكاد تجده يمدح إلا ويجعل الممدوح في قائمة عمر بن الخطاب ، أو أسامة بن زيد ، أو غيرهم على أن مثل هذه النماذج ما هي إلا تذكير ، وتبرير لما يقول ، وهي تسعى لرفع القيمة الفضلى في نفوسهم .

وما من شك بأن الفقر الذي عانى منه كثيرًا دعاه في بدء حياته إلى أن يمدح باعة البصل والباذنجان[1] ، وجعله يستذكر مواقف العربي المشرفة ، وهو في قرارة نفسه يرمي من وراء استمداده لأولئك إلى أن هذه الصفات لها جذورها الثابتة ، وما حاتم الطائي وهرم بن سنان إلا طريق ملهم للرجل في سد الهوة بينه وبين من يمتنع عن البذل والعطاء ، إضافة إلى أن الشاعر يحيي مثل هذه الصفات التي اندثرت ، ولكنه بطريقة أو بأخرى يحاول أن يؤصلها في نفسه وفي غيره .

ومما ذكره في مجال الإعطاء جود (بني السمط)[2] ؛ إذ في استلهامه تجديد وإحياء لكل عطاء ، وليمتد جودهم إلى كل من يلحق بهم ، يقول[3] :

جَـزَى الله خَـيْرًا والجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ ... بَنِي السَّمْطِ أَخْذانِ السَّمَاحَةِ والمَجْدِ
هُـمُ جَـبَرُونِي وَالمَهَامِـهُ بَيْنَنَـا ... كَمَا ازْفَضَّ غَيْثٌ مِنْ تَهَامَةَ فِي نَجْدِ

وكثيرًا ما استنبط البحتري في شعره ما ألهمته ظروف مجتمعه بظروف مشابهة تمثل قطعًا ثابتًا في الحياة الإنسانية ؛ إذ إن مثل هذه الظروف يمثلها أشخاص لهم في ذاكرة الجماعة دلالة صالحة ، كحاتم الطائي الذي كثيرًا ما ردده الشاعر لا لمجرد الترديد ، وإنما لما يحمله من مكتسبات إيجابية ، تؤكد مبدأ يعمق العلاقات ويزيد من ترابطها ، وتآلفها ، فيجعل من حاتم رمزًا لكل جواد بنفسه وبماله ، فهو يتخذ من الشخصية تذكارًا ، ورمزًا لكل رجل يريد أن ينهج نهج حاتم ، وهي تعطي صفة

---

(١) أبوبكر الصولي : أخبار البحتري، السابق ص(٢٢) .

(٢) بنو السمط : سبق التعريف بهم .

(٣) ديوانه (١/ ٥٤٣) .

الديمومة ، فسيرة حاتم تاريخٌ لكل من تنبعث في نفسه الروح العربية الأصيلة ، وذلك من خلال قصيدة يمدح فيها (أبا جعفر بن حميد)[١] يستلهم حياة المجتمع القديم وأخلاقًا متأصلة في ذواتهم ؛ يقول موضحًا ذلك[٢] :

لَكَ مِنْ حَاتِمٍ وَأَوْسٍ[٣] وَزَيْدٍ ... إِرْثُ أَكْرُومَةٍ وَإِرْثُ فَخَارِ
تِلْكَ أَفْعَالُهُمْ عَلَى قِدَمِ الدَّهْـ ... ـرِ، وَكَانُوا جَدَاوِلًا مِنْ بِحَارِ
وَلَعَمْرِي اللَّجُودُ لِلنَّاسِ بِالنَّا ... سِ، سِوَاهُ بِالثَّوْبِ وَالدِّينَارِ

وكما في قوله[٤] :

وَإِذَا احْتَبَى فِي أَسْوَدَانٍ لِسُؤْدَدٍ ... أَعْطَاكَ حَبْوَةَ حَاتِمٍ فِي الْحَشْرَجِ

ثم إنَّ لاعتقاد الشاعر المتأصل في نفسه بأن مثل هذه الشخصيات تزيد من إلهامه قوة وشبابًا ذكر في مديحه (لمالك بن طوق)[٥] صفات الجود والكرم ، وأن من سأله لا يرده صفرًا ، فهذه المكارم متوارثة ، ويضرب بها المثل في (كعب)[٦] و(هرم)[٧] ؛ قائلًا[٨] :

أَبْقَى مَآثِرَ مِنْ مَجْدٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... عَفَّتْ مَآثِرَ مِنْ كَعْبٍ وَمِنْ هِرَمِ

---

(١) أبوجعفر بن حميد : ذكر المرزباني بني حصيد وهم أبونهشل ، وأبونصر ، وأبوعبدالله بن حميد بن عبدالحميد الطائي الطوسي القائد وهم شعراء أدباء . معجم الشعراء ، ص٣٢٩ .

(٢) ديوانه (٢/ ٩٩٠) .

(٣) أوس بن حارثة وسعدى أمه ، كان مسودًا في قومه . انظر : هامش الديوان ، ١/ ٥٨٥ .

(٤) ديوانه (١/ ٤٠٢) .

(٥) مالك بن طوق : بن عتاب بن زافر بن شريح بن عبدالله بن عمرو بن كلثوم ، وابنا مالك بن طوق : طوق وأحمد ، كانت لهم جلالة ربيعة ، وإليهم تنسب رحبة مالك بن طوق . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، ط(٦) ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٤٦٢ .

(٦) كعب : كعب بن مامه الإيادي الذي ضرب به المثل في الجود ، حتى إنه آثر رفيقًا له بما معه من الماء ومات هو عطشًا . انظر : هامش الديوان ، ٤/ ٢١٣٢ .

(٧) هرم : هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري . انظر : هامش الديوان ، ٤/ ٢١٣٢ .

(٨) ديوانه (٤/ ٢١٣٢) .

وكعب هذا يضرب به المثل في الإيثار والتضحية ، اتخذ منه البحتري أنموذجًا مساعدًا ، على إيصال فكرته في الحث على البذل ، حيث يقول[١] :

والْبَذْلُ يُبْذَلُ مِنْ وَجْهِ الكَرِيمِ وَقَدْ ... يَضْحَى النَّدَى وَهْو لِلحُرِّ الكَرِيم رَدَى

مَنْ ذَاكَ قِيلَ لكَعْبٍ يَوْمَ سُؤْدَدِه ... رِدْ كَعْبُ إِنَّكَ وزَّادٌ لِمَا وَرَدَا

وقد أسهب شاعرنا في ذكر نماذج جعلت في نفسه حياة لقيم المجتمعات السابقة بما كانت عليه ، بل ولربما تعد مدخلًا لنواح شتى ، تقدح في ذهنه شرارة الفقر الذي قاساه ، ثم إن حرية التعبير عظمت في نفسه تلك المبادئ التي اختطها أصحابها في سيرهم نحو الحياة ، فأورد على سبيل المثال قصة استقساء عمر بن الخطاب بالعباس ابن عبدالمطلب حين اشتد القحط ، فسقاهم الله تعالى به[٢] ، من خلال مدحه للمعتز الذي سقاهم من كرمه بعد سني المستعين[٣] الذي كان حكمه أشبه بالسراب ، فهو يرى أنه صورة ثانية لبني العباس الذين ينتهي إليهم نسب الممدوح ؛ قائلًا[٤] :

وأَنتَ ابن مَنْ أَسْقَى الحَجِيجَ عَلَى الظَّمَا ... ونَاشَدَ فِي المَحْلِ السَّحَابَ فأمطرا

وهو ما تردد صداه حين مدح أباه المتوكل ؛ إذ يستلهم شرف بني العباس وسقايتهم بفضل منه سبحانه ثم بفضل دعائهم ، وصلاح أخلاقهم ، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن طلب من العباس أن يدعو الله بصالح أعمالهم ، فسقاهم الله ، وأخصبت الأرض ، وتحول حال المجتمع من سيء إلى حسن ، وقد أعاد ذلك في صورة موازية لما استلهمه من خلال المديح ؛ يقول[٥] :

إنَّ الفَضِيلَةَ لِلَّذِي اسْتَسقَى بِهِ ... عُمَرٌ وشُفِّعَ إِذْ غَدَا يَسْتَشْفِعُ

وكان لهذه القيم أثرها على الشاعر إذ جعلته الظروف الاجتماعية تابعًا لها متبوعًا

---

(١) ديوانه (١/ ٧٢٠) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (٢/ ١٦٨) .

(٣) نفسه (٤/ ٣٥٥) .

(٤) ديوانه (٢/ ٩٣٤) .

(٥) ديوانه (٢/ ١٣١١) .

باستلهامه ، وجعلت فنه استجابة لما يريده لغيره ، فليس من شك أن أفعال الماضين احتلت مكانة عالية في نفسه ، وصيّرت مجالس الخلفاء والقواد والوزراء والكتاب ؛ إعلانًا للمحامد التي يرى أنها بادت ، ولن يتاح لأبي عبادة الاقتراب منها إلا عن طريق استلهامه ، ومن أجل ذلك تمتع بما تفيضه ذاكرته من خيرات لكرم العرب الذين فقدوا هويتهم في زمنه نتيجة لطغيان العناصر الفارسية ، والتركية[1] . ففي سياق مدحي استعرض ذلك حين ألقى بقصيدة للفتح بن خاقان يقول[2] :

أَرَى المَكْرُمَاتِ اسْتُهْلِكَتْ فِي مَعَاشِرٍ ... وَبَادَتْ كَمَا بَادَتْ (جديس)[3] وجرهم

أَرَاحُوا مَطَايَاهُمْ، فَلاَ الحَمْدُ يُبْتَغَى ... وَلاَ المَجْدُ يَسْتَبْقِي وَلاَ المَالُ يُهْضَمُ

وهكذا تنفس البحتري رياح البخل عند أقوام ليسوا من صفات العربية بمكان ؛ إذ غابت عنهم أخلاق البدوي الأصيل الذي يعطي من لا شيء ، ولا يخشى فقرًا ، فراح يستلهم هذه السجايا ، ويقابلها بواقع يثور فيه على أهل الشح الذين بهرتهم حضارة الفرس ، من خلال قصيدة يمدح فيها (علي بن مر الطائي) ؛ كما في قوله[4] :

وَمَا الفَقِيرُ الَّذِي عَيَّرْتِ آوِنَةً ... بَلِ الزَّمَانُ إلى الأحرار مُفْتَقِرُ

عَزَّى عَنِ الحَظِّ أَنَّ العَجْزَ يُدْرِكُهُ ... وَهَوَّنَ العُسْرَ عِلْمِي فِي مَنْ اليُسُرُ

لَمْ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هذا النَّاسِ بَاقِيَةٌ ... يَنَالُهَا الوَهْمُ إلا هذه الصُّوَرُ

بُخْلٌ وَجَهْلٌ، وحَسْبُ المَرْءِ واحِدَةٌ ... مِنْ تين حَتَّى يعفي خَلْفَهُ الأَثَرُ

أَهُزُّ بالشِّعْرِ أقوامًا ذَوِي وَسَنٍ ... فِي الجَهْلِ لو ضُرِبُوا بالسَّيفِ ما شَعَرُوا

لأَرْحَلَنَّ وآمَالِي مُطَرَّحَةٌ ... بِسرَّ مَنْ رَاءَ مُستَبطًا لَهَا القَدَرُ

لَوْلاَ عَلِيُّ بنُ مُرٍّ لاسْتَمَرَّ بنا ... خِلْفٌ مِنَ العَيْشِ فيه الصَّابُ والصَّبِرُ

---

(١) انظر : د.محمد عبدالعزيز الموافي، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مطبعة التقدم، القاهرة ، د. ط ، ص(٥٨) وما بعدها .

(٢) ديوانه (٣/ ١٩٢٦).

(٣) جديس بن جاثر بن أرم ، انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص(٤٦٢) ، وورد جديس بن عامر ابن أزهر بن سام ، كان ملكهم أيام ملوك الطوائف عمليق ، وكان ظالمًا قد تمادى في الظلم .
انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (١/ ٢٢٩) .

(٤) ديوانه (٢/ ٩٥٤) وما بعدها .

بَـدَتْ عَـلَى البَـدوِ نُعْـمَى مِنْهُ سَابِغَةٌ وَفْـرَاء يحْـضُرُ أُخْـرى مِثْلَها الحَضَرُ

وكما هو واضح أن الشاعر كان قائدًا بشعره إلى الإعجاب الباهت بالقديم بما فيه من عادات وقيم محافظة وسط حضارة نقلته من بدوي قادم من منبج إلى عاصمة الدنيا بغداد ، فأصبح حاله موزعًا بين ماض آسر وحاضر مغرٍ ، وما كان منه إلا أن يكون مقودًا لريشته الملهمة التي أعطته زخمًا للتعبير عن ظروف عصره التي عاشها يومذاك ، وما رآه من قفزة حركت مكنونات نفسه ، ودعته للمناداة بما افتقر إليه مجتمعه من تقاليد العربي الأصيل[1] .

وقد استطرد البحتري في تقديم قيم عظمت بسببها أخلاق المجتمعات العربية القديمة ، واجتهد في عرضها في إطار ملهم ، وهو في هذا الصدد يعلن صراحة عن ذلك الصراع بين الأمل المنشود في ترسيخ جانب من جوانب القيم وواقعه ، وقد افتخر في قصيدة بأعماله وقومه بهدف السعي إلى إعلاء تلك القيم من خلال نماذج ملهمة ، كحاتم الطائي ، وعمرو بن معدي كرب[2] ؛ فيقول[3] :

لَنَا حَسَبٌ لَوْ كَانَ لِلشَّمْسِ لَمْ تَغِبْ وَلِلبَدْرِ مَا اسْتَولَى المَحَاقُ عَلَى البَدْرِ
فَأَبْخَلَنَا بِالمَالِ نِدُّ لِحَاتِمٍ وَأَجْبَنَنَا فِي الرَّوْعِ أَشْجَعُ مِنْ عَمْرِو

وفي إطار هذا المعنى يسلم البحتري وثيقة الإلهام لعمرو بن معدي كرب ، و(أوس بن سعدى)[4] ، وما هاج في نفسه من ماضي بطولاتهم حين أتيح له مدح

---

(١) خليل شرف الدين ، الموسوعة الأدبية الميسرة(٦) ، البحتري بين البركة والإيوان ، د.ط ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ص(١٠٠) وما بعدها .

(٢) عمرو بن معدي كرب ، شاعر فارس ، اشتهر بوقائعه في الجاهلية والإسلام ، وفد على المدينة سنة (٩)هـ وأسلم ، توفي سنة ٢١هـ جمهرة أشعار العرب ، ابن حزم ، ط(٦) ، بدون تاريخ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، ص(٣٦٧) .

(٣) ديوانه (٢/ ١٠٨٥) .

(٤) أوس بن سعدي ، أوس بن حارثة بن لأم الطائي ، سعدى أمه ، وفد مع حاتم الطائي على النعمان بن المنذر ، انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٣٤٣ .

(محمد بن حميد)[1] ، معلنًا بأن الوسيلة التي أوصلت الممدوح لغايته هي نفسها التي عكف عليها أولئك ، وما تلك إلا نتيجة لترسبات الأحداث ، ومن ثم انصهارها بنار التجارب ، والسبيل في هذا لا ينبسط إلا بحد الشجاعة والإقدام التي بهما حقق استقرار المجتمع[2] . فتراه يقول[3] :

غَمَامُ حَيَا مَاتَسْتَرِيحُ بُرُوقُهُ ... وَعَارِضُ مَوْتٍ لاَتَفِيلُ رَوَاعِدُهْ

وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي إِنْ ذَهَبْتَ تهيجُهُ ... وَأَوسُ بِنْ سُعْدَى إِنْ ذَهَبْتَ تكايدُهُ

ويبدو أنَّ أبا عبادة لم يسقط الزمن الماضي بما فيه من مبادئ وقيم ، ظل عليها عاكفًا حتى في زمن الجاهلية ، ولم يفصل الحاضر عن الماضي ، بل أكد ارتباط الحاضر بالماضي أو الواقع بالتاريخ ، لكنه في إطار هذا المعنى الإلهامي تورط في كثير ، ودخل بطريقة عكسية لا تتناسب ومعطيات الفكر العربي المسلم نحو نظرة المجتمع للمرأة ووقف مضطربًا ، في صراع بين أن يصوغ فلسفته في سياق استلهامي وبين فرضه بأن المستقبل على صورة الماضي وغراره[4] ، متمثلًا في (قيس تميم) وما كان لديه من نظرة جاهلية تجاه المرأة ، وقد استنزف كل ما علق بذهنه من فكر سلبي ، وأخذ يورده في سياق تعزيته لمحمد بن حميد الطوسي ، وهو بهذا ينفي حالة من حالات التحول الذي أصاب الفكر العربي المسلم ، من خلال نظرته للمرأة ، ويجعله وقفًا على ماضي الجاهلية ، وما كان من وأد للبنات خوفًا من الفقر والعار والسبي[5] . ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[6] ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

---

(١) أبونهشل ، محمد بن حميد الطائي قائد قتل في حرب بابك ، انظر: المرزباني ، معجم الشعراء ، دار الجيل ص(٤٣) .

(٢) انظر : تديم مرعشلي، البحتري ، ص(٦٩) .

(٣) ديوانه : ١/ ٥٨٥ .

(٤) انظر : عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والعنوية ، ص(١٦) .

(٥) انظر : عبدالحميد بوزوينه، نظرية الأدب في ضوء الإسلام ، القسم الأول ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، دار البشير ص(٢٤).

(٦) سورة التكوير : (٨-٩) .

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] .

ثُمَّ إنَّ التاريخ يحتوي آلاف الشواهد التي تدل على كرامة المرأة واقعيًا ، منها : ما حدث في عصره في عهد الخليفة المعتصم عندما بلغه أنَّ امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه![2] وهذا امتداد لما فعله رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ من طرده لكل طوائف اليهود من المدينة المنورة وضواحيها ، بسبب إهانة أحدهم امرأة مسلمة، ونزع حجابها[3] . فالبون شاسع بين واقعة في تكريمه للمرأة منذ فجر الإسلام وبين ما يقوله ليخدم غرضه ، ولو جرت هذه المحاكاة لأصبح الغد كالأمس ، ومن ثم نفي قانون التغير والتحول والتطور الذي هو سنة من سنن الله في الكون ، فلا يحق له أن يحكم بالذي كان على الذي سوف يكون[4] ، لكنه ربما أراد أن يثير حركة التعبير في ثوب هش فضفاض دون تبرير مقنع لسعته وضعفه ، وهو القائل[5] :

لَمْ يَبِدْ كُنْهَ رَهْنَ قَيْسُ تَمِيمٍ ... عَيْلَةً بَلْ حَيَّةً وَإِبَاءَ
وَتَغَشَّى مُهَلْهَلَ الذُّلُّ فِيهِنَّ، وَقَدْ أُعْطِي الأَدِيمَ حِبَاءَ
وَشَقِيقٍ بْنِ فَاتِكٍ حَلَّرَ العَا رَ عَلَيْهِنَّ فَارَقَ الدِّهْنَاءَ
وَتَلَفَّتْ إِنَّ القَبَائِلِ، فَانْظُرْ أُمَّهَاتٍ يَنْسِبْنَ أَمْ آبَاءَ

فالعامل الاجتماعي عند البحتري يمتاز بتمكسه الشديد بقيم ورثها العربي آبًا عن جد ، وهو يتصف باتجاهين : رجعي مرتبط باتجاه أخلاقي وهو أن مثل هذه الصفات تثري تجربته الفنية شكلًا ومضمونًا ، فمن حيث الشكل تجده لفه في إطار استلهامي ، ومن حيث المضمون يندرج تحته المعنى الذي يبحث عنه ، يتجلى في

---

(١) سورة النحل : (٥٨-٥٩) .

(٢) ابن الأثير، السابق (٤/ ٢٥٦) .

(٣) نفسه (١/ ٥٤٤) .

(٤) د. عبدالحميد بورايو، السابق ، القسم الثاني ، ص(١١٣) .

(٥) ديوانه (١/ ٤٠) وما بعدها .

قوى أخلاقية مارسها المجتمع قديمًا ، وسيطرت على ذهنية الرجل من خلال التراكم المعرفي الذي حصل عليه من ثقافات سابقة ، أهمها على الإطلاق حفظه لأشعار الأوائل ونهله من ينابيعها التي لا تنضب .

واتجاه ثوري ؛ وبالرغم مما يعانيه المجتمع من ثراء عريض ، وأقول (يعانيه) إلا أن له مردودًا سلبيًا ، إذ الأموال صرفت في سبيل راحة الطبقة البرجوازية ، وتركت الطبقة الكادحة تعاني مرارة الحرمان ، وقساوة الزمان إذ استحوذ عليهم الفرس ، وظل صوت العربي خافتًا آنذاك ، فهو يثور في المجتمع رغبة منه في الوصول بهم إلى أسمى مراتب التكافل والتعاضد .

وبروز الاستلهام بعامل اجتماعي منه ما يصل إلى الباذخ ، ومنه الوسط ، ومنه الدني إلى الأرض[1] . كما سبق أن بينت .

---

(١) علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص(٢٨٣) .

جـ - عوامل فنية :

يمكن القول : إن دراسة الشاعر وفق عوامل فنية يندرج تحته الآتي :

أولًا : «حسه بالغنى الذي تكتسبه قصائده حين يستلهم فيها الأحداث ؛ وذلك لأن فيه إيحاءً بأن ماتثيره هذه الأحداث المستلهمة من الذاكرة العربية بأن الشاعر صاحب هم يتجه بأشكال مختلفة إلى أن يستند على الحقيقة التي ترتبط بتجارب الإنسان ، التي لا تقف عند حدود الوصف ، بل إن فيها من الإثارة ما يجعلها مرتبطة بالتاريخ ارتباطًا يخرجها من الحدود الضيقة ، فليس غريبًا إذن أن تجد الشاعر يفسح المجال في قصيدته للأصوات التي تتجاوب معه ، التي مرت ذات يوم بنفس التجربة وعانتها كما عاناها الشاعر نفسه»[1] .

لذا فإن البحتري أعد العدة لدوره ، واختار من هذه المعطيات ما يوافق تجربته ، ويتراسل مع همومه وقضاياه ، ووظفها للتعبير عن هذه القضايا ، ليحقق بذلك هدفًا مزدوجًا ، بحيث يمنح تجربته نوعًا من المصداقية ، وهكذا يأخذ الشاعر العربي من أصوات الماضي ما يتناسب وحاضره ، التي يرى من خلالها ما هو جدير للحوار والنمو والفعل[2] .

ومن خلال هذا الوهج المنبعث من هذا العامل ، فإن اهتمام الشاعر منصب على تسلط الأضواء على الشخصيات التي تمت للحادث بسبب ؛ إذ للعاملين السياسي والاجتماعي قوة جبارة بقوة الشخصية المستلهمة نفسها ، وما من ريب أن مستوى الشخصية التي يوردها في شعره يوازي الحدث نفسه ، وبتعبير أدق تعد معادلًا موضوعيًا لاستلهام الحدث وقوة التعبير به ، وهذا بحد ذاته ينبع عن ارتباط الفكر الإنساني بالشعر ، وهو ارتباط قديم ينبع عن علاقة وطيدة خاصة يكشف مدى

---

(١) د.عز الدين إسماعيل الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهر الفنية والمعنوية ، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٣م، ١٤٢٣هـ ص(١١٦) .

(٢) انظر : علي زايد، السابق، ص(٧٦) .

التقارب والتجاذب بين الشاعر وبين ما يستمده من ماضيه[١] .

ثانيًا : يتمثل في نزعة الشاعر إلى إضفاء نوع من الموضوعية ، حيث كانت القصيدة العربية وقتًا طويلًا من الزمن تعبيرًا عن عاطفة ذاتية لكنه حاول أن تكون الموضوعية التي يُطعم بها أبياته ذات صلات قوية ، وفوائد عظيمة يرتجيها من فنه بعودته بتجربته الشعرية إلى صوت الماضي ، ولقد كان الاستلهام صوتًا نشيطًا أكسب الشاعر قدرة خاصة على التعبير عن تجربته الشعرية[٢] .

ولقد أصبحت تجربة الشاعر العباسي أكثر تشابكا وتعقيدًا من تلك التجربة الذاتية البسيطة التي تتسع لها القصيدة الغنائية ، فحاول أبوعبادة أن يضفي على الشكل الفني لتجربته لونًا من التاريخية ، حيث استعار بعض الأحداث الماضية ليسمو بشعره إلى أرباب السلطان ، ويقيم سورًا أصله ثابت على الرغم من مضي أحداثه وفرعه في السماء والقاسم في هذا الأحداث . ولن يتحقق للشاعر ذلك الخَلْق الموضوعي إلا إذا كان على وعي بالأحداث وعلى صلة وثيقة بها، وهنا تبرز ثقافة الشاعر إذ لم يعد الأمر قاصرًا على تسجيل التراث، بل أصبح عليه أن يستمد من الأحداث من خلال منظور فني أو سياسي أو اجتماعي أو نفسي (تفسيري) فالاستلهام لا يوهب من شتات ، بل يحاول من خلاله العبور إلى تلك الينابيع الأولى ، ليستنزف منها حياة متجددة ، وقصيدته بهذا تستحق أن تعطيه ما دام تلفت إليها[٣] .

هذا وإن جاز لي من البداية استخدام فكرة استلهام ذي العامل الفني ، فالدافع من ورائه يكمن فيما يتركه من أثر باقٍ ، وغاية نبيلة ، فالشاعر الذي يفقد اتصاله بتاريخ قومه لا يصلح بحال من الأحوال أن يعبر عن وجدانها ، وأن يرتقي بذائقتها ، ولأن فقدان وعيه لشخصيات قومه وما مضى منهم تجعله أجنبيًا عنها

---

(١) انظر : علي عشري زايد، ص(١٧) وما بعدها ، نفسه .

(٢) انظر : علي عشري زايد، نفسه ص(١٧-١٨) ، نفسه .

(٣) انظر : علي عشري زايد ص(٣٠) ، نفسه .

باهتًا غريبًا عليها[١] .

وقد يتشرب ديوانه بشخصيات لقي فيها من حلو الشمائل ما يفي بغرضه الذي جاء في سياقه .

ولقد افتنَّ أبوعبادة البحتري منذ مطلع حياته الفنية باستلهام نماذج مستوحاه من الشعر العربي القديم ، إيمانًا منه بقدرتها على ارتشاف أبعاد تجربته ، خاصة وأن مثل هذه النماذج تسلمه وثيقة الأمان ، التي تعطيه التبرير لاستلهامه إياها ، وغالبًا مثل هذا النوع من الذاكرة البحترية يرتبط بشخصيات لها الدلالة نفسها ، بل إنها تستقطبه وبكل قوة إلى استخراج مكنوناتها لتكون في الوقت نفسه أكثر طواعية ومرونة ، فهو يتأول بعض جوانب الشخصية المستلهمة لتصلح عنوانًا على الفكرة التي يريد إيصالها للمتلقي ، ولا شك أن الشخصيات الأدبية هي الألصق بنفوس الشعراء عمومًا ووجدانهم وربما تمثلوها في حياتهم وصارت تمثالًا للعطاء والثراء[٢] .

هذا وإن كان ثمة استلهام في شعر الرجل فإن ذلك دليل على العبقرية الفنية ، التي تمكنه من الصياغة ، ومن حضور الأحداث بشكل أو بآخر ، ويمكن أن أقرأ هذا في قصائده التي باتت موئلًا للاستدلال .

وأما الشخصيات التي اختزلها بصوته جوقة المرارة ، والتوجع ، والإهانة في الشعر، شخصية الحطيئة الذي روي أن الفاروق عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المسلمين لشدة وقع هجائه[٣] ، إلا أن البحتري ربط بين حدة الحسام وشدة ما تعانيه هذه الشخصية من المرض ، وأصبحت علته واضحة للعيان ، لكنها أشد لذاعة من المرارة التي يتلقاها بنو البشر من هجاء الحطيئة ، هذا معنى يبدو في ظاهر

---

(١) انظر : عائشة عبدالرحمن ، قيم جديدة للأدب العربي القديم،والمعاصر ، دار المعارف ، ١٩٧٠م ، ص(١٦٥) .

(٢) انظر : علي عشري، السابق ص(١٧١) .

(٣) انظر : صلاح الصفدي، الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وغيره، د.ط ١٤٢٠هـ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١١/ ٥٥ .

ظاهر الأمر ، ويحتمل تأويلًا آخر ؛ وهو أن هذا الهجاء مرض معنوي أخلاقي زاد من إعيائه ريحًا عاصفًا مميتة هي التي في شعر الحطيئة يقول[1] :

لَئِنِ انتَقَضْتَ عَلَى الشَّكَاةِ فَإِنَّمَا ... بالصَّقْلِ يَخْلُصُ ذَا الحُسَامِ المُرْهَفُ
هَبَتْ بجِسْمِكَ لاَقِحٌ مِنْ عِلَّةٍ ... عَصَفَتْ بِهَا لِلْبُرْءِ رِيحٌ حَرْجَفُ
فَكَأَنَّمَا إذ قُمْتَ قَامَ حُطَيْئَةٌ ... لِلشِّعْرِ، أو لِلْحِلْمِ قَامَ (الأَحْنَفُ)[2]

وقد تشرب ديوانه بشخصيات لقي فيها من حلو الشمائل ما يفي بغرضه الذي جاءت في سياقه ، من ذلك استلهامه لشخصيتين بارزتين في العرف العربي ، وفي الذاكرة العربية ، التي كانت رمزًا من الرموز التي عاقرت السأم ، ناهيك من سلوكها النديّ الذي اغترفت منه أبياته ، هاتان الشخصيتان هما عنترة الفوارس ، وعروة بن الورد . يقول الشاعر[3] :

قَدْ كَانَ عَنْتَرَةُ الْفَوَارِسِ نَجْدَةً ... يكف النَّجِيعَ وَعُرْوَةَ الصُّعْلُوكَا
وفَتَى بَنِي عَبْسٍ[4] وَمَا زَالَ الفَتَى ... مِنْهُم إذَا بَلَغَ المَدَى يَشْدُوكا

ففي رؤية وبعد إنساني تحملها شخصيتا عنترة وعروة اللذين كانا نجوم سماء ، وشيوخ شعر ، يقرأ البحتري فيهما الماضي وينفض عنهما غبار السنين ، أولئك نماذج لمن عاش للاحتياج والفروسية ، وهو يتلمس بلغة الحياة التغني بمآثرهم وأمجادهم ، فقد دفعا حياتهما للخلود بأوتار المآسي التي غنوها ، وباتوا في ظلمات التجاهل ، والتنكر ، حتى من أقرب قريب لهم ، لكن ما يجمع بينهما وبين فكرته هو فتى بني عبس الذي صار رمزًا لكل عنترة ولكل عروة فأخو الذفافي ، وجه ثانٍ لهما حتى بعد أن تلاشى ذكره من الحياة إلا أن الماضي يعيده بإبداع لافت مخضب بجراح

---

(١) ديوانه (٣/ ١٤٢٥) .

(٢) الأحنف : هو الأحنف بن قيس ، وقد اشتهر بالحلم ، كان سيد تميم . انظر : هامش الديوان ٣/ ١٤٢٥ .

(٣) ديوانه (٣/ ١٥٧٢) .

(٤) فتى بني عبس : لم أعثر على ترجمته ، ولكنه يبدو أنه أخو الذفافي الذي تزوج علوة الحلبية التي كان يهواها الشاعر . انظر : هامش الديوان ٢/ ٨٩٧ .

الفراق ، فلقد انتهى عنترة وعروة وظلت سيرتهما مستلهما لكل موقف إنساني .

ثم إن أبا عبادة كاد أن يلفظ أنفاسه الشعرية عندما رأى أنه لا يتجانس مع آخرين ، ممن هم من بني جلدته في قول الشعر ، وأحس أنه غريب عنهم ، وأخذ يشمر عن ساعد الجد ، وركوب الهول الذي لا يتأتى إلا عن حنكة ، وخبرة ، وتجربة ، وأدواته في هذا تجافٍ عن الوساد بقلب يقظ ، حنكته تجارب الليالي والأيام ، فبات يناجيها وتناجيه ، وهو يعاكس أهل الشعر لا جهلًا ولا سفهًا حتى يظفر بحاجته ، وحاجته في هذا لا يكاد يجدها إلا في الاستلهام لأخوة له سبقوه وكانوا له مثلًا في قوة الشعر وروعته ، ولأنه رأى عكس ما كان وأصبح الشعر هشا يقوله كل من يملك الكلمة ، ويبدو في هذا فتى الهمة ، ولا غرو في ذلك لأنه في مرحلة الزهو والتطلع ، فاستلهم نماذج كامرئ القيس ، والحسن بن هانئ ، والشماخ ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، والنابغان ، والكميت ، وذي الرمة .

يقول[1] :

يا امْرَأَ القَيْسِ، لو رَأَيْتَ حَبِيكَ الـ ... شِعْرُ يُغْذَى بِماءِ لفظٍ رَكِيكِ

لَبَكَيْتَ الدِّمَاءَ لِلأدب الغَضِّ ... (م)بفيض من الدموع سفوك

ولأَبْكَيْتَ طرفةً وزُهَيرًا ... وَلبيدًا وقَوْمَ آلِ نَهِيكِ

وَبَكَى النَّابغان من فرط وَجْد ... ثُمَّ صَنَّاجَةُ الْقَريضِ المَحُوكِ

أَيْنَ شَمَّاخُ والكميْتُ وذو الرُّ ... (م)ـةِ وصَّافُ مَهْمَهٍ ونَبِيكِ؟

أين ذاك الظريف، أعني ابن هاني ... حَسَنًا؟ وَيْبَهُ نَدِيمَ المُلُوكِ!

حَكَمَتْ فِيكُمُ أكُفُّ المَنَايَا ... فَجَرى حُكْمُها بغيرِ شُكُوكِ

وتبدَّلْتُ مِنْهُمُ البَدَلَ الأَعْـ ... ـوَرَ مِنْ بَيْنِ قُذْرَةٍ وأَفِيكِ

ويبدو في استلهامه لأولئك أمران : شاعر الأصالة والتراث ، ولا ضير في ذلك لأنه عاش في عصر المعركة بين القديم والجديد[2] ، ومن جانب ثانٍ ، فإن الرجل

---

(١) ديوانه (٣/ ١٥٨٩) .

(٢) د.إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط٤، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الثقافة ، بيروت،

يورد سببًا من أسباب المعاناة في بداية أي تجربة ، والشعرية واحدة من تلك المعاناة التي يحاول فيها أن يزحزح غيره ليتربع على عرش القلوب ، إذ كانت الحياة لم تصفُ له بعد ، وشاءت الحكمة أن يظهر في عصر غطت عليه شهرة أبي تمام ، ولم يصل بعد بنفسه إلى البلاط ، وقد سبق أن رأينا كيف أن الفتح كان يحاول أن يقدمه إلى المتوكل ولكنها وعود ، وهو يشعر أنه أقل حظًا ، لكن السبيل إلى ذلك الاستلهام ، ولا مشاحة في ذلك ، بل هو بصير بما يدور حوله ، لكن ضبابية الشهرة وسوداوية الفقر ، كادت تنهيه وهو يرى في استلهام هذه النماذج طريقًا للوصول ، بل هو متفائل من أنه سيصل كما وصل غيره .

ثم إنه يستلهم طرديًا ليعبر عن تجربة تنبع عن وعي تاريخي بمن سبقه ، وتثبت ثقافة تاريخية لشخصية تتوافق دلالتها ودلالة الممدوح فهو مثلًا يستلهم طريقة الحطيئة في مديحه لبني شماس (أنف الناقة) ، وتحولهم إلى الاعتزاز بهذا اللقب بعد أن كانوا يغضبون على ما يذكره النسابون ؛ ليوازي بها رؤيته الخاصة في تجربة مماثلة مع ممدوحه ليعلي من شأن الممدوح بالشعر الجيد[1] . يقول[2] :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا أنْ نَظَمْتَ حليَّها ... وَالشِّعْرُ يَنْعَتُ فِطْنَةَ الأَكْيَاسِ

لَوْ لِلْفِحُولِ تَعِنُّ لاَ فْتَخَروا بِهِ ... وَلِجِرْوَل لَجَبَا بَنِي شَمَّاسِ

وقد يعكس الاستلهام لأصحاب الفن الشعري شيئًا من الوضع النفسي للشاعر تتداعى من خلاله ذاكرة التاريخ ، ثم إنه لكي يستفيد من استلهامه يستدعي تجربة لبيد بن ربيعة العامري مما يعكس حصيلة ثقافات سابقة للشاعر ، فهو يسخط على قوم رجل يقال له سعيد بن معاوية ويراهم لأجله أردياء ، فيرى حاله معهم حالة لبيد مع قوم أردياء أيضًا ، فيذكر موقف لبيد منهم قائلًا[3] :

---

=

لبنان ، ص(١٤٧) وما بعدها .

(١) انظر : علي عشري زايد، ص(٢٥٥) .

(٢) ديوانه (٢/ ١١٧٥) .

(٣) ديوانه (١/ ٥٨١) .

وخَلَّفَنـــي الزَّمَـــانُ عـــلى أُنـــاسٍ وجُـــوهُهُم وأيـــديهمْ حَديـــدُ
أنـــاسٌ لـــو تـــأملهم لَبيـــدٌ بَكَـى الخَلْـفَ الـذي يَـشْكُو لَبِيـدُ

وكثيرًا ما يسلك الشاعر مسلك الاستلهام ليعثر من خلال نظمه للقصيدة على دلالة تضيء جانبًا من جوانب فكرته التي يعبر بها عن نهجه وتصوره ، فهاهو يعيد استلهام لبيد العامري المشهود له بالشاعرية ، وجرول (لقب الحطيئة العبسي) المشتهر على جودة شعره بالهجاء ، فيبدي من خلالهما المفارقة بين شعره وشعرهما ، وهو يستخدم شخصيتهما ؛ لأنهما يعدان مثلًا للفحولة الشعرية ، ولتبرير ما وصل إليه شعره من سهولة وعدم تعقيد ، فتراه يعبر عن ذلك بقوله[1] :

ومعـــانٍ لـــو فـــصّلتْها القـــوافي هجّنَـــتْ شِـــعْرَ (جـــرول) ولبيـــد
حُـــزْنَ مـــستعمل الكَـــلاَم اخْتِيـــارًا وتجنـــبن ظُلْمـــةَ التعقيـــد

وقد استمد من طريقة الأعشى في مدحه للخصال الحميدة التي اتصفت بها القبائل اليمنية ، واتخذ منها طريقة للاستلهام ؛ يقول[2] :

سَـــوَابِقُ مِـــنْ شَرَفٍ أولِ أكَّـــدهُ الأَعـــشَى بِـــمَا أكَـــدَهْ
إذَا تَأمَّلـــتَ فَتَـــى مُـــذْحج مَـــلأتَ عَيْنًـــا رَمَقَـــتْ سُـــؤددهْ

وكذلك ما كان من استلهامه (للشماخ) الذي يرى في تجربته خلفية لكل ممدوح يتسم بالتقوى ، والانقطاع الذي لانظير له في العبادة ، خاصة إذا عرفنا أن ممدوح الشماخ (عرابة) الذي رده رسول الله ﷺ لصغر سنه يوم أحد ، وصحبه الشماخ إلى المدينة فأكرمه وأوقر له بعيريه تمرًا وبرًا ، فمدحه الشماخ[3] .

يقول البحتري في ممدوحه[4] :

أرتجِـــي عِنْـــدَه فَواضِـــلَ نُعْمَـــى مَا ارْتَجَاهَـا (الـشَّمَاخَ)[5] عِنْـدَ عَرابـه

---

(١) ديوانه (١/ ٣٥٣) .

(٢) ديوانه (٢/ ٦٦٣) .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/ ٣١٤) .

(٤) ديوانه (١/ ١٤٧) .

(٥) الشماخ هو معقل بن ضرار الثعلبي شاعر مخضرم من أوصف الشعراء للقوس ، شهد القادسية .. =

ولا شك أن مارتجاه الشماخ عند عرابة يظهر في قوله[١] :

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الأَوْسِيَ يَسْمُو ... إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ القَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةَ بِاليَمِينِ

ولقد استحضر الشاعر من ذاكرته طريقة (ابن المفرغ)[٢] الشاعر الأموي واستلهمها استلهامًا عكسيًا لتخدم ما تولد لديه من إحساس بالندم لبيعه غلامه نسيم الذي باعه طوع إرادته ، وعلى العكس منه ابن المفرغ الذي باع غلامه (برد) قهرًا لقضاء عليه ، مثل قوله[٣] :

وقُلْتُ اسْأَلُ عَنْهُ وَالجَوانِحُ حَوْلَهُ ... وَكَيْفَ سُلُوًّا ابن المفرِّغ عَنْ بُرْدِ

ويبدو أنه يستلهم بوسيلة تضيء وتشع دلالات أقوى ليشير من خلالها إلى القائل بأسلوب توثيقي يعيد فيه الحق إلى أهله ، لكنه من جهة أخرى تتجاوز رؤيته رؤية أستاذه أبي تمام ، ذلك أن كف السماحة من ممدوحه أكرم من ديمة أستاذه حبيب ، ولعل هذا من أبرز ما وعيه الشاعر من خلال استلهامه لحبيب بن أوس الطائي[٤] ، من ذلك قوله[٥] :

وحَبِيبٌ إِذْ قَالَ وهُوَ مَرُوقُ ... (دِيمَةٌ سَمْحَةُ القِيَادِ سَكُوبُ)
لَوْ رَأَتْ عينَه حَيَا كَفِّ يَحْيَى ... لَمْ تَرُقْهُ الغيوث وهَي تَصُوبُ

وفي موضع ثانٍ يربط الشاعر بين حاله وحالة حبيب الطائي وصريع الغواني في استلهامه بأن ما حصل له من جفاء وتغير في العادة قد سبقه في ذلك مَنْ هم يعدون

---

=

انظر : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط١٦ ، ٢٠٠٥م ، (٧/ ٢٢١) .

(١) نفسه (٤/ ٢٢٢) .

(٢) ابن المفرغ : يزيد بن ربيعة الحميري من شعراء الدولة الأموية . انظر : هامش الديوان قصة مجاوزه لعباد بن وياد وما خلفته من أثره (١/ ٥٣٠) .

(٣) ديوانه (١/ ٥٣٠) .

(٤) يشير الشاعر إلى مطلع قصيدة أبي تمام التي مدح بها محمد بن الهيثم . انظر : ديوانه ١/ ٣٥٣ .

(٥) ديوانه (١/ ٣٥٣) .

في هذه الحالة مصدرًا ملهمًا لحاله مع (البغوي)[1] . يقول[2] :

وتَعجَّبْ مِنْ غير ما أنا فيه ... فكَذا كَانَ مُسْلِمٌ و حبيبُ

حَفِظَ الله أحمَدَ بن مَنِيع ... مَا سَرَى كَوْكَبٌ، وَهبَّتْ جَنُوبُ

---

(١) البغوي : هو أحمد بن منيع ، صاحب المسند ، هامش الديوان ١/ ٢٩٤ .

(٢) ديوانه (١/ ٢٦٤) وما بعدها .

د - عوامل نفسية :

لقد استطاع البحتري ، أن يستمد من أثر الحيرة التي كانت تلف حياته عزيمة الانطلاق لبناء المجد ، وصنع القوافي الخالدة ، وقد تجلى هذا في استلهامه لكثير من الأحداث التي تثبت القوة الإرادية للإنسان في تحقيق الانتصار ، وتمكنه من التغلب على كثير مما يعترضه من مشاق ، فليس الاستلهام إذن في حقيقته ترفًا يزيده الشاعر على أبياته ، بل لما يتبعه من أثر معنوي يتلاءم فيه الطموح الآني بطموح سابق ، ويحقق الحاجة الملحة في الذات الإنسانية التي تسعى إلى إشباعها ، فطريقة عرض الحدث في أصوات غائبة يعطي زخمًا تعبيريًا هائلًا تتحرك بموجبة معاني ذات أهداف إنسانية سامية تحمل الهم الإنساني الذي تعيشه الأمة بعامة ، وهي سمة من سمات الأصالة من خلال ارتباط الشاعر بماضيه[1] .

وكما هو معلوم أن «الفنان كأي إنسان يقول كلمته ثم يرحل ، تاركًا الحكم للأجيال من بعده ، وللحق أن أبا عبادة البحتري كان لكلمته الأصيلة والجهيرة حيز في العرف العربي ، وبناءً على ذلك بقيت مرادفة لمعنى الخلود ، قادرة على الإيحاء ، والإشعاع، والتأثير ، ولأنها متمكنة في نفسه فإننا نجده قد استوعب معالم الحياة من حوله ومن خلال انفعاله بسعادة البشر وشقائهم»[2] .

فقد كان ينتاب الشاعر نوع من الإحساس بالغربة خاصة بعد أن غاب جمع ممن كانوا له سندًا ، ولأجل هذا أصبح الاستلهام في هذه الحالة أكثر مطلبًا وأشد احتياجًا ، وهو شعور ناجم عما يسود العالم من حوله من زيف وخداع ، وبعد عن عفوية الحياة الأولى وتلقائيتها وبساطتها ، فكان هذا الإحساس المزدوج بالغربة وبجفاف الحياة داعيًا إلى الاستلهام ، يدفعه في هذا رغبة ملحة إلى الهرب من هذا

---

(١) انظر : نوري القيسي، الأديب والالتزام ص(٢٥).

(٢) د.صالح حسين اليظي ، السابق ص(٣٣) وما بعدها.

الواقع ، ونشدان عالم آخر ينسجم فيه مع نفسه أو مع آخرين ، وثمة تواصل آخر يجعله أكثر اطمئنانًا حين تتجاوب أحاسيسه مع أصداء الماضي الذي يرى فيه روحًا ومتنفسًا يبوح من أجلها ، ولأجلها قال شعرًا[1] .

وربما كان من الصحيح أن : «الشاعر يحتال على الواقع بالإبداع ، فهو إنما يكتب لأنه يستمتع بعملية الإبداع ذاتها ، وهذه المتعة حافزة على الكتابة ، لأنه يتخلص بها من وطأة الظروف على نفسه ، فلقد هونت نشوة الإبداع على الشاعر الآلام ، بل وجعلته يستعذبها ، كما يقول عز الدين إسماعيل[2].

ولو تتبعت الظروف المواتية للتقلبات الانفعالية بوصفها تشجع المبدع بإثارة العواطف في نتاجه ، لرأيت أنه من الجدير الإشارة إلى ما ذكره محمد بن سلام الجمحي الذي كان له فضل السبق في إبراز مظاهر الانفعال في النقد العربي نتيجة للتغلبات السياسية المؤدية للحرب ، التي تساعد على نمو تدفق الإبداع ، والموهبة الشعرية على وجه الخصوص ، وذلك بقوله : «وبالطائف شعر ، وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان ، وأهل الطائف في طرف»[3] .

ويمكن أن أستنبط من مقارنة ابن سلام الوصفية بين شعراء الطائف وما كان لديهم من وفرة الشعر ، وبين شعراء قريش وسبب قلته عندهم ؛ أن تحرك الانفعالات -وخاصة عند الشعراء- من العوامل المسببة لشحن القريحة ، بل فيه إبراز لحقيقة الشاعر النفسية وما يكتنفها من عمق تدفق الانفعال ، وقد كان

---

(١) انظر : علي عشري زايد، السابق ، ص(٥١) .

(٢) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب ، بدون طبعة، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، لبنان ، ص(٤٣) .

(٣) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، بدون طبعة، دار المدني ، جدة ، (١/ ٢٥٩) .

لانفعال الشاعر أن وجه كثير من الأحداث السابقة وضمنها شعره ، «فالعامل النفسي ما هو إلا انعكاس لما يحيط الشاعر من شعور نفسي ، فمن خلال معرفة النفس وربطها بما يحيطها من انعكاسات في عملية الخلق الفني يحتكم إلى الإلهام في تفسير الأمور دون الاستسلام إلى عوارض النفس وانتظار وحي الإلهام حرصًا منه على الانسجام في تفسيره لما يقع بما اقتضاه أصول التفكير ، خاصة إذا انساب إلهامه بكل عفوية وتلقائية»[1] .

وقد برز الاستلهام ذو العامل النفسي بكل وضوح في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، حاول من خلاله أن يخفف من حدة التوتر والقلق ، عله يتئد قلبه خاصة لما أصابه من ذعر بعد مقتل الخليفة العباسي المتوكل ، ووزيره ، إذ أظلمت الدنيا في عينيه ، ولا مناص مما يشعر به إلا أن يستلهم فمن ذلك قوله[2] :

تَصَرَّعَتْ حَوْلًا بِالعِراقِ مُجَرَّمًا ... مَدَافَعَةً مِنِّي لِيَومٍ وَدَاعِهِ
أَأَنْسَاكَ بَعْدَ الهَوْلِ ثُمَّ انْصِرَافِهِ ... وبعد وقوع الكُرْهِ ثم انْدِفَاعِهِ
وبَعْدَ اعْتَلاقٍ مِنْ أَبِي الفَتْحِ ضَيْعَتِي ... لِيَلْحَقَهَا مُسْتَكْثِرًا فِي ضِيَاعِهِ
ومَا رَامَ ضُرِّي يومَ ذاكَ وإنَّما ... أَرَاغَ امرؤٌ حرٌّ مكانَ انتفاعِهِ
إذا نسي الله امْرَأً في بيته ... ووفْدُ الحجيج حاشدٌ في اجتماعه
ووالله لا حدَّثْتُ نفسي بمنْعم ... سِواكَ ولا عنَّيْتُها باتِّباعه
ولو بُعْتُ يومًا منك بالدَّهرِ كُلِّهِ ... لفكَّرتُ دهرًا ثانيًا في ارتجاعه

فقد جعل الذكرى ميثاقا لما يعتريه من ضنك العيش في العراق ، وهي في الوقت نفسه حافز للبقاء في المكان .

ولقد امتد تيار الاستلهام إلى حادثة سقوط الفتح بن خاقان ، فهو يركز على استعادة أحداث لها صلة بالخليفة المتوكل ، أو بمن معه في البلاط ، وهي مدعاة لأن

---

(١) عبدالقادر فيدوح، السابق ص(٢٧) وما بعدها .

(٢) ديوانه (٢/ ١٣٢٠) وما بعدها .

يدرك في النهاية أن الشعور الإنساني والذوق الملهم ، والإحساس النبيل قادر على أن يصنع مثل هذا في أبياته[1] ، ثم هو أيضًا يلفت النظر إلى أن يعيد الأحداث ويستنطقها بحيث يجعلها وجه قصائده ، خاصة عندما تتصل بشخص المتوكل أو من في بلاطه . يقول[2] :

إِحْدَى الحَوادِثِ شَارَفَتْكَ فَرَدَّهَا ... دَفْعُ الإِلَهِ وَصَنْعُهُ المُتَتَابِعُ
دَلَّتْ عَلَى رَأْيِ الإِمَامِ وأَنَّهُ ... قَلِقُ الضَّمِيرِ، لِمَا أَصَابَكَ جَازِعُ
هَلْ غَايَةُ الوَجْدِ المُبرِحِ غَيْرَ أَنْ ... يَعْلُو نَشِيجٌ أَوْ تفيضُ مَدامِعُ؟
وَفَضِيلَةٌ لَكَ إِنْ مُنِيتَ بِمِثْلِهَا ... فَنَجَوتَ متئِدًا وَقَلْبُكَ جَامِعُ
خَبَرٌ يَسُوءُ الحَاسِدِينَ إِذَا بَدَا ... وأَعَادَ فِيهِ مُحَدِّثٌ، أوسَامِعُ

ولقد ترك حبس (محمد بن يوسف الثغري) ندوبًا في نفسه ، فراح يستلهم الموقف ويستمد منه قوة الشعور الإنساني ، إذ ما زال الموقف يتكرر أمام عينيه ، وهو يبني منه أبياته لا من قبيل الإسراف ، وإنما لارتباط الحدث الوثيق بنفسية الشاعر ، بل ولخطورته وما ترك على إثره من خراب حلَّ بالإسلام والمسلمين ، يقول[3] :

جُعِلْتُ فِدَاكَ الدهر ليس بِمنفكٍّ ... مِنَ الحَادِثِ المشْكُو والنَّازِلِ المشْكِي
وَمَا هَذِهِ الأَيامُ إلاَّ مَنَازِلٌ ... فَمِنْ مَنْزِلٍ رَحْبٍ ومن مَنْزِلٍ ضَنْكِ
وَقَدْ هَذَّبتْكَ النَّائِبَاتُ، وإِنَّمَا ... صَفَا الذَّهبُ الإِبْرِيز قَبْلَكَ بالسَّبْكِ
ومَا أَنْتَ بِالمَهْزُوزِ جأْشًا على الأَذَى ... ولا المتَقَرِّي الجِلْدَتين على الدَّعك
عَلَى أَنَّه قَدْ ضِيمَ فِي حَبْسِكَ الهُدَى ... وأَضحَى بِكَ الإِسْلاَمُ فِي قَبْضَةِ الشِّرْكِ

ومن الطبيعي وقد شغل الشاعر في عصر ظهرت فيه حتمية التطور والتجديد بالنفس البشرية حتى حظيت بالكثير من ملاحظات أبي عبادة ، وهي لا تلبث إلا

---

(١) انظر : سيد قطب، السابق ص(٧٧) .

(٢) ديوانه (٢/ ١٣٠٧).

(٣) ديوانه (٣/ ١٥٦٣) وما بعدها .

أن تترجم إلى أبيات وثقها في درره[١] ، ففي قصيدة يستمد منها ذكرى نكبة بنى مخلد حتى يصيب الهدف الذي يرمي إليه قائلًا[٢] :

لَعَمَّا لَكُمْ مِنْ عَاثِرِينَ بِنَكْبَةٍ ... بَنِي مَخْلَدٍ صَوْبَ الغَمَامِ المُطبَّقِ!

تُحِبُّكُمُ نَفْسِي وإِنْ كَانَ حُبُّكُمْ ... مَصِيبِي بِأَهْوَاءِ الأَعَادِي ومَوبِقِي

فدافع الحب هو الذي قوى شكيمة الاستلهام لنكبة بني مخلد ، فالحدث اندثر ، وبقي عطره يفوح في ذاكرته .

وليس من شك في أن الرجل قد وُهب مقدارًا وافرًا من الحس ، والحماسة والحنان ، ووهب نفسا أوسع من غيره من الناس أفقًا ، وفوق هذا لديه استعداد لأن يتأثر بالأشياء الغائبة كأنها حاضرة ، لهذا كله نجد لديه تمكن على التعبير عما يفكر ويحس ، ولاسيما من المشاعر والأفكار التي تنبعث فيه بلا مؤثرات خارجية ، لهذا يجتهد الشاعر في أن يجعل أحاسيسه قريبة من أولئك الأشخاص الذين يصفهم ، وهو أيضًا يحاول أن يخيل إلى نفسه أن مشاعره ومشاعر أولئك شيء واحد[٣] .

وتتواصل حلقات الاستلهام بدافع نفسي مسيرتها بدرجة كبيرة في المرحلة الأخيرة التي أحس الشاعر فيها بالفقد المعنوي ، وبمعنى أدق بالاغتراب ، خاصة وأن من كان لهما يد طولى عليه قد غابا ، ووليا خلفه الحيرة ، لكنه لا يزال يذكرهما في أبيات يرى فيها أن المعتز وابنه عبدالله صورة من صور الماضي الآسر على فؤاده ، الذي دعاه لأن يذكرها ، وما أصعبها على الفارس الذي سبق وأن رأيت أكثر شعره متسربلًا في معانٍ إنسانية حماسية ثائرة من دم الشجاعة والإقدام ، ثم تأتي لحظة

---

(١) انظر : محمد بن عبدالعزيز الكفراوي، الشعر العربي بين الجمود والتطور ص(١٢٩)، د.ط، نهضة مصر للطباعة، والنشر.

(٢) ديوانه (٣/ ١٥٥٠).

(٣) انظر : محمد خلف الله، دراسة الأدب من الوجهة النفسية ، ط٣، ١٤٠٤هـ ، دار العلوم ، عمان ، ص(٧٩) وما بعدها .

استلهام لأشخاص كان لهم فضل عليه فتزيده وهنًا على وهن ، وربما أن استلهامه في هذه الحالة حيلة من الحيل التي تكون منفذًا لمدح المعتمد ، وفي قرارة نفسه أنه ليس أهلًا لما يقول . يقول[١] :

خَلِّ عَنْكَ النَّاسَ لاَ تَغْرزْ بِهِمْ ... واعتَمِدْ بَحْرَ الإِمَامِ المُعْتَمِدْ
مَلِكٌ يَكفِيكَ منْهُ أَنَّهُ ... وَجَدَ الدُّنْيَا فأَعْطَى مَا وَجَدْ
هِمَّةٌ نَعْرِفُهَا مِنْ جَعْفَرٍ ... وَخِلاَلٌ فيه يَكْثُرنَ العَدَدْ

فالهمة والعطاء سمتان طالما رددهما في شعره بعد رحيل المتوكل ، وجعل يذكر هذه الخلال جزمًا منه أنها لن تتكرر ، لكنه يعيدها بطريقة أو بأخرى لمجرد تأصيل هذه المبادئ في نفوس أبنائه ، وتذكيرهم بأن هذا نهجه وسيرته في الحياة ، فليقتفوا أثره حتى تكتب لسيرته الخلود .

ولعل العلاقة الحميمة بين قصائده ومن يمدحهم جعلت منه شاعرًا يستقي من أخلاق المتوكل ، ففي قصيدة يمدح فيها عبدالله بن المعتز يستلهم ما وسعه من ذكر المحاسن وما أخذ منهما في سالف أيامه . يقول[٢] :

فَلَقَدْ تَوَلاَّنِي أَبُوه ... بِأَكْثَرِ النَّعْمَى وَجَدُّه

ثم إنه يستلهم أحداث مقتل الخليفة العباسي وقائده الذي آلمه أيما إيلام ، وانعكس ذلك سلبًا على نفسية الرجل ، فمضى يذكرهما ، ويتوجع لفقدهما ، وفق إحساس ملهم في طريقة معالجته ، إذ لا أحد يعرف الصورة قدر معرفته بها . من مثل قوله[٣] :

---

(١) ديوانه (٢/ ٦٦٨) .

(٢) ديوانه (١/ ٦٧٠) .

(٣) ديوانه (١/ ٤١٨) .

مَـضَى جَعْفَـرٌ والفـتح بـين مُرمَّـلٍ ... وبَـين صَـبِيغٍ فِي الـدِّمَاءِ مَـضرَّجِ
أَأَطْلُـبُ أَنْـصَارًا عَـلَى الـدَّهْرِ بَعْـدَمَا ... ثَوَى مِنْهُمَا فِي التُّرْبِ أَوْسِي وخَزْرَجِي
أُولَئِـكَ سَـاداتي الـذِينَ بِفَـضْلِهِمْ ... حَلَبْـتُ أَفَـاوِيقَ الرَّبِيـعِ المـثَجَّجِ
مَـضَوا أَمَـا قَـصْدًا وخُلِفْـتُ بَعْـدَهُمْ ... أُخَاطِـبُ بالتَّـأمِيرِ وَالِي مَنْـبِجِ

فالمشهد ما زال يتكرر في ذاكرته ، ويعاوده من زمن لآخر ، في حيرة وذهول ملكته بعدما كانت السعادة ترفرف بجناحيها أيامها ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾[1] قصروا ومالوا ، وما زال الماضي مسيطرًا على ذاكرته متحسرًا متوجعًا معتلًا لفقدهما ولقصد الغدر بهما وإطاحتهما ، وأظن أنها انكشفت كربته عند فقد أحبته باستلهامه ، ولعمري أن المصاب جلل وطئت دماؤها أرض السرور الذي اكتنفه أيامها ، فهم السادة الذين ارتشف وصالهم ، واليوم يضنيه التنائي ويعززه بالاستلهام بعد أن صار التراب مآلها .

ولقد استغل الرجل ملمحًا من ملامح حياته بعد رحيل المتوكل ، ونقله في شعره ، محاولة منه الهروب من واقع حياته المريرة ، ومن زيف الأحداث التي كثيرًا ما أفزعته غرابتها[2] ، إذ لم يستطع أن يبدي أي حركة تنم عن الطعن في الانقلاب الذي وقع ، فكظم غيظه ، وأخذ يحتاط لنفسه ، ويقيها شر النقد والتجريح ، فجارى المظاهر[3] ، وهذا ما يفسر قول المرزباني : «أن البحتري قد هجا نحوًا من أربعين رئيسًا ممن مدحه ، منهم خليفتان ؛ وهما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ، ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب ، والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبئ عن سوء العهد ، وخبث الطريقة»[4] ، وهو بهذا يبحث عن واقع آخر أكثر نقاء وصدقًا ،

---

(١) سورة مريم: (٥٩) .

(٢) انظر : نوري القيسي، السابق ص(٤٦) .

(٣) عبدالسلام رستم، طيف الوليد أو حياة البحتري دراسة وتحليل، د.ط، دار المعارف، مصر ، ص١٧ .

(٤) الموشح ، ص(٤١٤) .

وعن ذات أخرى أكثر طهرًا ، فاستلهم وهو يمدح علي بن يحي الأرميني شخص الخليفة العباسي المتوكل وقائده معلنا على الملأ كيف أن الحيرة تلف حياته في زمن يتمنى أن يذيب جليده ، فهو يحاول الخلاص من واقع متناقض يدركه من قرأ الظروف والملابسات التي أحاطت بالشاعر يكلف فيه بمدح من هم ليسوا أهلًا للمدح ، وهو ما صرح فيه بقوله[١] :

أَمِنْ بَعْدِ وَجْدِ الفَتْحِ بِي وَغَرَامِهِ ... وَمَنْزِلَتِي مِنْ جَعْفَرٍ وَمَكَانِي
أُكَلَّفُ مَدْحَ الأَرْمَنِي عَلَى الَّذِي ... لَدَيْهِ مِنَ البَغْضَاءِ والشَّنَآنِ؟!
نَدِيمَي لاَ زَالَ السَّحَابُ مُوَكَّلًا ... بِجُودِكُمَا بِالسُّحِّ وَالهُطْلانِ

ومن هذا يتبين أنه في كثير من الأحيان وجدت هذه الظاهرة لديه نتيجة استجابة لمثير فعال للكشف عن مكنوناته[٢] ، إذ لم تكن الحالة التي يكشف عنها وهمًا ميتًا ، أو حالة منسية ، أو صورة باهتة ، وإنما كانت أجزاؤها ناطقة بالمعاني الإنسانية الكبيرة[٣] ، فقد لجأ إلى القول في غلامه واصفًا حالته النفسية دون زيادة أو نقصان ، متخذًا منها ذريعة للتعبير عن حقيقة ما عاناه مفسرًا بأنه عندما فقد غلامه فقد فارق من هما أعز منه المتوكل ، والفتح بن خاقان[٤] ، يقول[٥] :

عَسَى آيِسٌ مِنْ رَجعَةِ البَيْنِ يُوصَلُ ... وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالأَحِبَّةِ يُقْبِلُ
أَيَا سَكَنًا فَاتَ الفِرَاقَ بِأُنْسِهِ ... وَحَالَ التَّعَادِي دُونَهُ وَالتَّزَيُّلُ
فَلاَ تَعْجَبَنْ أَنْ لَمْ يَغَلْ جَسْمِي الضَنى ... وَلَمْ يَخْتَرِمْ نَفْسِي الحِمَامُ المُعَجَّلُ
فَقَبْلَكَ بَانَ الفَتْحُ عَنِّي مُوَدِّعًا ... وَفَارَقَنِي شَفْعًا لَهُ المُتَوَكِّلُ

---

(١) ديوانه (٤/ ٢٢٧٩).

(٢) عبدالقادر فيدوح، السابق ص(٢٣).

(٣) نوري القيسي، السابق ص(٤٦).

(٤) انظر : عبداللطيف شرارة، شعراؤنا القدامى، أبوعبادة البحتري، دراسة ومختارات، دار الكتاب العالمي، ط١، ١٩٩٠م ، ص١٤ .

(٥) ديوانه ٣/ ١٨٨٨ .

ممَّا تقدَّم ، يتبين أن هذه العوامل فيها من التشابك والترابط ، ما يصعب فصل أحدها عن الآخر ، لما بينها من علاقات تأثير وتأثر وتبادل[١] ، وليس عجيبًا أن يدير البحتري القلاع لكل ريح[٢] ، فيأخذ من الحوادث مادة ملهمة له على غزارة شعره ، ثم إنه يجاريها ويقبلها على علاتها ، وهو يتقلب في استلهامه تقلب المضطرب للعهد ، «ففي أعوام سبعة تداول خمسة خلفاء كلهم أضداد وأعداء ، ولكل فريق منهم حاشية وحجاب ، وكثر في عهدهم الفتك والانتقام ، الفريق القائم بالحكم ينكل بالفريق الآخر المعادي له ، فإذا تغلب الثاني سعى بالأول وأراق دماء أنصاره[٣] ، بيد أن النسق الشعري الذي اتسقت فيه أحداث الخلافة العباسية حققت لأبي عبادة البحتري أسباب التواصل الذاتي والحياتي ، وأمدته بسيل وافر من المواصفات والمواقف ، التي تركت أثرها الكبير على طبيعة العصر ،

### هـ - المغزى من استلهامه لهذه الأحداث :

### يمكن وضعه في محورين[٤] :

١ - استثارة كوامن النفس البشرية ، وتحريك نوازع الاندفاع ، وتقديم العبر لمواقف البسالة التي انفطرت عليها نفس العربي ، ومغازي النبي محمد بن عبدالله ﷺ وصحابته خير نماذج تمثل ذلك .

٢ - استظهار الثقافة التاريخية للشاعر .

وقد تتسم حركة الاستلهام بأنها حركة ذات اتجاه واحد ، تستمد من ماضي

---

(١) انظر : علي عشري زايد ، السابق ص(١٧) .

(٢) انظر : علي شلق ، البحتري ، ص(٧٨) .

(٣) عبدالسلام رستم، السابق ، ص(١٥٦) .

(٤) نوري حمودي القيسي، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص(٤٦) .

الحياة إلى الشاعر ، ولا أعرف نصًا واحدًا من نصوصه يحدث فيه العكس ، فالاستلهام ليس مجرد ترديد ، بل هو في حقيقته له مغزى ، يرجو من ورائه أن تصل فكرته للمتلقي ، وفي حشد هذه الوقائع والأسماء استعادة لزمن ولّى ليجعل نصه أكثر كثافة وعمقًا ، لا أن يكون الأمر مجرد تلاعب بالأسماء ، ومما يزيد الأمر انتباهة أن هذه الأسماء اللامعة هي أسماء عربية لا غير ، بيد أن الزمن زمن غلمان ، قيان جواري ، وإماء ، وهذا مما يثبت أصالة الشاعر وعربيته التي لم يتنازل عنها في خضم هذه الحقبة ، وفيها دلالة على أن العرب وحدهم هم أهل لما هم عليه . وقد يأخذ الاستلهام طابع التولد ، والتكرار ، والتأدب ، كما قد يسجل الشريط الاستلهامي سلسلة من المواقف والانفعالات المتباينة[1] .

**و – أنماط استخدام الشاعر للاستلهام :**

١ – «استلهامه للحدث محور للقصيدة .

٢ – استلهامه للحدث ليحمل بعدًا من أبعاد التجربة .

٣ – استلهامه للحدث عنوان على مرحلة»[2] .

لقد استنار أبوعبادة باستلهامه على ما يمثله موقفه سياسيًا واجتماعيًا ونفسيًا وفنيًا ، وكانت تلك المواقف ذات تأثير في نفس المتلقي ، والشاعر ، لأنها خلدت في الذروة العليا من عقله ونفسه ، ويمكن أن أدرس أنموذجًا لكل نمط من هذه الأنماط كالآتي :

---

(١) انظر: هاني نصر الله، طيف البحتري في ضوء النقد الحديث ، ط١، ٢٠٠٦م عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، إربد ، ص(١٢١) .

(٢) انظر: علي عشري زايد، السابق ص(٢٧٦) .

١ - استلهامه للحدث محور للقصيدة :

لقد تسود الحدث السياسي في استلهام البحتري التاريخي ، وأصبح محور القصيدة ، يدور عليه معظم الأحداث ، ولن أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إن هذا النوع هو أكثر موضوعية وأكثر تعقيدًا في الوقت نفسه ؛ إذ إن الشاعر يبني عليه قصيدته ، ويجعل منه مادة ومرجعًا ليؤرخ فيه الحادثة ، فيستعير من ملامح الأحداث لتتحد اتحادًا تامًا مع ما جاء في المصادر التاريخية ، إذ فيها تفاصيل الحادثة ، وقصيدته على هذه الشاكلة موضوعية ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1] ، والشواهد على ذلك كثيرة ، منها قصيدة يستلهم فيها الخلاف الذي وقع بين الأمين والمأمون[2] ، يقول موضحًا ذلك من قصيدة يمدح فيها محمد بن عبدالله بن طاهر[3] :

لَوْلا الحُسَيْنُ وَمُصعَبٌ وَقَبِيلُهُ ... مَا قَامَ مُلْكٌ فِي بَنِي العَبَّاسِ

وَبِذِي اليمينَيْنِ الَّذي مَا مِثْلُهُ ... لمشير أَخْمَاسٍ إِلى أَسْدَاسِ

يَبْغِي عليًّا إِذْ أَتَى فِي جَحْفَلٍ ... حِنقِين أَهْلِ شَرَاسَةٍ ومِرَاسِ

فبدا بِجِدِّهِمُ فَدَقَّ شَبَاتَهُ ... داسُوا أَبَا يَحْيَى أَشَدَّ دِيَاسِ

وانحطَّ يَطْلُبُ بَابِلًا ومليكها ... فَأَحَاطَ بالمَلِكِ الخَلِيعِ النَّاسي

دَاجَاهُ حينًا عَلَّهُ أن يَرْعَوِي ... فَأَبَى وَمَالَ إلى الهِجَفِّ الجاسي

قَدْ كَانَ حِلْمُ أَخِيهِ حِلْمًا واسِعًا ... غَمَرَ المُلُوكَ وسائرَ الأَجْنَاسِ

لكنه أصغى لـ«هرثمة» الَّذي ... خَلَّاهُ بَيْنَ ضَرَارِيٍّ أَطْفَاسِ

فَأَتَتْ قَوَارِبُ «طَاهِرٍ» فَتَشَبَّثَتْ ... بِخَلِيفَةِ الخِصْيانِ والنَّسْنَاسِ

لَا «كَوْثَرٌ» أَغْنَى وَلَا أَشْيَاعُهُ ... مِنْ رَهْطِ «بَيْدُونٍ» ولا «فِرْنَاسِ»

---

(١) سورة إبراهيم: (٢٥) ، بعض من آية .

(٢) انظر: أبوحنيفة أحمد بن داود الدينوري ، الأخبار الطوال ، ط(١) ، ١٤٢١/ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت ، ص(٥٨٣) وما بعدها .

(٣) ديوانه (٢/ ١١٦٨) وما بعدها .

مَـنْ كَـانَ يَـدْرِي أَنَّ آخِـرَ أَمْـرِهِ ... يَبْقَـى أَسِـيرًا فِي يَـدِ الحُـرَّاسِ
بـل كيـف يَنْجُـو والمَطالِـبُ «طَـاهِرٌ» ... بِمَواقِـفِ الأَرْصَـادِ والأَحْـراسِ!؟
فَـسَعَى إِلَيْـهِ مُبَـشِّرًا بمحمَّـدٍ ... عجِلًا، فَقَـالَ لَـهُ: اشْـفِنِي بـالرَّاسِ!
مَـا فَـوْقَ ذا مَجْـدٌ يَـصُولُ بِـهِ امْـرُؤٌ ... فَـرَّ المُمَاجِـدُ مِـنْ مُـدَى الأَحْـرَاسِ
مَـا حَـلَّ مُذْعَقَـدَ «الزُّرَيْـقُ» إِزارَهُ ... حَتَّـى اسْـتَقَرَّتْ كَـرَّةُ الأَفْـرَاسِ
هَـذِي المَكَـارِمُ لَا عَـرُوسٌ هَمُّـهُ ... عَـزْفٌ وَقَـصْفٌ طَـاعِمٌ أَوْ كَـأْسِ

٢ - استلهامه للحدث ليحمل بعدًا من أبعاد التجربة :

وفي هذا النمط ، يكون للحدث الذي استلهمه الشاعر في تجربته الشعرية أهمية ، تتوجه حيث يذكر هذا الملمح ؛ ليحمل في طيات أوراقه حادثة مضت ، يعيد استلهامها بحيث تلتحم مع ما عرفته ذاكرته العربية ، وهذا الصنيع يزْهَرُّ الحدث الغائب من أجله ، وتصبح القصيدة روضة يكتنفها بعد من الأبعاد الكريمة ، التي تعطي الشاعر نضارة في قصيدته ، ومثل هذا يندرج في مضانه استلهامه لقصة استسقاء سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ للمجتمع في عام الرمادة -كما سبق أن بينت- يقول الشاعر[1] :

وَأَنْتَ ابْنُ مَنْ أَسْقَى الحَجِيجَ عَلَى الظَّمَا ... وَنَاشَدَ فِي المحلِ السَّحَاب فَأَمْطَرَا

وقوله أيضًا[2]:

إِنْ الفَضِيْلَة لِلَّذِي اسْتَسقَى بِهِ ... عُمرٌ وشَفَّعَ إِذْ غَدَا يُسْتَشْفَعُ

(١) ديوانه (٢/ ٦٣٤) .

(٢) ديوانه (٢/ ١٣١١) .

٣ - استلهامه للحدث عنوان على مرحلة :

حين يقيم الشاعر استلهامه للحدث عنوانًا على مرحلة ، لا يرى بُدًا من طريقة للتأدب ، يخطو فيه بخطى تمتزج فيها حالة من حالات التجاوب مع ذاته والانفراد بها ، حينها تبدو في مظاهر دالة على حاله ، سواء مع من أحبهم وتأوه لفقدهم ، أو مع موقف من المواقف التي أثرت في نفسه ، وظلت مهيمنة على ذاكرته ، مثل هذا يكثر في مرحلة اتصاله بالمتوكل أو بعد مضي عهد المتوكل .

ففي قصيدة يمدح فيها الفتح بن خاقان ، استلهم سقوطه من الجسر ؛ كما سبق ذلك[1] .

(١) ديوانه (٢/ ١٣٠٧) وما بعدها .

**الموضوع الذي أخذ منه الشاعر مادة الأحداث :**

لا شك أن البحتري لم ينقطع عن الماضي ، سواء أكان دافعه في هذا التعبير عما نتج من أحداث ، أم ما استلهمه من ذاكرته ؛ اعتقادًا منه أن إهماله لماضيه ما هو إلا إهمال للينابيع الأصيلة ، التي ينهل منها كل شاعر يريد أن تثبت جذوره ، وتتفرع في سماء الإبداع ؛ ولذا يحتل البحتري موقعًا متميزًا في مسيرة الشعر من وجهتي النظر التاريخية والمقدرة الفنية ، فتجد حضورًا للأحداث بأبعاد مختلفة ، جميعها يتنامى في سبيل تحقيق الموقف الذي يسعى له[1] ؛ إذ إن نظمه يقتضي توثيق كلامه بالروايات التاريخية ، ثم لا يكاد يتجاوزها إلا باستخلاص العبر منها[2] .

وقد اعتمد في موضوعه ملتزمًا بمسار الأحداث على الآتي :

أ – جاهلي : يتجلى في أخبار العرب وما كان من عاداتهم .

ب – إسلامي : لجأ فيه إلى ما وثق من سيرة نبينا محمد بن عبدالله ﷺ وصحابته وأحوالهم ، ومغازيه .

جـ – أموي : بناء على ما استمده من معلومات عن العصر الأموي .

د – عباسي : وجه الشاعر شعره فيه أحداث العصر وما تواترت فيه الأخبار عن انتصارات العرب على الروم .

---

(١) انظر : د.خالد الكركي، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث ، ط١١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، مكتبة الرائد العلمية ، عمان ، ص(١٨٣) .

(٢) انظر: د.علي عشري زايد، ص(٧٣) وما بعدها .

- المنهج الذي اتبعه الشاعر في صياغة الأحداث :

حاول الشاعر أن يلزم نفسه في مواضع كثيرة في شعره بصيغة ساعدت على اندماجه مع أحداث الزمن ، ولم يفت عينه الفاحصة التاريخ ، الذي ورثه عن عرش العروبة ، وما من ريب أن نظرته إلى هذا بحذر وارتياب أن يصير لهم ما صار منذ أزمنة سابقة قد دفعه لهذا[١] ، وقد تتبع إثر ذلك منهجًا يقوم على مرحلتين :

المرحلة الأولى : تقوم المرحلة الأولى على تسجيل للأحداث وتدوين لها ، والتعبير عنها[٢] ، وكان هذا يندرج تحت ما أسميته نتاج الأحداث التاريخية . ولم تقف منهجيته عند هذا الحد بل سعى إلى تجديد صلته بالماضي ، وهذا يظهر من خلال المرحلة الآتية :

المرحلة الثانية : تقوم على إحياء الماضي والتعبير به للتحذير من مغبة الانهزامية والاتكال ، وهو واضح من خلال استلهامه للأحداث ؛ لذا أصبح شاعرنا في هذه المرحلة يعي وعيًا تامًا أنه يمارس مع الموروث نوعًا جديدًا من العلاقة ، مختلفًا في طبيعته وغاياته وكثير من بواعثه عن ذلك اللون من العلاقة التي كان نصيب التدوين فيها واضحًا .

---

(١) انظر: عائشة عبدالرحمن ، السابق ص(١٢٦) .

(٢) انظر: علي عشري زايد ص(١٦٩) .

- الرؤية الذاتية :

- المبحث الثالث : الجانب الوجداني والأخلاقي في شعر البحتري التاريخي .

- المبحث الرابع : حياة المجتمع العباسي في شعر البحتري التاريخي .

**الرؤية الذاتية :**

إن انصباب الشعر في العصر العباسي نحو قيمة جديدة إخراج له من الأطر الكلاسيكية[١] ، يتمثل في ارتشاف شعرائه للقصائد ، وفي مقدمتها تصويرهم للممدوح بوصفه أنموذج بطولة ، دليل على أن الشاعر أدرك القضايا التي تهم التاريخ ، فهو في الوقت نفسه يقدم تأويلًا من خلال منظوره الذاتي الذي أصبح هاجسًا يدفعه إلى الأخذ بالجانب الإيجابي الذي يتمنى الشاعر أن يراه في ممدوحيه ، الذي لو عملوا به لساد السلام في الأرض منذ زمن بعيد ، ولملأت العدالة ، والرحمة ، والمودة ، والخير أرجاء الحياة[٢] .

«إذ ليس المراد بالذاتية أن يقتصر الشاعر على التعبير عن ذاته ، وعواطفه ، وتجاربه الخاصة وحدها ، وإن كان ذلك من أهم مظاهر الذاتية ، بل أن يكون للشاعر كيان مستقل ، ونظرة متميزة للحياة والناس ، ووجدان يقظ يرصد المجتمع ، والطبيعة ، والنفس الإنسانية»[٣] .

ومن المعروف أن حياة البحتري قد حفلت منذ صباه -بالأحداث ، والتجارب- ، فخاض -وهو شاب- حرب العرب مع الروم ، وشارك في معارك عدة ، ثم قدر له أن يدلي بدلوه في أحداث عديدة كان منها حبس الثغري الذي لم يسهل عليه كظم غيظة وقت عذابه[٤] ، ودبت إلى جسده شيخوخة الحرب حتى بدا على روحه اليأس ؛ خاصة في المرحلة الأخيرة من حياته ، وقد فرضت هذه التجارب والمحن على شخصه أن يرتد إلى ذاته ، فتنبعث من شعره الحرارة والعواطف الممتزجة بالبصيرة الصادقة النافذة من ملاحظة دائبة للنفس والحياة

---

(١) انظر: د. يوسف خليف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد، د.ط، دار غريب. القاهرة، ص٦ .

(٢) انظر: نديم مرعشلي : البحتري، ط(١)، ١٩٦٠ دار طلاس، ص٧٨ .

(٣) عبدالقادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، دار النهضة العربية، بيروت، ص٢٧.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٤/ ٣١٥ .

والناس[١] ، فالشاعر لم يتقوقع حول ذاته ، بل استطاع أن يقدم لنا بين الفينة والأخرى ومضات صادقة عن واقعه وعن الناس[٢] .

وستحاول هذه الدراسة من خلال مواجهة النصوص الشعرية إبراز الجوانب الوجدانية ، التي ينضوي تحت لوائها (الطبيعة ، والحب ، والفرح ، والحزن ، والهم ، والفرج ، والأمل ، والضيق ، والسعة) .

والجوانب الأخلاقية التي بات فيها الشاعر مُنظرًا يلملم بقايا من رفات الأخلاق في صورة أشعار تتن ، وقد كان نصيبها في ديوانه عظيمًا ، وحظها من العناية وفيرًا .

إذن سوف يتمحور هذا المبحث على وفق الآتي :

١ – من هو الشاعر الوجداني في التاريخ؟ .

٢ – الموضوعات الوجدانية والأخلاقية في شعر البحتري التاريخي .

٣ – السمات الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي .

٤ – العناصر الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي .

---

(١) انظر: عبدالقادر القط: السابق، ص ٢٨.

(٢) قريرة زرقون نصر: الاتجاه الرومانسي في الشعر الحربي الحديث بالمغرب: عبدالكريم بن ثابت (أنموذجا)، ط(١) الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ص١٤٢.

## المبحث الثالث : الجانب الوجداني والأخلاقي في شعر البحتري التاريخي :

إن الرؤية الذاتية : عطاء أيا عطاء ، خاصة وإن ارتبطت بما يهذبها ، ويعكس السجايا الحميدة التي تؤصل صلة الفرد بالآخرين ، وتقيم علاقة إنسانية تنبثق من فجرها رؤية أخلاقية ووجدانية ، فيها يحب المرء لذاته ما يحب للآخرين ، بعيدًا عن النرجسية ، التي لا يرى فيها الفرد إلا نفسه ، هذا من ناحية ، ومن أخرى ، فلو طُولِب الشاعر بتجفيف نتاجه من كل ماله علاقة بمشاعره وأحاسيس الآخرين لجاء ما يقوله هباءً ، وجامدًا[١] .

لذا فقد اعتنى البحتري في أكثر قصائده بالموضوعات التي تتعلق بالوجدان ، والأخلاق ، وأبرزها في إطار يحمل بداخله خطابًا على اختلاف مستوياته ، وغالبًا ظهرت نتيجة معاناة ، بل إنه سعى في جهود حثيثة لينافس الهم الذي عاشه ، الذي حد من حريته ، فانطلق من شعره انطلاق السجين من ضيقه ، معبرًا عن وجدانه ، ولا تفوته المراقبة العملية لتأثر النفس بأي حادثة محيطة ، حتى ولو كانت تافهة ؛ إذ قد يبدع الشاعر قصائد رائعة مع أن المناسبة لا تثير فينا اهتمامًا[٢] .

ولا أستطيع إنكار ما جاء به من جانب وجداني وأخلاقي يصب في بوتقة التاريخ/ الأحداث ، التي وقع عامل التفاعل فيها بين الفكر والشعور ؛ إذ «لا بد أن يكون في الحسبان أنه ما من إبداع شعري إلا وله رؤية تعمق فلسفته وتضمن له البقاء والاستمرارية لتجارب صاحبه ، عندها لا نشك لحظة في استحالة الفن إلى عالم الخبرة ، ومنطقه من التأمل ، إلى جانب ملامحه الوجدانية التي تتعلق بمصادر

---

(١) انظر : د. عبدالحميد بوزوينة : نظرية الأدب في ضوء الإسلام : القسم الثالث ، ط(١) ١٤١١هـ-١٩٩٠م ، دار البشير ، عمان-الأردن ، ص٦٧ .

(٢) انظر : نفسه ، ص١١٤ ، القسم الأول .

التجارب وعالم الشعور»[١] .

وكما أن الذين استخدموا البيان العربي في كشف الأحاسيس ، والإفصاح عن خفي المشاعر[٢] ، أحالوا ذلك على شعر البحتري ؛ إذ يقول صاحب الوساطة : «إذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء ، والبحتري في المتأخرين ، ... وعليك بما قاله عن عفو خاطره ، وأول فكرته»[٣] .

ولقد أحرز البحتري قصب السبق في الجانب الوجداني والأخلاقي ، وكان بذلك أنموذجًا لشاعر الأحداث الذي لم تشغله همومه الذاتية عن هموم من حوله ؛ إذ يبدو شاعرًا يعيش الحياة بمسراتها وأشجانها ، ويفتح الحزن بصيرته على كثير من حقائق النفس والأخلاق ، فيصوغها صياغة تنبض بالحرارة والصدق ، وهذا ما جعله يستحل مكانة عند الناس[٤] .

إذن فالشاعر الوجداني في التاريخ يرقب بوجدانه مجتمعًا مشدودًا بين أطراف القديم ومشارف الجديد ، وهو إلى جانب هذا يشعر شعورًا عامًا بما تنطوي عليه نفسه وبما يجذبه نحو الماضي ، يرويه في نظرة طماعة إلى مس شغاف القلوب والرغبة إلى المثل الأعلى[٥] .

وهو بهذا يُمكّن القارئ من الكشف عن قناعاته ؛ إذ ما صادف قلبه وورد على لسانه بلا تكلف ولا تصنع ، داخل في دائرة الوجدان[٦] .

ولهذا يمكن أن تعد موضوعاته ذات صلة لا تنكر بذات الشاعر ، وكان لابد من الإشارة إلى الموضوعات التي تطرق إليها .

---

(١) د.عبدالله التطاوي : حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، ص٤٣١ .

(٢) انظر : عبداللطيف شرارة : أبوعبادة البحتري، دراسة ومختارات ص٥ .

(٣) علي بن عبدالعزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه، المكتبة العصرية ، صيدا-بيروت ، ص٢٤ .

(٤) د. عبدالقادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص٢٨ .

(٥) انظر : د. عبدالقادر القط ، ص١٣ .

(٦) انظر : علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، ط١٢، ١٤٠٥هـ - دار الكتاب العربي، بيروت، ص٣٢٣ .

٢ - الموضوعات الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي :

أ - الحب :

ليس من الغريب أن يلتفت الشاعر إلى نفسه ، وإلى إحساسه للتعبير عنه ، ولا الغور في وجدانه للإفصاح عن ذلك الدفين المكبوت . ولعل الجديد في شعر الحب عنده هو التوجه إلى الأحداث التي كانت الموقع الوحيد للتعبير عن موقفه ، وقد كانت الموضوع الذي استبد بأكثرية قصائده[١] .

وقد تأتي أبياته ممثلة لأخلاقه ؛ إذ يقدم فيها أزهى صور القيم ، ويضع في أولوية حساباته الارتقاء بنفسه ، ومن حوله ؛ لينبعث وهج النقاء الإنساني[٢] ، ومع هذا يؤمن بالحب ، ويثمر قلبه ؛ فقد وقفت نكبة بني مخلد حدثًا يطرق فكره ، ويدخله من باب السنة اثنين وسبعين بعد المائتين حين قبض الموفق على صاعد بن مخلد وابنيه[٣] . يقول[٤] :

لَعَمَّا لَكُمُ مِنْ عَاثِرِينَ بِنَكْبَةٍ ... بَنِي مَخْلَدٍ صَوْبَ الغَمَامِ المُطَبَّقِ!
نُحِبُّكُمُ نَفْسِي وَإِنْ كَانَ حُبُّكُمْ ... مُصِيبِي بِأَهْوَاءِ الأَعَادِي ومُوبِقِي
وَمَا عَشِقَ النَّاسُ الأَحِبَّةَ عِشْقَهُمْ ... لِكَثْرِ جَدِيدٍ مِن جَدَاكُمْ ومُخْلِقِ
فَمَنْ يَقْتَرِبْ بالغَدرِ عَهْدًا فَإِنَّنَا ... وَفَيْنَا لِنَجْرَانِيْ يَمَانٍ ومُعْرِقِ
حَبَوْنَاهُمَا الرِفْدَينِ حَتَّى تبيَّنُوا ... لَنَا الفَضْلَ مِنْ قَالَ ابْنِ عَمِّي وَمَنْطِقِي

ومن المعلوم أن التاريخ طريق ممتد لتجارب البشر أفرادًا أو أممًا ، وقد استطاع

---

(١) انظر : قريرة زرقون نصر : السابق ، ص٥٠ .

(٢) انظر : إلهام بنت عبدالعزيز الغنام: الاتجاه الوجداني في روميات أبي فراس الحمداني، رسالة ماجستير، مخطوط ١٤٢٠هـ- جامعة الملك فيصل - الأحساء، ص٢٧ .

(٣) انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٤/ ٢٤٦ .

(٤) ديوانه ٣/ ١٥٥٠ .

البحتري أن يسوق من أحداث الحياة مثلًا يحلل فيه ويقص مشاعر الحب التي تعتري المتوكل تجاه زوجه (قبيحة)[١] ، وبحيث أخرج قصته من الخصوص إلى العموم ؛ إذ هو لا يصور مشاعر المتوكل خاصة ، بل أصبحت قصة إنسانية عامة يستطيع كل فرد أن يتصور نفسه فيها أو نفس غيره إذا اتفقت الظروف ، دون التقيد بجزئيات التاريخ[٢] .

يقول[٣] :

تَعاللتِ عَنْ وصْلِ المُعَنَّى بِكِ الصَّبُّ ... وَآثَرْتِ بُعْدَ الدَارِ مِنَّا عَلَى القُرْبِ
وَحَمَّلْتِنِي ذَنْبَ الفِرَاقِ، وَإِنَّهُ ... لَذَنْبُكِ إن أنْصَفْتِ فِي الحُكْمِ لا ذَنْبِي
ووالله ما اخْتَرْتُ السُّلوَ على الهَوى ... وَلَا حُلْتُ عَمَّا تَعْهَدِينَ مِنَ الحُبِّ
وَلا ازْدَادَ إلا جِدَّةً وتَمَكُّنَا ... مَحَلُّكِ مِنْ نَفْسِي،وَحظُّكِ مِنْ قَلْبِي
فَلا تجمعي هَجْرًا وعَتْبًا، فَلَمْ أجِدْ ... جَلِيدًا عَلى هَجْرِ الأحِبَّةِ وَالعتْبِ !

ب – الشكوى :

شعره الوجداني والأخلاقي يلتقي مع الشكوى ويجعله وسيلة حتى تندمل جراحه ، وهو ينطلق من عالم الضرورة التي تدفعه إلى رصد تجاربه . فالشكوى عنده شخصيةٌ ، يخص بها رجال التاريخ الذين يجد عندهم مبتغاه ، وهو يلطف شكواه بالمدح حتى ينال عطف الآخرين ، ويختتم قصائده بالشكوى ، ومعلومٌ مدى صلتها بالتاريخ منذ العرف العربي في القدم .

يقول[٤] :

---

(١) كانت جميلة جدًا ، وسميت قبيحة حتى تبعد الحسد كعادة العرب .

(٢) انظر : د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه ، ١٩٩٨م ، د.ط ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص١٣ .

(٣) ديوانه : ١/ ١٢٩ .

(٤) ديوانه: ١/ ٤٤ .

نَفْسي تَقِيك وَوَالِدَيَ كلاهما ... وَجَمِيعَ مَنْ وَلَدَا مِنَ الأَسْواءِ
ثِقَلُ الخَراجِ عَلَيَّ دَيْنٌ مُؤْلِمٌ ... وَلَدَيْكَ مِمَّا أَشْتَكيه دَوَائِي
أَنْتَ الطَّبِيبُ لِدَاءِ جَرْحِي والذِّي ... بِدَوَائِه لَا شَكَّ أَدْفَعُ دَائِي
والوَعْدُ فيه مِنْكَ لِي مُتَقَدِّمٌ ... فَامْنُنْ عَلَيَّ بِأَن تُخِفَّ أَدَاتِي!
إِنَّ البَقِيَّةَ مِنْ خَرَاجِي قَدْرُها ... مَا إِنْ يكونَ لَدَيكَ قَدْر غَدَاءِ
فَامْنُنْ عَلَيَّ بِصَوْمِ يَوْمٍ واحد ... واجْعَلْ غَدَاءَكَ لِي ففيه غَنَائي!

جـ - الحزن :

دَبَّ في وجدان الشاعر مدى ما شعر به (الفضل بن مروان) من حزن وهَمٍّ عندما قبض المعتصم عليه ، فأراد بذلك أن يعزيه بطريقة طريفة في ميزان الوجدان[1] التاريخي تلمس الهم الذي عاشه . يقول[2] :

يا «فَضْلُ» لا تَجْزَعَنْ مِمَّا رُمِيتَ به ! ... مَنْ خَاصَمَ الدَّهرَ جَاثَاهُ على الرُّكَبِ
كم من كَرِيمٍ نَشَا في بيتِ مملكةٍ ... أتاكَ مُكْتَئِبًا بالهَمِّ والكُرَبِ ؟!
أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ إِذْلَالًا وَمَنْقَصَةً ... وخاب منك ومن ذي العرش لم يخب
ما تشتفي مُقْلَةٌ أبكيتَ نَاظِرَها ... حتى تراك على عُودٍ من الغَرَبِ

د - الفرح :

لاشك أن طبيعة الموضوعات الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي تتسم بروحها الساطعة ، الواضحة ، الاستطرادية ، وخاصة في وصف حالته الوجدانية ، وهو بهذا يقيد شعره بحدود الواقع المفهوم[3] . فمن ذلك فرحته بنجاة الفتح بن خاقان من الغرق وهي تبيان لفرح المتوكل .

---

(١) انظر : مناسبة القصيدة في هامش الديوان ١/ ٣٥٨ .

(٢) ديوانه ١/ ٣٥٨ .

(٣) انظر : إيليا حاوي : في النقد والأدب الجزء الخامس ، وما بعدها ط (١) ، ١٩٨٠م . دار الكتاب اللبناني- بيروت ، ص٩٦ وما بعدها .

مثل قوله[١] :

لتهنـــئ أمـــيرَ المـــؤمنينَ عطيـــةٌ ... مـــن الله يَزْكُـــو نيلُهـــا ويطيـــبُ!
يـــد الله في فـــتح إليـــك جميلـــة ... وإنعامُـــهُ فيـــه عليـــك عجيـــبُ
وليُّـــك دون الأوليـــاء محبـــةً ... ومـولاك، والمـولى الـصريح نـسيبُ
وعبـــدك أحظتـــه إليـــك نـــصيحةٌ ... وأرضـــاك منـــه مـــشهد ومغيـــبُ
رمتـــه صروفُ النَّائِبَـــاتِ فَأَخطَـــأَتْ ... كـذا الـدهر يخطـي مـرة ويـصيبُ
ولم أنـــسه يطفـــو ويرســـب تـــارةً ... ويظهـــر للـــرائين ثـــم يغيـــبُ
دعـا باسـمك المنـصور، والمـوج غـامرٌ ... لدعوتـــه، والمـــوت منـــه قريـــبُ
فلـولا دفـاع الله دامـت عـلى البكـا ... عيـونٌ، وجَـتْ في الغـرام قُلُـوبُ
فجـاء عـلى يـأس وقـد كـادت القـوى ... تقطـــع، والآمـــال فيـــه تخيـــبُ
فيـا فرحَـة جـاءت عـلى إثـر ترحـةٍ ... وبـشرى أتـت بعـد النَعِـيِّ تـؤوبُ
ثنـت مـن تبـاريحِ الغليـلِ ونهنهـتْ ... مـدامع مـا ترقـا لهـنَّ غُـرُوبُ

هـ - الطبيعة :

مـن العنـاصر التـي شـكلت موضـوعًا مميـزًا في شـعره : الطبيعـة ، فـالبحتري ألم بالتجارب الرومانسية ، وغلبه الانفعال على العقل ، إلا أنه لم يتخلـه ملهبًا مطلقًا[٢] .

كما أنه انجرف نحو مجرى التعبير الوجداني الـصادق للحـدث ، وجعلـه رديفًـا طبيعيًا لما تثيره في نفسه الطبيعة من نـوازع الهـروب مـن عـالم الـصخب ، رغـم أن الموقف موقفُ حرب ، ومُشَادَّة ، ونزاع بين عرب وروم ، وهو أيضًا يعيش هم ذاته المعذبة عندما ذاق لوعة الحب ، واكتوى بنارها ، فأجرى الوصف في الطبيعـة وفـق عملية التعويض المعروفة ، وهو أيضًا يوثق وجدانيًا طبيعة الحياة بطريقة مغـايرة لمـا

(١) ديوانه : ١/ ٢٠٣ .

(٢) انظر : إيليا حـاوي : الرومانـسية في الـشعر العـربي والغـربي، ط.(٢)١٩٨٣م ، دار الثقافـة، بـيروت، ص١٣١- ١٣٢ .

اعتاده الرومانسيون في العصر الحديث[١] .

ولعل الشعر عند أبي عبادة وطن له تاريخ ، وله طبيعة ، تميز حدوده على خارطة الزمن ، وتعطيه أجواء متفردة عندها للحزن عَبرة ، وللسرور عِبرة ، فهو حين يذكر تاريخ العرب وجدانيًا في أبياته تأتي كأنها اللؤلؤة في مسبحة الخرز ؛ إذ لم يكن شعر الطبيعة في عصره إلا تمثيلًا لمرحلة الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، ويمثل أيضًا استقرار هذه الحضارة وتمكنها في الحياة العربية ، لذا برز في شعره النزوع إلى كل طريف حديث ، يصور الطبيعة الحضارية بمحاسنها ومساوئها[٢] .

يقول في وصف المعركة البحرية التي قادها «أحمد بن دينار»[٣] :

ألم تر تغليس الربيع المبكر ... وما حاك من وشي الرياض المنشر
وسرعان ما ولى الشتاء، ولم يقف ... تسلل شخص الخائف المتنكر
مررنا على بطياس، وهي كأنها ... سبائب عصب، أو زرابي عبقر
كأن سقوط القطر فيها، إذا انثنى ... إليها سقوط اللؤلؤ المتحدر
وفي أرجواني من النور أحمر ... يشاب بإفرند من الروض أخضر
إذا ما الندى وافاه صبحا تمايلت ... أعاليه من در نثير وجوهر
إذا قابلته الشمس ردَّ ضياءها ... عليها صقال الأقحوان المنور

وهكذا غدا البحتري ابنًا بارًا بالطبيعة ، ترتشف من فيض محبته قصائد غنائية تجلوها السكينة والخلوة الذاتية[٤] .

وهكذا حمل البحتري صورًا للحياة التي عاش في كنفها ، وعبّر عنها بظروفها

---

(١) أ. خليل شرف الدين: البحتري بين البركة والإيوان، سلسلة الموسوعة الأدبية الميسرة(٦)، د.ط. د.ت، دار ومكتبة الهلال -بيروت ، ص٧٥.

(٢) د. أنور عليان أبوسويلم: الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ط.(١) ١٤٠٣هـ- دار العلوم- الأردن، ص٧ .

(٣) ديوانه : ٢/ ٩٨٠ .

(٤) انظر : قريرة زرقون نصر: السابق، ص٧٤ .

المستقرة ، أو المضطربة ، الهادئة أو الهائمة ، الغنية أو الفقيرة ، وانفعل بما شاهد ، وناشد في كثير مما نظم برسم طريق أمثل لبلوغ أخلاق سامية ، وينصح بما ينبغي نصحه ، ويستمد من ماضي الأمة وعظمة تاريخها وأبطالها ألوانًا حية تشع بالنخوة ، والأنفة ، والكرم ، والوفاء بالعهد ، وخوض معترك الحياة ، أذاع مكارم الأخلاق بصوتٍ عالٍ وحارب مساوئها . ولا تثريب على رجل مثله يمتلك عواطفَ تثور في أحاسيسه ووجدانه ؛ إذ إن الشاعر الحقيقي هو الذي يشعر بالأشياء التي تلمس قلوب الناس وتؤثر فيها تأثيرًا عميقًا[١] .

لذا فإن البحتري شارك أمته في همومها ، وترجم أحاسيسها ، وعلى هذا الإحساس كانت الأخلاق سلاحه في كثير مما ذكر .

وقد جاءت كلمة الخلق بمعنى : السجية ، والطبع ، والمروءة ، والدين . قال صاحب اللسان : (الخُلُق) الخليقة ، أي : الطبيعة ، وفي التنزيل : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] . والجمع أخلاق ، والخُلُق -بضم اللام وسكونها- «هو الدين ، والطبع السجية»[٣] .

ويتجلى اهتمام البحتري بجانب الأخلاق الحميدة في قراءته وربطه بتاريخ الماضين قراءة ممعنة ، وعودته بذاكرته إلى قصة وفاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وصدق الوعد ، فهو ينقد فيها محمد بن عباس ا لكلابي ؛ إذ إن العلاقة قائمة على المصلحة ، ولم يلق فيها من أخلاق الصدق والوفاء ، بل هي في ظاهرها مطل وتسويف .

يقول[٤] :

---

(١) انظر: شوقي ضيف (الشعر): مجلة الرسالة ، ع . ٣٦ . في (٢٦ ذي القعدة ١٣٥٢هـ ، ١٢ مارس ١٩٣٤م) ، ص(٤١٥) .

(٢) سورة القلم ، الآية (٤) .

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة (خ،ل،ق) .

(٤) ديوانه ٣/ ١٣٩٠.

لي سيد قد سامني الخَسْفَا ... أكدى من المعروف أم أضفى
المائةُ الدينارِ مَنسيةٌ ... في عِدَّةٍ أشبَعْتُها خُلْفَا
لا صدق إسماعيل فيها ولا ... وفاءَ إبراهيمَ إذ وَفَّى

ومفهوم الأخلاق لدى البحتري يفسر الاهتمام الكبير الذي أولاه للنواحي التاريخية في شعره ، حتى ليندر أن نقع على قصيدة دون أن تتضمن تاريخًا ، أو إشارة إلى التاريخ أو استعبارًا بأخلاق معينة .

مثل قوله[1] :

أإبراهيمُ: دعوةَ مستعيد ... لرأي منك محمود فقيد
وفي عينيك ترجمة أراها ... تدل على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين فيها ... غدت، وكأنها زبر الحديد
ومالي قوة تنهاك عني ... ولا آوي إلى ركن شديد
ظلمت أخًا لو التمس انتصارًا ... غزاك من القوافي في جنود
وقد عاقدتني بخلاف هذا ... وقال الله: أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ !

وقد اقترن التاريخ في شعره بالمكان ، فهو يقرن اهتمامه بالتاريخ بخدمته مع قومه خدمة تنبع عن ولائهم لدولة بني العباس ، وللأرض التي أنجبت منهم الوليد ، والناشئ ، والشباب ، والشيخ ، والكهل ، واحتلوا السيادة برجاحة عقولهم وفعالهم الحميدة .

يقول[2] :

إن قومي قوم الشريف قديمًا ... وحديثًا: أبوة وجدودا
وإذا ما عددت «يحيى» و«عمرًا» ... و«أبانا» و «عامرًا» و«الوليدا»
و«عبيدًا» و «مسهرًا» و«جديًا» ... و«تدولًا» و«بحترًا»و«عتودًا»
لم أدع من مناقب المجد ما يقـ ... ـنع من هم أن يكون مجيدًا

---

(١) ديوانه ١/ ٥٧٦ وما بعدها .

(٢) ديوانه: ١/ ٥٩١ وما بعدها .

نزلـوا كاهـل الحجـاز فأضـحى ... لهـم سـاكنوه طُـرًّا عبيـدا
منـزلًا قـاربوا عليـه العمالي ... ق،وعـادًا في عزِّهـا وثمـودا
فـإذا قـوت وائـلٍ وتمـيم ... كـان إذ كـان حـنظلًا وهبيـدا
ظـلَّ ولـدانـنا يُغـادون نخـلًا ... مؤتيًـا أكلـه وطلعًـا نـضيدا
بلـدٌ ينبـت المعـالي فـما يتـ ... ـغـر الطفـل فيـه حتـى يـسودا
فـإذا المخـلُ جاء،جـاءوا سـيولًا ... وإذا النقـع ثـار، ثـاروا أسـودا
سـائلِ الـدهر مـذ عرفنـاه هـل يعـ ... ـرفُ منَّـا إلا الفعـال الحميـدا؟
قـد لعمـري سُـدناه كهـلًا وشـيخًا ... وشـبيًا وناشـئًا ووليـدا

والجانب الأخلاقي في شعره التاريخي يتمحور حول :

ضرب منه اجتمع عليه أكثر الشعراء منذ عصور سابقة إلى عصره ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كالكرم ، والشجاعة ، والعدالة ، والصبر ، والحلم ، والوفاء بالعهد .

وآخر اكتسب وجوده من مفاهيم الحياة الحضارية الجديدة ، المنعقدة على المعادلة الصعبة في هذه الحياة (أعطني تأخذ مني) أو (أعطني وإن لم يكن ذلك فلا عطاء) ، وهكذا تجد الشاعر أخذ يعبر عن هذا المنحى تعبيرًا ينساق ومتطلبات الحياة الجديدة .

يقول الشاعر[1] :

أبا الفتح قـد وجَّهتُ روحي ومُهجتي ... إليـكَ وجـسمي وحـدهُ متخلِّـفُ
وفيـك بحمـد الله مـا بلـغ الغنـى ... وآمـن مـا أخـشى ومـا أتخـوف
وأكثـر مـا يهـدى خفيـا مـسترًا ... كثـير التجنـي والتعتـب مـسرف!
فعـج بـوادٍ حـسب مـا كنـت واثقًـا ... ولا تـك وقافـا كمـن لـيس يعـرف

ثم إن الشاعر يقف عند أخلاق المتوكل ، فوجه اللقاء بين شعره والأخلاق هو

(١) ديوانه ٣/ ١٤٣٠ .

اتحادهما في الغاية ، التي لأجلها أشاد بها ؛ إذ إن طريقة توثيقه لحدث خروج المتوكل من دمشق يحتم عليه الوقوف على أخلاق الخليفة . قائلًا[١] :

قد جعل الله إلى جعفر ... صيانة الدين وقمع النفاق
طاعته فرض، وعصيانه ... من أعظم الكفر وأعلى الشقاق
من لم يبحك النصح من قلبه ... فما له في دينه من خلاق
فاسلم لنا: يسلم لنا عزنا ... وابق فإن الخير ما عشت باق
إن دمشقًا أصبحت جنة ... مخضرةً الروض عذاة البراق

«فالأخلاق مقياس ومعيار ، والشعر عاطفة وتخييل ، وهدف الشعر الإمتاع ، وهدف الأخلاق التهذيب ، ومع ذلك يلتقيان في الغاية النهائية ، وهي مدح الفضيلة وتمجيدها ، وذمّ الرذيلة وتحقيرها»[٢] .

وقد يمثل مفهوم القيم الخلقية في شعر أبي عبادة الجذر الثابت لما كان عليه العرب قبل البعثة المحمدية من أخلاق ، ولما دعا الإسلام إلى تأصيلها في النفس ، فانبثقت في قصائده بشكلٍ أو بآخر[٣] .

يقول في مدح الفتح بن خاقان[٤] :

لقد جشَّمَ الفتح بن خاقان خطة ... من المجدِ ما يسطيعها المتجشمُ
متى تلقه تلقَ المكارم والندى ... وبعضهم في الفرط والحين يكرمُ
وما هذه الأخلاق إلا مواهب ... وإلا حظوظٌ في الرجال تقسمُ
تحمل أعباء المعالي بأسْرِهَا ... إذا بسط منها مغرمٌ عادَ مغرمُ

وهو في كثير مما ينظم يكشف عن مكانة الجوانب الأخلاقية الإسلامية ، فمدحه

---

(١) ديوانه : ٣/ ١٥١٠ .

(٢) محمد شحاته: مفهوم الأخلاق في الشعر العربي في العصر العباسي، إشراف: أ.د. محمود زيني. رسالة ماجستير .مخطوط. جامعة أم القرى، ص١ .

(٣) انظر المحاضر: أشرف محمد علام: القيم الخلقية الإسلامية في الشعر العباسي، مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي . العدد: الثامن. محرم . ١٤١٣هـ ص١٠٢.

(٤) ديوانه : ٣/ ١٩٢٤ .

لأي شخصية من الشخصيات يظهر فيه أن لهذه الجوانب القوى المسيطرة والدور المهم في مواجهة المفاهيم الفاسدة في عصره .

وقد اهتم بجانب السداد في الرأي ، والمضي في الأمر .

يقول[١] :

حسام أمير المؤمنين الذي به ... يعالج أدواء الأعادي فتحسمُ
وما هزه إلا تقرر عنده ... قرار اليقين: أي سيفيه أصرم
أمدُّ الرجال لبثة حين يرتأي ... وأسرعهم إمضاءة حين يعزم
مدبر ملك أي رأييه صارعوا ... به الخطب رد الخطب يدمي ويكلم
وظلام أعداءٍ إذا بدئ اعتدى ... بموجزة يرفضُّ من وقعها الدَّمُ
ولو بلغ الجاني أقاصي حلمه ... لأعقب بعد الحلم منه التحلمُ

وتشمل القيم الخلقية في شعره بشكلٍ واضح في المضامين التي فيها دعوة للبذل والعطاء والحلم والتحلم ، والنظرة الناقدة القائمة في صميمها على ترقب الفرصة للعودة بهم إلى جادة الصواب .

وهذا ظاهرٌ في قوله[٢] :

أَرَى المَكرُمَاتِ استُهْلِكَتْ في مَعَاشِر ... وبَادَت كما بَادَتْ جَديسٌ وجُرْهُمُ
أَرَاحُوا مَطَايَاهُم فَلا الحَمدُ يَبتَغِي ... ولا المجدُ يُستَبقَى، ولا المالُ يهضمُ
وما البذلُ بالشيء الذي يستطيعَهُ ... من القوم إلا الأروع المُتَهَجِّمُ

ثم إنه يربط التاريخ الأخلاقي بالحس النقدي الذي ينبع من تأمله لكثيرٍ من القضايا التي يعيش فيها مجتمعه . قائلاً[٣]:

يا ضيعة العلم كيف يرزقه ... ذوالخرق منكم والعجب الصَّلَفِ
تقودها ضلة إلى ملك ... يَروقها بالقُوام والهَيَفِ

---

(١) ديوانه : ٣/ ١٩٢٥ .

(٢) ديوانه : ٣/ ١٩٢٦ .

(٣) ديوانه : ٣/ ١٤٠٨ .

وكأن الشاعر لا يتوانى عن إبراز الصورة الأخلاقية لخلق الأمير ، وقد أقام دستوره على أساس من الصفات المتأصلة في نفس أي عربي ، من ذلك مديحه لـ(محمد بن صفوان العقيلي) حيث يظهر بالشخصية عز الإسلام ، وقهر لأعداء الإسلام ، وهو بهذا يدعم المنهج الإسلامي ، وقيمه الرفيعة ، ويحث على الدفاع عن حمى الإسلام .

يقول[1] :

لولا الأميرُ ابن صفوانٍ وأنعُمَه ... مالان مالان من أيامنا وصفا

ماضي الحسام إذا حد الحسام نبا ... ثبت الجنان إذا قلب الجبان هفا

سائل سُلَيمًا به إذ ماق جاهلها ... حينًا، فأدركه مكروه ما اقترفا

من حينهم أن غلوا بغيًا، فغادرهم ... فرط الغلو لأطراف القنا هدفا

أتوك يزجيهم للحين جاهلهم ... مستقدما بهم للبغي مزدلفا

أبوك أطفأ نار الحرب إذ كشرت ... شنعاء مذروية أنيابها غضفا

عم الجزيرة عدلًا شائعًا، وندى ... غمرًا، أماطا ظلام الظلم فانكشفا

فأصبحت بعد أن غاضت بشاشتها ... بِعَدْلِهِ ونَدَاهُ روضةً أنفا

يا ناصر الدين كافا الله سعيك عن ... معاشرٍ شارفوا أن ينفذوا تلفا

أطفأت نار العدى عنهم وقد ذكوت ... وذدت ناب الردى عنهم وقد صرفا

ولعل حديثه عن الجانب الأخلاقي يرجع إلى الوقت الذي استطاع فيه الإنسان أن يعي الحوادث ، ويلاحظ السلوك ، ويدرك الصلة بين الشيء وسببه ، ومن ذلك الوقت أخذ يفضي بتجاربه ، ويرسلها فيمن حوله نصائح وحكمًا تتوارثها الأجيال بالرواية والتعليق ، فهو يمتدح الفضيلة ويحض عليها ، ويذم الرذيلة وينفر منها ، وجاءت حكمه الأخلاقية في هذا النطاق يسيرة ، قوامها النظرة القريبة ، والتجربة السهلة[2] .

---

(١) ديوانه : ٣/ ١٤٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر : علي النجدي ناصف : الدين والأخلاق في شعر شوقي ، ط(٢) ، ١٩٦٤م . نهضة مصر

يقول[1] مادحًا أبا صالح بن يزداد :

يفنُّـدونَ ، وهـمْ أدنَـى إلى الفَنَـدِ ... ويُرشِدُونَ، وما التعذالُ من رَشَـدِي
وكيف يُصغي إليهم أو يُصِيخُ لهمْ ... مُستغلِقُ القَلبِ فيهم راهنُ الكَبِدِ؟
تنصَّبَ البرقُ مختالًا فقلتُ له: ... لو جُدتَ جُودَ «بني يزدادَ» لم تَزِدِ!
الجاعلين على علّاتِ دَهرِهم ... كرائم المالِ في الإنعَام والصَّفَدِ
فاسلم « أبا صالح » للمكرمات فقد ... أحييتها وهي من موتٍ على صدد

=

القاهرة ، ص٢٥٤ .

(١) ديوانه ٢/ ٦٥٨ .

### ٣ - الملامح الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي :

يصعب على النفس البشرية ألا تتفاعل مع أي موقف من مواقف حياتها اليومية ، خاصة إن كان له علاقة بمن حولها ، ناهيك عن انفعالها عندما يكون شاعرًا ، فالشاعر لا يقدم تاريخًا محققًا ، وإنما يعيد إنتاجه وفق مكنوناته الخاصة[١] ، وقد برقت ملامح خاصة بالأحداث تمت للوجدان والأخلاق في شعر شاعرنا برابطة ، وقد كان من أبرز هذه الملامح ما يأتي :

#### أ - الإبدال : (الاستبدال) :

إبدال المعيار التاريخي والوظيفة الشعرية في آن ، فالشاعر تحت وطأة الظروف السياسية تبنى فكرة التاريخ ، واعتنى بها ، وشرحها إلى أن تم له ذلك ، ثم غلفها بصياغة شعرية ، بدت وظيفة الشعر مختلفة تبعًا لذلك ، وهو إبدال منشبك بما أشاعته الثورات الخارجية والداخلية على السواء ، بل إن هذه العملية المعقدة بمناخ جديد ، جعلت من السمة الوجدانية والأخلاقية في شعره صورة للظاهرة التاريخية[٢] . وفي هذا أحلَّ أصولًا تاريخية محل أصول فنية ، وهو لكي يتحرر مما أوجبه على نفسه بدت الأحداث عنده وكأنها دوي رياح ، أوقصف رعد ، ولا مناص حينها من أن يضبط ما استقرت عليه نفسه في صورة قصائد وثائقية .

ولا شك أن القصائد التي تندرج تحت هذا الملمح كثيرة جدًا ، يصعب على الباحثة استيفاؤها جميعًا ، لكن سأورد بعض منها يكون دليلًا على ماذكر .

فقد تمازجت الوقائع بوجدان الشاعر ، واستطاع أن يبني منها شعرًا ، يستعين به

---

(١) أ.د. عمر عبدالواحد: التاريخ المؤول وجدل الأنا والآخر في القصيدة العربية ، دراستان، د.ط ، د.ت ، دار قرحة للنشر والتوزيع ، ص٥ .

(٢) انظر: قريرة زرقون نصر : السابق ، ص٤٤ وما بعدها .

لإبدال عهد التراخي والانحطاط ، والإذعان لعوامل الاندراس ، بقيمٍ يعمّ نفعها ، ففي ظل العوامل التي اجتاحت عصره حاول أن يقيم علاقة تبدل الجدل العقيم ، الذي يظهر في جوانب من علاقات الأخ مع أخيه ، والعشيرة فيما بينها ، بشعر يشد من مأزره أواصر القربة والمودة ، وكان له ألا يغفل لحظة عن حوداث عصره وأحداثه ، وقد بعثها من وجدان ، ومن مسوغ أخلاقي ، غاص في بحرها والتقط[١] .

يقول في قصيدة يمدح فيها المتوكل ، ويذكر صلح بني تغلب والصفح عن ربيعة[٢] :

أسيتُ لأخوَالِي ربيعةَ إذْ عَفَتْ ... مصانعها منها وأقوت ربوعها
بِكَرْهِي أنْ بَاتَتْ خَلاءً دِيَارَهَا ... ووحشا مغانيها وشتّى جميعها
وأمستْ تُسَاقي الموت من بعدِمَا غَدَتْ ... شروبا تساقي الراح رفها شروعها
إذا افترقوا من وقعة جمعتهم ... لأخرى دماء ما يطل نجيعها
إذا احتربتْ يومًا ففاضت دماؤُها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجرُ أرماح تقطَّعُ بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطُوعُهَا
ولا عذر إلا أنَّ حِلْمَ حَليمِهَا ... تَسَفَّه في شرِّ جَنَاهُ خَلِيْعُهَا

وقد تناول نفس الموضوع (حرب العشيرة) في قصيدة تنبض بأثر هذه الوقائع في وجدانه . فيقول مخاطبًا (الهيثم بن هارون بن معمر الغنوي)[٣] :

أما لربيعة الفرس انتهاء ... عن الزلزالِ فيها والحُروبِ
وكانوا رقعوا أيام سلم ... على تلك القوادح والندوبِ
إذا ما الجرح رُمّ على فساد ... تبين فيه تفريط الطبيبِ

---

(١) محمد خورشيد : أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ ، ط(١) ، مطبعة بيت المقدس . نابلس – فلسطين ، ص١٠٩ .

(٢) ديوانه : ٢/١٢٩٨ وما بعدها .

(٣) ديوانه ١/٩٩ وما بعدها .

فمن يسمع وغَى الأخوين يذعرْ ... بصك من قراعهما عجيبِ
زعيما خطةٍ وردا حمامًا ... ورودهما جبا الماء الشروبِ
فهل لبني عدي من رشيد ... يَرُدُّ شريدَ حلمهما العزيبِ
أخاف عليهما إمرارَ مَرعَى ... مِن الكَلأ الذي علقاه مُوبِي
متى أحرَزْتَ نصرَ بني عبيد ... إلى إخلاصِ ودِّ بَنِي حَبيبِ
فقد أصبحتُ أغلبَ تَغْلِبي ... على أيدِي العشيرةِ والقلوبِ

ولا غرو أن الشاعر عاش في قلب الأحداث ، فشكلت لديه معضلة ، ثم إن الموقف أكبر مما تصوره ، وهو لا يملك بعد أن أصيب بنتوءات في شرايينه أن يذعر حين يسمع ضوضاء الأخوين المقتتلين ، والحيين المتنازعين ، وترتاع عينه حين يرى صورة اشتباك الفرس والروم على حائط الإيوان[1] .

ويقول[2] :

وإذا ما رأيت صورة أنطا ... كيَّة ارتعْتُ بَينَ روم وفُرْسِ

وقد ظهر لي من خلال دراسة هذا الضرب من الملامح الوجدانية والأخلاقية أنَّ كثيرًا منه هيأ الشاعر لإعداد شعر مليء بتجارب الحياة ، وتبدو هذه الصورة أكثر وضوحًا ، وأقرب إلى الإقناع عند تَتَبُّعي لما أبدلته الخطوب على البحتري ، وانعكس ذلك على شعره ؛ إذ يقول ضمن قصيدة يمدح فيها (أبا الصقر إسماعيل ابن بلبل)[3] :

تأملتُ أشخاصَ الخطوب فلم أُرَعْ ... بأفظعَ من فقدِ الأليفِ وأسمجِ
ومِنْ عادَتي والعجز من غير عَادَتي ... متى لا أرُحْ عن حضرةِ الذُّلِّ أدلِجِ
فلولا الأميرُ ابنُ الأمير ووعدُهُ ... لقلَّ على أهل العراق مُعَرَّجِي

---

(١) انظر : محمد صبري : السابق ، ص١٥٧ .

(٢) ديوانه : ٢/١١٥٦ .

(٣) ديوانه : ١/ ٤١٥ وما بعدها .

عتـادي الـذي آوي إليـه، وعُـدَّتي ... لما أخشَى من صرف دهْرِي وأرتجي
سيثلج صدري اليأس، واليأس مَنْهَلٌ ... متـى تَغْتَرِفْ مِنْـهُ الجَـوَانِحُ تُـثْلِج
قَنِعْـتُ عـلى كُـرهٍ، وطأطـأتُ نـاظِري ... إلى رنق مطروقٍ من العيش حشْرَجِ
ولجلجتُ في قـولي، وكنـتُ متـى أقـلْ ... بمُـسْمِعَةٍ في مجمَـع لا أُجَلْجِ
يظـنُّ العِـدَى أنِّي فنيـتُ، وإنَّـما ... هي السُّنُّ في بُرْدٍ مِـنَ الشَّيْبِ مُنْهَج

ولا شكَّ أن الحياة اليومية تتيح للإنسان فيضًا من التجارب الحكمية التي تتوهج منها ملامح أخلاقية . والشاعر واحدٌ من أولئك الذين كشف لنا شعره عن ذات حذرة في كل حالاتها ، إذ أبدلت أخلاق القوم أخلاقه ، وجعلته وسمة ذل لهم ، ولم تكن هذه شيمته لكن إساءتهم جعلته ليثًا لبيبًا .

يقول[1] :

عجبًـا لأقـوام وصَـلْتُ حِبَـالَهُم ... ورعيـتُ غَيبَـتَهُم بكـلِّ مَـشَاهِد!
وسـترتُ عيـبَهُم وكنـتُ مُجاهِـدًا ... مَـنْ رَامَ نَقْـصَهُم بكـلِّ تجاهُـدِ
فرأيـتُ غِـشَّ صُـدُورِهِم بعُيُـونِهِم ... والعـين في الحـالاتِ أعـدَلُ شَـاهِد
فَعَرَفْـتُ ذاكَ ، ولم أدعْ إذْنَـاءَهُم ... والحلـمُ بـينَ أقَـارِبٍ وأبَاعِـدِ
حَتَّـى سَـمِعْتُ عـن الـضَّغَائِن قَـوْلَهُم ... وَفِعَـالَهُم، فِعْـلَ الظَّلُـومِ الحَاسِـدِ
فَلَزِمْـتُ نَفْـسِي لا أُكَـشِّفُ غَيْـبَهُم ... وكففتُ عنهم ناصِحِي ومُعَاضِـدِي
فـرأوا جميـلَ العَفـو ضَـعْفًا بعـدَمَا ... كَفَـرُوا جميـلَ الطَّـولِ كُفْـرَ الجَاحِـدِ
فهنـاكَ أمـضَيْتُ الهَـوَانَ مُـشَمِّرًا ... فـيهم، ولم أكْـذِبْ بقـولٍ زائـدِ
فوسـمتُ أوْجُهَهُـم سـماتٍ ذُلَّلَـتْ ... أعنـاقهم للخلـق بعـد قَلائِـد
كـلٌّ يَـوَدُّ لي الـرَّدَى لَـو نَالَـهُ ... بـالأمْ يَفْقِـدُ شَخْـصَهَا والوَالِـدِ
والله أنـصَرُ للمُـسَالِمِ ذي الحِجَـى ... واللهُ أخـذَلُ للمُـسِيءِ العَانِـدِ
قد قلتُ، لَـو قِيلَ المَقَـالُ: ألا احـذَرُوا ... ليثًـا يُقَضْقِـضُكُم بأعْبَـل سَـاعِد!

(١) ديوانه: ٢/ ٨٣٠ وما بعدها .

إنْ كنتَ تُنكِرُ مَا أَقُولُ فَجَارِهِم ... تعرفْ خَزَايَتَهُم بيومٍ وَاحِدِ

ويقول مادحًا (أبا أيوب) (سليمان بن وهب) مستبدلًا من حادثة حبس الموفق له ولابنه في رؤية وجدانية تفيض فيها معاني الأخلاق السامية ؛ إذ يذكر هذه الحادثة بطريقة تلمس حس ابن وهب وما آل إليه حاله .

يقول[1] :

نحن الفداء فمأخوذٌ ومُرْتَقِبُ ... ينوبُ عنكَ إذا همَّتْ بكَ النُّوَبُ
قد قابلتك سعودُ العيش ضَاحِكَةً ... وواصلتْكَ، وكانتْ أمس تَجْتَنِبُ
ونعمةٌ مِن أَمِينِ الله ضافيةٌ ... عليك في رتبةٍ من دونها الرُّتَبُ
تملَّها يا «أبا أيوبَ» إنَّ لها ... عِزَّ الحياةِ، وفيها الرغْبُ والرَّهَبُ
كمْ مِنْ رَجَاءٍ غَدَاةَ اقْتَدْتَ جِرْيَتَهَا ... قد شد فيها إليك الدلو والكَرَبُ
مَا لليالي، أراها ليس تجمعُها ... حالٌ ،ويجمعها من جِذْمِهَا نَسَبُ
ونعذلُ الدهرَ أن وافَى بناتبةٍ ... وليس للدَّهْرِ فيما نَابَنَا أَرَبُ
الحمدُ لله حمدًا تم واجِبُهُ ... ونشكُرُ الله شكرًا مِثْلَ ما يَجِبُ
أرضى الزمانُ نُفُوسًا طالما سَخِطَتْ ... وأعتَبَ الدهرُ قومًا طالَ مَا عتبوا
وأكسفَ الله بالَ الكَاشِحِينَ على ... وعدٍ، وأبطلَ ما قَالُوا وما كَذَبُوا
لِتَهنكَ النعمةُ المخضرُّ جانِبُهَا ... من بعدِ ما اصفرَّ في أرجائِها العُشُبُ!
فمن دموعِ عيونٍ قلَّما دمَعَتْ ... ومن وجيبِ قلوبٍ قلَّما نَجِبُ
عافوكَ خَصَّكَ مكروهٌ فعمَّهُمُ ... ثُمَّ انجَلَى فتجلَّتْ أوْجُهٌ شُحُبُ

ولعل ما يواجه الباحثة وهي تدرس سمة الاستبدال في شعره هو أن الكيفية التي بنى عليها الرجل قصائده تنظر إلى الشعر نظرة ثنائية ، تندمج اندماجًا كليًا مع ما كرس نظره إليه من أحداث ، وعلى الرغم من أن استبصاره الوجداني والأخلاقي

---

(١) ديوانه: ٢/ ١٦٩ .

يقود إلى حقائق ثابتة ، إلا أنها وقفات عابرة لا تلامس سوى السطح في أحيان[١] .

ولعلي لا أبالغ أيضًا إن قلت : إن الشاعر استبدل قوة التاريخ بقوة الشاعرية المتسيدة في مرحلة مضطربة ، فالخطوة التعويضية المنبثقة من قوة الشاعرية تحاول أن تلغي منطق الغش ، والظلم ، وإراقة الدماء ، التي تغلب القيد على الحرية ، والبغض على الحب . وتؤصل القيم التي تثلج صدر العرب .

ب - الاختزال :

هذه الأحداث اختزلها الرجل في معطيات تعتكف فيها المعاني الوجدانية والقيم الإنسانية ، التي تبعث على ترك خُلُق وتقبيحه ، في مقابل الانجذاب إلى خُلُق والعمل على نشره ؛ إذ انطلقت هذه النظرة من نفس تلامس الهموم والخصوصيات الفردية ، وتؤمن بمبادئها .

فقد انبثق من ديوانه كبريات حوادث عصره ، وماله مساس بنفوس أهلها ، وعني عناية خاصة باختزال الثورات ، ولطالما رددها عبرة بما آلت إليه من حال ، كل ذلك تغنى به ، وندبه بنفس طويل ، وإبداع غير قليل ، وهو يعالج الهموم الذاتية التي أعاقت من حوله عن الرقي الخلقي والفكري فتسبب ذلك في ، شلل وجداني ، وقد أخذ منها ما أخذ ، وترك لغيره ما وراءها ، علمًا منه بأن الشعر شعر مهما حمل من الحقائق ، ويغتفر للشاعر مالا يغتفر للناقد والمؤرخ[٢] .

يقول في ضرب (صالح بن وصيف) لـ(أحمد بن إسرائيل) و(أبي نوح)[٣] :

نهيتكم عن صالحٍ فأبى بكم ... لَجَاجَكُم إلا اغترارًا بـ«صالحِ»

وحذَّرتُكُم أن تركبوا الغيَّ صَادرًا ... فيطرَحكُم في مُوبقَاتِ المطَارحِ

(١) انظر : د . عبدالكريم راضي جعفر : رماد الشعر ، دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق . ط.١ ، ١٩٩٨م بغداد . ص٨ .

(٢) انظر : محمد خورشيد : السابق ، ص١٥٥ .

(٣) ديوانه : ١/٤٦٦ .

وماذا نقمْتم منه لولا اعتسافكم ... وتلجيجُكُم في مظلم اللجِّ طَافِحِ
نصيحُ أميرَ المؤمنينَ وسيفه ... وما مضمرٌ غشًّا كآخَر ناصِحِ
تكشَّفَ عن أسراره وعيوبه ... تكشُّفَ نجم في الدُّجُنَّة لائِحِ
وكانتْ لكم مندوحةٌ عن عِنَادِهِ ... لو أنكم اخترتُم عفيَّ المنادِحِ
فقد ظهرتْ أموالُكُم بعد سَترِهَا ... وبعد تخفِّيهَا ظهورِ الفَضَائِحِ
ذخائرُ ديدَ الحقُّ عنها وأزعجتْ ... عليها مغاليقُ الصدورِ الشحائحِ
يدفع عن الحاجات حتى كأنما ... سُئلتُم أناسيَّ الحداقِ اللوامحِ
ويُعدِ عن المعروف حتى كأنكُم ... ترون به سُقْمَ النفوسِ الصَّحائحِ
ومن غابَ عن يوم الموالي ويومِكُم ... فقد غابَ عن يومٍ عظيم الجوانحِ
غداة، وغدوتُم، والسرادقُ موعِدٌ ... لخصمين: ثبتٍ عن قليلٍ، وطائحِ
تقطَّعت الأسبابُ بالقوم وانتهوا ... إلى حدثٍ من نبوةِ الدهر فادحِ
إذا أنت لم تضرب عن الحقد لم تفُزْ ... بذكرٍ ولم تسعدْ بتقريظ مادحِ
ولن يرتجى في مالكٍ غير مسجحٍ ... فلاحٌ ولا في قادرٍ غير صافحِ

آثر البحتري بعد هذه الأحداث الإفصاح عما اختزن من ذاكرته ، فأخذ يتذكر عوامل الانقسام والفناء التي دبت في قومه منذ القدم[1] . وفي هذا يقول[2] :

أقصر فإنَّ الدَّهر ليس بمُقْصِر ... حتى يلفَّ مقدمًا بمؤخرِ
أودى بلقمان بن عاد بعدما ... أودتْ شبيبتَه بسبعة أنسرِ
وتناول الضحاك من خَلْفِ القَنَا ... والمشرفية والعديد الأكثرِ
وجذيمة الوضَّاحَ عطَّل تاجه ... منه وأتبع تبعًا بالمنذرِ
وإذا ذكرت بني عبيد عبَّدوا ... حُرَّ الدموع للوعة المتذكرِ
أكلتهم نوب الزمان وفلَّلت ... من حدِّ شَوْكَتِهِم صروف الأدهرِ

(١) انظر : محمد صبري: السابق ، ص١٧ .

(٢) ديوانه : ٢/١٠٢٩ وما بعدها .

مـــن بعـــدما كـــانوا ذؤابـــة طيـــع ... عـــددا غـــدوا وهـــم أهلـــة بحـــترِ
وأرى الـــضغائنَ لـــيس تخبـــو مـــنهم ... في معـــشرٍ إلا ذَكَـــتْ في معـــشرِ
مهـــلًا بنـــي شـــملال إن ورودكـــم ... حوضُ التقاطع غير سـهلِ المـصدرِ
مـــا بـــالكم تتقـــاذفون بـــأعينٍ ... في لحظهـــا جمـــرُ الغـــضَا المتـــسعِّر
وتـذكروا حـرب الفـساد ومـا مـرت ... للآبـرهين مـن الأجـاج الأكـدرِ
ومـن العجائـب أن غـل صـدوركم ... لم يطـفُ للحـدث الجليـل الأكـبرِ
لمـــصيبة بـــأبي عبيـــد أردفـــت ... بـــأبي حُمَيْـــدٍ بعـــده ومبـــشرِ
وأرى شـــميلًا للفنـــاء وبارعًـــا ... يتـــأودان ومـــن يُعمَّـــر يكـــبرِ
مـــن غائـــبٍ عـــما عنـــاكم لم يغـــبْ ... درْكُ العيـــون وحـــاضرٌ لم يحـــضرِ
أو مـــا تـــرون الـــشامتين أمـــامكم ... ووراءكـــم مـــن مـــضمر أو مظهـــرِ
عـن غـير ذنـب جتتمـوه سـوى عُـلًا ... زهـــر لجـــدكم الأغـــر الأزهـــرِ
وكـــأنما شرف الـــشريف إذا انتمـــى ... جـرمٌ جَنَـاهُ عـلى الوضـيعِ الأصـغرِ

ولقد أحاط كثيرًا من قصائده بسياج أخلاقي ، يـدعو فيـه إلى شـموليتها في كـل مجالات الحياة ؛ إذ لولا الأخلاق لضاع مفهوم الإنسانية مـن الوجـود تمامًـا ، فقـد خلف ميراثًا من المواقف في حياة النـاس ، وظهـر جليًـا في ذاتـه الـصافية ، الهاديـة للخير والتصالح[1] .

ففي قصيدة اهتز فيها وجدانه عقب حوادث طاحنة ، اختفت فيهـا الإنـسانية ، وتضاءل فيها الفكر ؛ يقول[2] :

---

(١) انظر : عبدالحميد بوزوينة : السابق ، القسم الأول ، ص١٨٨ .

(٢) ديوانه ٣/ ١٣٥٣ .

أرى النَّـاسَ صِـنفَي رفعـةٍ ودَنَـاءَةٍ ... طعـامهم صـنفٌ وأعيـانهم صِـنْفُ
لقـد شَرَّدَ الأعـراب كـل مُـشَرَّدٍ ... تـسوَّق غـادٍ في سـياقته عـسف
زحـوفٌ إذا مـا معـشرٌ زاغَ رأيُهـم ... فلم يستقيموا سار تلقاءهم زحفُ
رأتْ رُشـدَهَا عِجْـلٌ فثابـتْ حُلُومُهـا ... ولم يعش منها عـن مراشـدها طـرفُ
كـأنَّ الـوديعَّينِ ليلـةَ جئـتُهم ... هوى بهم في غمـر مَسْجُورة جُـرفُ
مَضَوا بين أضعافِ الخُطوبِ كما مضتْ ... جَـدِيسٌ وبانـت عـن منازلهـا هـفُ
ولا لابـن سـيار مـن الأمـر بعـدها ... خيارٌ إذا اختَـار القـسيمُ ولا نـصفُ
فأضـحوا وكـانوا لا ينهْنـه شـعبهم ... إذا قيـل:كُفُـوا عـن تخمطكـم كفـوا

«فالبحتري حين يذكر العرب وتنازعهم ، وتقلص عزهم ، يحنو عليهم ويتوجع لهم ، فهم أبناء خؤولته والأقربون... ولقد تكشف فؤاده لهم عن ألوان من الرقـة ، كما يتكشف الصبح عن عوالم من الصور والحقائق الباهرة»[1] .

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ملمح من الملامح التي تنبئ عن خلق مـن حوله ؛ ذلك لأنه أفضى بنفسه وخواطرها ، وبفكره ، فتوفر فيه حافز مثير يدفعه إلى التوقف والتأمل في طريقة التعامل اليومية ألا وهـي التجربـة الـشعرية ، التـي قيـل عنها «ليس بالضرورة أن يكون ممن عانى التجربة بنفسه ، بـل يكفـي أن يكـون قـد لاحظها بنفسه حتى يصفها ، وعرف بفكره عناصرها ، وآمن بها ، ودبـت في نفـسه حياها»[2] .

فما بالك برجل عاش التجربة وعاناهـا ، فـشغف بأهـل الكـرم والهمـة ، وكـره أراذل الأخلاق .

يقول[3] :

---

(١) د.محمد صبري : أبوعبادة البحتري . درس وتحليل ، د.ط ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٦م ، ص١٦٢ .

(٢) د.محمد غنيمي هلال : السابق ، ص٣٨٦ .

(٣) ديوانه : ٤/ ٢٣٠٤ .

تغـــاضى رجـــالٌ عـــن المكرمـــات وقـــد مَثَّلَـــت نـــصب أعيانهـــا
ولم تلتفـــتْ لوجـــوب الحقـــو ق ، وواجِبُهـــا خَلْـــفَ آذَانِهَـــا

وكما في قوله[1] :

عـزَّى عـن الحـظ أن العجـز يدركـه وهون العسر علمي في من اليُسُر
لم يبـقَ مـن جـل هـذا النـاس باقيـة ينالُهـا الـوهم إلا هـذه الـصور:
بخلٌ، وجهـلٌ، وحـسبُ المـرءِ واحـدةٌ مـن تـين، حتـى يعفـى خلفـه الأثـر
إذا محاســـني الـــلاتي أدلَّ بهـــا كانت ذُنُوبي، فقل لي كيف أعتذرُ؟!

ويقول[2] :

خلـــق اللهُ يـــا محمـــدُ أخلاقـــ ـــك مجـــدًا في طـــيء وســـناءَ
فـــإذا مَـــا ريـــاحُ جـــودِكَ هبَّـــت صَـــارَ قـــولُ العـــذال فيـــه هبـــاءَ

ويقول[3] :

وأنـا الـشجاع وقـد بـدا لـك مـوقفي بـــ«عقـرقس» والمـشرفية شـهدي

وكل ذلك نفحة من نفحات وجدانية وأخلاقية ، توزعت فيها اهتمامات الشاعر مابين حث عليها وتحسر لفقدها ، وكثيرة هي الشواهد التي في ذاكرتـه ووجدانـه ، التي لا يطيقها البحث .

## جـ - الصراع :

لقد كان الـشاعر يعـيش صراعًـا بـين منطـق الأصـل التليـد ، ومجابهـة الثقافـة الجديدة ، التي تحمل بين جوانحها منطقًا لم يألفه الشاعر ، ولم يتقيد بـه في شـعره ، فبرر ذلك بالسهولة ، واختيار العذب الرقيق الذي يـستطيع أن يجابـه بـه الجديـد ،

---

(١) ديوانه ٢/ ٩٥٤ .

(٢) ديوانه: ١/ ١٩ .

(٣) ديوانه: ١/ ٢٢٩ .

فاختار الأحداث هوية لنفسه ، صالحة لأنْ تكون قيمة لشاعريته ، يتلمسها في أحداث سبقت عصره ، وهذه بحد ذاتها حققت التوازن بين الحياة القائمة ، ومقتضى الحياة القديمة ، بما يرضي نظرة الرجل ، وكان لها مردود يتوافق وقيم الإنسان العربي ، وعاداته أخلاقيًا ودينيًا ، فارتوى من نهر التاريخ ليرى ما أصاب الحياة العربية من تبدل وانبهار ، ورغب أن يكون الشعر تعبيرًا عن النفس الإنسانية[١] ، وطالما كانت لديه هذه السمة ، وهي وصف الصراع الذي يعيشه في حياته وحياة الآخرين وطبائعهم ، فهو يبعث رسالة مؤداها أن ذاته خطوات معذبة فاقمتها الأحداث ، وظروف مزرية جعلت ضميره لم يعد يتحمل هذا الاضطهاد .

وربما يجوز لي القول إنه تعبير عن مرحلة انتقل فيها الشاعر من نمط من أنماط الحياة إلى آخر ، يختلف في توجهاته ، ويناقض المجتمع الذي عاش فيه ، ومن هنا يكون لشعره الوجداني والأخلاقي خصوصية ترتبط بالتاريخ .

وما من شك أن الواقع الذي تعايش معه ا لرجل زاخر بأنواع الصراع ، سواء كان فكريًا ، أم اجتماعيًا ، أم سياسيًا ؛ إذ نقل عقب ذلك مشاعره ، وإحساسه ، وما يكتنفها من صراع نفسي داخلي ، وصراع فكري ضمن رؤية إنسانية ذاتية يعبر عنها بمكنوناته الشعرية ، التي هي حدث وجداني ، أو عاطفي ، ينبع من نفس صاحبه ، ومن عقله ، ومن حواسه ، ومن الاستبطان النفسي الداخلي ، والخارجي الذي يرتكز عليه[٢] .

فالمعاناة النفسية حدث عاشه البحتري بكل تفاصيله ، ليرسم لنا صورة جلية ، تجسد الانفعالات على اختلاف ظروفها ، وأبعادها ، ينقل فيها تجربة ، تحمل هم الإنسان حتى تكون صادقة . ومثله ما ذكره حين حبس محمد بن يوسف الثغري ؛ يقول[٣] :

---

(١) انظر : قريرة زرقون نصر: السابق ، ص٥٣ .

(٢) أحمد الشايب . أصول النقد الأدبي . ط(٨) ، ١٩٧٣م، مكتبة النهضة المصرية : القاهرة ، ص١٣٨ .

(٣) ديوانه : ٣/ ٢٠٣١ وما بعدها .

يـا ضـيعة الـدنيا وضـيعة أهلهـا ... والمـسلمينَ، وضـيعة الإسـلام
طلبت دخول الشرك في أرض الهدى ... بـين المـداد وألـسُن الأقـلام
هـذا «ابـن يوسـفَ» في يـدي أعدائـه ... يُجـزَى عـلى الأيـام بالأيـام
نامـت بنـو العبـاس عنـه، ولم تكـن ... عنـه أميـةُ لـو رعـت بنيـام!

فهاهو يصوح أفعال مغتصبة وفعل الضياع ليس على المستوى الشخصي ، بل على جميع المستويات ، فالضياع ليس متعلقًا بالبطل محمد بن يوسف ، بل تجاوز ذلك حدود الأهل ، المسلمين ، الإسلام ، والغفلة تجوب ليل المسلمين السرمدي ، ولعل ذلك واضح في تصويره للخطب ، فالمسلمون سامدون ، تاركون أمر البطل ، ومن هنا ينحدر سؤال زمهريري من سفح الاندهاش : أيعقل أن يكون بنو العباس غفلوا عن علم من أعلام البطولة الإسلامية؟ والسؤال أيضًا ؛ هل يكتب البحتري عن أبي سعيد أو عن الدنيا التي هي في نظره في طريقها إلى الضياع ، أو أنه يكتب عن ضياع هذه وضياع ذاك؟!

ثم إنه أضاف مزية أخرى لنفسه ، يبدو لي أن أختصرها في جملة واحدة ، وهي : «أنه شاعر لا يرضى بالهوان» ، وإن صح ما أقول فإنه يرمز في خفاء لموقف المتوكل الذي تقاعس عن نصرة حامي ثغور الإسلام ، والمسلمين ، الذي وطن نفسه لحماية شريعة الله[1] .

ولا شكَّ أنَّ الانغماس في الدنيا وملذاتها معول هدم على الخليفة وقومه ، فتختلط الأمور ، وتحول الحقائق فيصبح الباطل حقًا ، والحق باطلًا ، فقد جاء في الخبر «أن أبا سعيد طولب بمال بعد غزواته المشهورة ، وسُلّم إلى أبي الخير النصراني ليستخرج المال منه ، فجعل يعذبه ، فشق ذلك على المسلمين ..»[2] .

وقد جعل من التاريخ مصدرًا مهمًا لطاقة معنوية تدفع به إلى التيقظ لما يدور حوله من صراع طبقي يستولي فيه الأغنياء ويجحفون حق الطبقة الكادحة التي

---

(١) انظر : د.نصرت عبدالرحمن : السابق ، ص١٢٦ .

(٢) أبوبكر الصولي : السابق ، ص٩٧ .

لا حول لها ولا قوة . وقد تنوعت حقائق التوثيق تبعًا لاختلاف الظروف والأحوال .

يقول[1] :

عجبٌ لظلم زماننا المتواتر ... ولأولٍ مما يُريك وآخرِ!
تالله أوخذُ بالخراج وضيعتي ... لحمٌ يطرّح في مخالب طائرِ
ويغُلُّها قومٌ وأعطى خَرْجَها! ... حكمٌ لَعَمْرِكَ- غير عدلٍ ظاهرِ
صلى الإلهُ على «سدوم»[2] فلم تكن ... في جنب قصَّتنا «سدوم» بجائرِ
أبلغْ «أبا العباس» حيث أحلَّ مِنْ ... «حَلَبٍ» مكان الغيث فينا الماطرِ
أتجور عن نظر لنا من بعدما ... سُمِّيت من نظرٍ لنا بالناظرِ
ومنعتَنِي الإنصافَ منك، ولم تكنْ ... تأباهُ في بَرٌّ ولا في فاجرِ؟

ويقول[3] :

إلى كم أرى «سعدًا» مقيمامكانه ... ويمضي وزيرًا عنه ثم وزيرُ؟!
يزولون حرفًا أوحمام منيةٍ ... وأرسى فما ينوي الزوال «ثبير»!
فلو نفسه يغري بها شؤم نفسه ... لأقشع إظلامٌ، وأعقب نورُ
إذا ماطلعنامن «فم الصلح» شرَّق الـ ... غراب وغار النحس حيث يغورُ
وكان ابن سوداءٍ كرهت خلاطه ... فأنّاى رواح داره وبكورُ!

ويقول[4] :

لعمركَ ما العَجَبُ العَاجِبُ ... سوى غنويٍّ له حاجبُ!
وموتُ الحقوقِ فلا يائسٌ ... يَرُدُّ غُلامي، ولا راغبُ
ولولا ابن عَمْرو وتسويفهُ ... لما غرَّني الأمل الكاذبُ!

---

(١) ديوانه : ٢/ ٩٤٥ .

(٢) سدوم : قرية قوم لوط ، انظر : هامش الديوان٢/ ٩٤٥ .

(٣) ديوانه : ٢/ ٨٩٨ .

(٤) ديوانه : ١/ ١٣٠ .

د - الحنين إلى الماضي :

ارتسمت الوجدانية والأخلاقية في الفن الإنساني منذ القدم ، وخلص شاعرنا إلى تحديد الطباع الأولى في شعره ، باعتبار أن العامل الوجداني ، والأخلاقي جانب مسيطر على أحداث الفترة التي عاشها ، بل إنها حالة مقيمة في نفسه ، وقد نحا بذلك منحىً غلبت عليه العاطفة ، ولو نظرت إلى الأمر من زاوية أعم وجدت أن التجارب العاطفية ليست شيئًا جديدًا على الشعر العربي ، أو على البحتري ؛ لأن العواطف الإنسانية لا يكاد يخلو منها أي أدب إنساني في أي عصر من العصور[1] ؛ وذلك لأن الشعر العربي مرتبط بذات الشاعر ، ولاتصافه بالغنائية . كما سبق أن بينت .

غير أن دراسة متأنية لملامح الحنين تكشف عن ارتباطه بفكرة السؤال عن الماضي ؛ وإذا فيه عودة للنفس لعقد مصالحة معها ، فهاهو يوجه شطر قلبه إلى الحنين ، وشطرًا منه إلى عدم السؤال لم كان؟ لأن سؤاله عن ذلك معناه أنه سينتهك عار المصالحة مع الذات ، وسينكشف سترها ، ولات ساعة مندم .

يقول[2] :

أخي متى خاصمتَ نفسَكَ فاحتَشِد ... لها، ومتى حدَّثْتَ نفسك فاصدُقِ!

أرى عِلَلَ الأشياء شتَّى، ولا أرى الـ ... ـتَّجمُّعَ إلا علةً للتفرُّقِ

فلا تُتْبِعِ الماضِي سُؤَالَكَ لم مضى؟ ... وعَرِّج على الباقي فسائله: لم بقي؟

ذكرتُ «أبا عيسى» فكفكفتُ مُقلَةً ... سفوحًا متى لا تسكبِ الدمْعَ تأرقِ

فتًى كان همَّ النفس أو فوقَ همِّهَا ... إذَا ماغَدَا في فضل رأي ومَصدقِ

---

(١) انظر: إلهام بنت عبدالعزيز الغنام : السابق ، ص١ .

(٢) ديوانه : ٣/١٥٤٨ وما بعدها .

### ٤ – العناصر الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي :

تتضح العناصر الوجدانية والأخلاقية في شعره التاريخي في الآتي :

### أ – عناصر خارجية :

ترتبط بالواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي عايشه . إلى جانب طبيعته الشخصية ومزاجه .

### ب – عناصر داخلية :

تتمثل في ميل الشاعر إلى الطبيعة ، وتفانيه في الحب ، والجمال ، إضافة إلى ثورة الضيق من الزمان ، التي تغلف بعض شعره ، إلى جانب طبيعته الشخصية ومزاجه .

وهو القائل[1] :

تعاظمت الحوادث حولَ حَظِّي ... وشبَّتْ دونَ بُغْيَتِيَ الحُرُوبُ

---

(١) ديوانه : ١/ ٢٨٥ .

## المبحث الرابع : حياة المجتمع العباسي من خلال شعر البحتري التاريخي :

أفاض الدارسون في الحديث عن حياة المجتمع العباسي في الشعر العربي ، وأسبابه الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والحضارية عمومًا، وليست الغاية من وراء هذا المبحث عرض الحركة بكل تفصيلاتها، وإنما هو وسيلة تبرز بروز التاريخ عند شاعرنا .

ففي دراسة الحياة الاجتماعية للعصر تتخذ الدراسة المحاور الآتية :

أ - العقيدة .

ب - المرأة .

جـ - العمران .

د - الزينة .

هـ - الأوضاع الجماعية والفردية .

ولعل حركة التوازي الطريف بين قصيدة البحتري وعصره تكشف صراحة عن التاريخ ، لذا فهو يدفع بقصائده من الخصوص إلى العموم[1] .

ويبدو أن انتقاله بنا إلى محيط المجتمع حتى ينشئ هذا التفاعل بين مختلف العلاقات الاجتماعية ، التي تتناسب مع مقومات المجتمع العباسي . ويمكن لي أن أعرض أهم مقومات هذا المجتمع حسب ما رصده الشاعر كالآتي :

---

(١) انظر : عبدالله التطاوي : حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ ، ص١٨ ، وانظر : للمؤلف نفسه ، الشاعر مؤرخًا ، ص٢٠ .

١ - العقيدة :

«طبيعي أن التزامه بالنظرة الإسلامية ، يجنبه الشطط فيما حدق فيه من زاويته الشعرية ، فالعقيدة الإسلامية تكسب الإنسان تصورًا صحيحًا ، يحدد من خلاله وجهته نحو الثورة على سفاسف الأمور ، والجري وراء الشهوات ، وتعلوه همة ، وتعالٍ عن هذا الهراء ، وتُحيله إلى فكر سامٍ ، وصفاءِ نفس»[١] .

«إذ لم تكن الخلافة العباسية مجرد تغيير سياسي فقط ، بل كانت ثورة اجتماعية ، غيرت من صورة مجتمعها إلى مجتمع إسلامي جديد ، تعيش فيه أمة إسلامية تضم عناصر بشرية جديدة ، ارتفعت منزلة بعضها -كالفرس- على الجنس العربي ، واستطاعت أن تفرض نفوذها عليه ، وتطبعه بطابعها»[٢] .

وقد أعلن ذلك صراحة في أبيات يمدح فيها المتوكل وهو يلحُّ كثيرًا على المعاني الإسلامية ، من مثل قوله[٣] :

شرفًا بني العباس إن أباكم ... عم النبي، وعيصه المتفرعُ
إن الفضيلة للذي استسقى به ... عمر، وشفع، إذ غدا يستشفعُ
وأرى الخلافة، وهي أعظم رتبة ... حقًا لكم،ووراثة ما تنزعُ
أعطاكموها الله عن علم بكم ... والله يعطي من يشاء ويمنعُ
من ذا يساجلكم، وحوض محمد ... بسقاية العباس فيكم يشفعُ

ويقول[٤] :

---

(١) عبدالحميد أبوزوينه ، ص٢١٠ . القسم الثاني .

(٢) د.محمد عبدالعزيز الموافي : حركة التجديد في الشعر العباسي . مطبعة التقدم . ص٢٧ .

(٣) ديوانه : ٢/ ١٢٩٦ .

(٤) ديوانه : ٤/ ٢٠٧١ .

إســـــلم لـــــدين محمـــــدٍ فـــإذا سَـــلِمْتَ، فقـــد سَـــلِم
نلنـــا الهـــدى، بعـــد العمـــى بـــك، والغنـــى، بعـــد العـــدم

وكما يقول[1] :

جُمِعَـتْ أُمُـورُ الـدِّين بعـد تزيُّـل بالقـائم، المـستخلف، المتوكـلِ
عرَّفتنـا سُـنن النبـي وهديَـهُ وقـضيتَ فينـا بالكتـاب المنـزلِ
حقًـا ورثـت عـن النبـي، وإنـما ورثَ الهُدَى مستخلف عـن مرسـلِ

وقد خاض في أمور عقدية ، لم يتجرأ في تقديمها وقت حضور المتوكل ، الذي هدم قبر الحسين ، ومنع الناس من زيارته ، وعدم ذكر أحقية الخلافة لآل علي بن أبي طالب في قصائده[2] ، ولكنه قصد هذا بعد وفاة المتوكل من خلال مدحه للمنتصر ، وفي ظني أنه ذهب هذا المذهب للتقرب من المنتصر ، على الرغم من قناعاته بالسنة ، ونبذ الاختلاف والتفرق .

يقول[3] :

وآل أبي طالـــــب بعـــــدما أُذيـــعَ بـــسربهم فابـــذَعَر
ونالـــتْ أدانـــيهم جفـــوةٌ تكـــادُ الـــسماءُ لهـــا تَنْفَطِـــر
وصـــلتَ شَـــوَابكَ أرحَـــامِهم وقـــد أوشَـــكَ الحبـــلُ أن يَنبَـــتِر

---

(١) ديوانه : ٣/ ١٦٢٢ .

(٢) انظر : د. عبدالعزيز سيد الأهل : السابق ، ص١٠٥ .

(٣) ديوانه : ٢/ ٨٥٠ .

٢ – الزينة :

وتظهر مشاركة البحتري في تصويره الحياة بكل ألوانها ، إذ استوقفه من اللباس ظاهرة الزينة والتزين بالمعادن الثمينة ، وأصبح شعره مرآةً انعكس فيها ترف المجتمع .

وقوله مادحًا سيوفَ قومِهِ[١] :

غدت بيضنا مثل اللجين ابيضاضها وراحت من التضراب كالذهب التبر

ويقول[٢] في معرض حديثه عن حادثة بيعة المتوكل لأبنائه من بعده :

كانوا أحقَّ بعَقدِ بيعَتِهَا ضُحَى ويَنظِمِ لؤلؤ تاجِهَا المعقُودِ

وفي سياق مدحه لأكارم الناس يقول[٣] :

كأنما الدرة ماء وجهه وجسمه أحسن من ماء الذهبْ
تحسبها في كأسه ياقوتة أو قبسًا ألهب عمدًا فالتهبْ

وما استوقفه من اللباس هو ما احتفظ به الخلفاء العباسيون من عمامة الرسول ﷺ وما ورثوه عنه ﷺ .

وهذا ماثل في قوله[٤] :

وإنا نرى سيما النبي «محمد» وسنته في وجهك الضاحك الطلق
وقد علمت تلك العمامةُ أنها تلاث على تلك النجابة والعتق

ويذكر بردة النبي محمد ﷺ من خلال مدحه للمتوكل حين خطب بالناس يوم

---

(١) ديوانه : ٢/ ١٠٨٣ .

(٢) ديوانه : ٢/ ٧٠١ .

(٣) ديوانه : ١/ ١٥٥ .

(٤) ديوانه : ٣/ ١٥٤٢ .

العيد؛ يقول[١] :

ووقفـــت في بـــرد النبـــي مـــذكرًا　　بـــالله تنـــذر تـــارة وتبـــشرُ

كما يورد لباس الخليفة المهتدي وما يحمله من زهد بمن لبس الحرير ؛ نظرًا لحرمته ، وفي هذا مناسبة للمعتقد الديني يقول[٢] :

وللصوف أولى بالأئمة من سبا الحر　　(م) ير وإن راقت بصبغ جسادها

وهكذا فإنه شاهد عصره، يصور الطبقات الاجتماعية ، من ذلك مدحه للحسن ابن سهل الذي يرجع إلى أصول فارسية متشبهًا بلباس الأكاسرة في الماضي ؛ قائلًا[٣] :

عيـــد آبائـــك الملـــوك ذوي التيـــ　　جـان، أهـل النهـى وأهـل الخـيرِ

مـــن «قبـــاذ» و«يزدجـــرد» وفـــيرو　　ز وكـــسرى وقـــبلهم أردشـــيرِ

إن للمهرجـــان حقًـــا عـــلى كـــل　　(م) كبـيرٍ مـن فـارسٍ وصـغيرِ

---

(١) ديوانه : ٢/ ١٠٧٣ .

(٢) ديوانه : ٢/ ٦٧٧ .

(٣) ديوانه : ٢/ ٨٨٦ .

### ٣ - المرأة :

لقد راق للبحتري أن يترسم صورة المرأة عامة ؛ إذ لم يقتصر على امرأة بعينها ، فأعجبته المرأة البيضاء كالبدر في حسنها ، والنجم في بُعدها ، والغصن في قدّها ، والورد في خدّها[١] .

ويبدو أن إعجاب الشاعر بجمال المرأة حسي لم يخرج عما اعتدتُ أن أسمعه من الشعراء الجاهليين ، وهم يخلعون على محبوباتهم هذه الصفات الأنثوية ، ويلهجون بذكرها[٢] .

وقد ذكر إحدى وعشرين امرأة[٣] منهن : أثيلة ، أسماء ، تكتم ، دعد ، الرباب ، زينب ، سعاد ، سعدى ، سلمى ، طلوم ، ظمياء ، عثمة ، علوة ، لبنى ، لميس ، لعوب ، ليلى ، هند[٤] .

- المرأة/ الحبيبة :

ويحسن بي أن أقف على «علوة» ؛ لأنها فيما يبدو لي ومن خلال استقراء ديوانه أو اطلاعي على دراسات سابقة ومتخصصة عن البحتري تبين لي أنها المرأة الوحيدة التي أحبها حسًا وروحًا .

فمحبوبته «علوة» تمثل عناصر الطبيعة الأربعة (الماء ، الهواء ، التراب ، النار) . وعلاقته بها .

وعلاقته بمحبوبته (علوة) علاقة متوترة يسودها الصد والقرب ، والبعد ،

---

(١) انظر : ديوانه : ٥/ ٢٩٧٨ وما بعدها .

(٢) انظر : د . أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر القاهرة . د.ت. د.ط ، ص٣٤٣ .

(٣) انظر : ديوانه : ٥/ ٢٩٨٢ .

(٤) ديوانه : ٢/ ١١٤٧ .

والهجر . يقول[١] :

يا علو لو شئت أبدلت الصدود لنا ... وصلًا ولان لصبّ قلبكِ القاسي

وهي بعيدة قريبة ، بعيدة في المكان ، قريبة إلى نفسه ، وارتباطه بها ارتباط بزمن الشباب ، والصبا ، والنخوة ، والفروسية ، وذكريات أخر .

وهذا واضح من قوله[٢] :

وما أنسى لا أنسى عهد الشبا ... (م) ب ، وعلوة إذ عيرتني الكبر

كما تعكس علاقته بها في قربه الإثارة ؛ إذ تبدو «علوة» صادة لا كرهًا ؛ وإنما تدلُّلًا ، فتثير حب الوطن والذكريات؛ يقول[٣] :

هل من سبيل إلى الظهران من حلبٍ ... ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسي

وقائلًا[٤] :

جفوتُ الشامَ مرتبعي وأُنسي ... «وعلوة» خُلَّتي وهوى فؤادي

وقوله أيضًا[٥] :

كتبتُ فأكثرتُ الكتابَ إليكم ... كذي رغبة حتى لقد مَلَّ كاتبي

أما تتقينَ الله في قتل عاشقٍ ... صريعٍ قريح القلب كالشن ذائبِ!

فأقسمُ لو أبصرتني متضرعًا ... أُقَلِّب طرفي نحوكم كل جانبِ

وحولي من العواد بالٍ ومشفق ... أباعِدُ أهلي كُلَّهم وأقاربي

لأبكاكِ مني ما ترين توجعًا ... كأنك بي يا علو قد قامَ نادبي

وقد قال داعي الحب هل من مجاوبٍ؟ ... فأقبلتُ أسعى قبل كُلِّ مجاوبِ

فما إن له إلا إليَّ مذاهب ... تكون، ولا إلا إليه مذاهبي

---

(١) ديوانه : ٢/ ٨٤٨ .

(٢) ديوانه : ٢/ ١١٤٧ .

(٣) ديوانه : ٢/ ٧٢٦ .

(٤) ديوانه : ١/ ٢١٣ .

(٥) ديوانه : ١/ ٢٨٩ .

والحق أن أبا عبادة تلفت إلى «علوة» لفتة المحب العاشق المدلِّل الصادق العاذل ، وأعطته عكس ما تمنى... وكانت مثار أرقه وشجوه ، في قصائد بدت لوحة الحزن شيئًا من ملامحها .

- المرأة/ التاريخ :

استند البحتري إلى المرأة ، وعاش حالة الشتات في تجلية الوجه الآخر للمرأة ، سواء في عصره أم في عصورٍ سابقة ، وكما هو معلومٌ أن في العصر العباسي تنوسيت المرأة العربية ، وكثرت الجواري بعد انغماس المسلمين في الترف ، ومحاكاتهم للفرس والأتراك ممن شاركوا في قيام دولتهم ، إذ ذهبت المناقب الأصيلة ، وغابت العصبية العربية[١] .

ففي سياق مدحه «إبراهيم بن المدبر» الذي هرب من أسر الزنج ، يذكر (أثيلة) في شعره ، وهي تُوازن منزلًا متجدد المعالم .

يقول[٢] :

جئنا نحيي من أثيلة منزلًا ... جددًا معالمه بذي الأنصاب

وتتحول (تكتم) دارًا عفت معالمها وينص عليها صراحة ؛ قائلًا[٣] :

لعمري لقد تامت فؤادك تكتم ... وردت لك العرفان وهي توهم

هي الدار إلا أنها لا تكلم ... عفا معلم منها وأقفر معلم

ولعل ما يعزز القول بهذا ، قوله مادحًا سليمان بن عبدالله بن طاهر ، الذي أقطع الشاعر مساحة من أرضه ليبني فيها دارًا يتملكها ؛ في قوله[٤] :

هويناك من لوم على حب تُكتما! ... وقصرك نستخبر ربوعًا وأرسما!

وما في سؤال الدار إدراك حاجةٍ ... إذا استعجمت آياتها أن تكلما

---

(١) انظر : د.حسين الحاج حسن : حضارة العرب في العصر العباسي ، ص٢٥ وما بعدها .

(٢) ديوانه : ١/ ٢٨٩ .

(٣) ديوانه : ٣/ ١٩٢٣ .

(٤) ديوانه : ٣/ ٢٠٣٧ .

إن «تكتم» هي أم مالك تعادل مطمحه الالتقاء بممدوحه ابن طاهر ، وهو ما حققه بعد يأس ؛ يقول[١] :

ذكرتك ذكرى طامع في تجمع ... رأى اليأس فارفضت مدامعه دما
ومثلك قد أعطى سليمان بلغة ... إلى المجد لو أعطى سليمان منعما

وترتبط «سلمى» بأحد جبال طي (سلمى وأجا) وهما شرقي المدينة المنورة ، وقد سكنتها قبيلته ، وكانت سلمى امرأة لها حلم يقال له أجا ، فهرب بها فلحقه زوج سلمى فقتل أجا ، وصلبه على ذلك الجبل ، فسمي به ، وكذلك فعل بسلمى على الجبل الآخر فسمي بها[٢] . ويبدو أن قبيلة طي قد احتلت هذين الجبلين في قتال وسكنتهما ؛ لأن الشاعر أشار أكثر من مرة إلى هذين الجبلين واحتلالها بالقوة ، يقول[٣] :

إذا الجبل الطائي ذلت سراته ... ولانت لطرّاق العدوّ جوانبهْ

وقوله في قومه من بني طيء[٤] :

قوم يضيمون الجبال وقد رست ... أعلامُها برجاحة الألبابِ
نزلوا من الجبلين حيث تعلّقت ... غر السحائب من ربى وهضابِ

ومن هنا فإن ماضي سلمى دليل علاقة على ماضي طيء التاريخي وموقع سكنها بعد احتلال هذين الجبلين ، منها (سلمى) ، فسلمى مرتبطة بوثاق تاريخي ، وهو مؤشر يتحول الشاعر من خلاله إلى أمنيات أبت أن تتحقق بفعل الكاشحين ؛ مما نغص على ربيبها (أجا) حواجز من سلمى وبرك غمادها[٥] .

---

(١) ديوانه : ٣/ ٢٠٤١ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان : مادة (أجا) : مادة (س ل م ى) ٢/ ٧٥٠ .

(٣) ديوانه : ١/ ٢٨٦ .

(٤) ديوانه : ١/ ٢٩٦ .

(٥) الحموي : ١/ ٩٤ .

ويقول[١] :

إذا أعرضت أحداج سلمى فنادها ... سقتك غوادي المزن صوب عهادها
وددت، وهل نفس امرئ بملومة ... إذا هي لم تعط المنى في ودادها
لو ان سُليمى أسجحت أو لو انه ... أعير فؤادي سلوةً من فؤادِها
يكثر فيها الكاشحون وبيننا ... حواجز من سلمى وبرك غمادِها

ويتخذ الشاعر (أسماء) دلالة على كثرة الحروب، وكره اللقاء؛ قائلًا[٢] :

يمضي هزيع لم يطف طائف ... من عند أسماء ويأتي هزيعُ
إذا توقعنا نواها جرت ... سواكب يحمو فيها النجيعُ
توقع الكره ازدياد الـ ... (م) عذاب من يرقبه لا الوقوعُ

وقد تدرج الشاعر في مسالك المرأة عذريًا ، فحمل من تاريخ جميل بثينة إلهامًا ممتدًا ؛ لعلاقته بغلامه نسيم ؛ يقول[٣] :

هوى لا جميل في بثينة نالـ ... ـه بمثل ولا عمرو بن عجلان في هند

وتتحول المرأة عنده تحول حروب ممدوحه أبي سعيد الثغري في وقعاته مع الروم بحبٍّ لاهب، ، على الرغم مما يقاسيه في القتال .

يقول[٤] :

ووصلت أرض الروم وصل كثيرٍ ... أطلال عزة في لوى تيماء
في كل يوم قد نتجت منيةً ... لحماتها من حربك العُشَراءِ

ويستطيع أن يرجع البحتري بالتاريخ النسوي إلى أبعاد رحبة ، يتشكل من خلالها تراث ماضٍ ، فكان من أبرز ما ذكره (الزباء ، مريم -عليها السلام-، صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها ، سعدى الطائية ، سجاح الكذوب) . ولعل من

---

(١) ديوانه : ٢/ ٦٧٤ .
(٢) ديوانه : ٢/ ١٢٥٨ .
(٣) ديوانه : ١/ ٥٢٩ .
(٤) ديوانه : ١/ ٩ .

يقرأ أشعاره فيهن يجده وظفها توظيفًا يتناسب ومعطيات التاريخ ، وقد أسرف في بعض ما قال حتى شابه شوائب من خرافات[١] .

فالحرب من الدواهي ، وحيلة من الحيل ، فقد جاءت الزباء في معرض الاتعاظ من كثرة الحروب ، والالتفاف يد واحدة حتى لا يصاب قومه من كثرة الحروب بما أصابت (الزباء) (جذيمة الوضاح) . فقد ذكر في مديحه (أبا الصقر بن بلبل) صاحب الدهاء(والزباء) قاتله (جذيمة الوضاح) ، وفيه توافق مع ما يقول . وهذا ظاهر في قوله[٢] :

و(جذيمة الوضاح) عطل تاجه ... منه، وأتبع « تبعًا » بـ «المنذر»

معروف من خلال التاريخ عن (سعدى الطائية) ما تحمله من جانبٍ كبير من المكر والدهاء ؛ إذ أشارت على ولدها أوس أن يعفو عن أسيره الشاعر الهجاء ليستبدل هجاءه في ولدها أوس مدحًا ، فصدق نظرها ، وقد أتى هذا في سياق مدحه (لأبي نهشل الطائي) ؛ إذ وافق بينه وبين معطيات التاريخ في المكيدة لأوس بن سعدى؛ يقول[٣] :

وقد شملت بشرًا لأوس صنيعة ... بما أمرت سعدى وورث لام

وقوله[٤] :

وعمرو بن معدى إن ذهبت تهيجه ... وأوس بن سعدى إن ذهبت تكايدهْ

أما (سجاح) المعروف في تاريخها الكذب ، فيستشفي بذكرها عند قتل (نجاح بن سلمة) صاحب التوقيع والتتبع على العمال في عهد المتوكل ، يقول[٥] :

وأكذب من مسيلمة بن صعب ... وأفضح في العشيرة من سجاح

---

(١) انظر : مأمون محيي الدين جنان : السابق ، ص٥٩ .

(٢) ديوانه : ٢/ ٩١٥ .

(٣) ديوانه : ٤/ ٢٠٦٦ .

(٤) ديوانه : ٢/ ٢٤٤ .

(٥) ديوانه : ١/ ١٨٩ .

ويبدو أن الشاعر يهدف من كثرة الإتيان بأسماء النساء إلى أن يزيح الستار عن الأسماء اللامعة في التاريخ ، واللاتي يعدنَ علامة بارزة في التاريخ النسوي[١] ، من ذلك ما ذكره عن أرحام الخلفاء منها (العواتك والفواطم) من جدات النبي الكريمﷺ ، ظاهر في مديحه لأبي جعفر بن علي القمي الكاتب ؛ يقول[٢] :

بين العواتك والفواطم منتمي ... يزكو به الأخوالُ والآباءُ

واستقى من (نتلة[٣]) إحدى جدات المتوكل ، والتي لها الأصل من ربيعة التي تثور في عهد المتوكل ، فيتخذها-(جاهه) بين المتوكل وأبناء قبيلتها ، فيستشفع بها إليه ، فيصفح المتوكل ؛ يقول[٤] :

أعمام « نتلة » أمكم وهي التي ... شرفت، وأخوه عامر الضحيان

وقد بلغ به الأمر أن وظف المرأة مستمدًا مما ورثته ذاكرته البحترية عن ماضي سيدنا شعيب عليه السلام وآدم عليه السلام ، وعزيز عليَّ أن ينظر للمرأة من هذه الزاوية التي لاتنصفها ، وكأنها وسمة عار ، كما ذهب إلى ذلك المجتمع الجاهلي[٥] ، قائلًا[٦] :

لسنَ مِنْ زينة الحياة كعدِّ ال ... لهِ منها الأموالَ والأبناءَ

وعلى غيرهنَّ أُحْزِنَ «يعقو ... ب» وقد جاءه بنوهُ عِشاءَ

واستزلَّ «الشيطانُ» آدم «في الجـ ... ـنة لما أغرى به «حواءَ»

ثم يعود بنفسه إلى جادة الصواب فيجعل من قصة مريم -عليها السلام- وابنها

---

(١) انظر : د. عبدالله التطاوي : الشاعر مؤرخًا ، ص١٠٧ وما بعدها .

(٢) ديوانه : ١/ ٢١ .

(٣) نتلة : بنت ضباب بن كليب بن مالك بن الضحيان ، أم العباس بن عبدالمطلب . انظر : الأعلام ، خير الدين الزركلي ، السابق ، ٤/ ٣٣ .

(٤) ديوانه : ٤/ ٢٢٥١ .

(٥) انظر : د.واجدة مجيد : المرأة في أدب العصر العباسي ، ط.(١) ، ٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ ، مركز زايد للتراث والتاريخ -العين ، ص٢١ .

(٦) ديوانه : ١/ ٤٠ .

المسيح مسارًا في حفظ المواثيق عكس ما كان من مهجوه ؛ في قوله[١] :

فخالفـــت مـــريم في دينهـــا وفارقْـــتَ نامُوســـها المنـــتهج

- المرأة/ الجارية :

وحفل العصر العباسي بعدد كبير من القيان ، كـان لهـن الأثـر الكبـير في توجيـه حياة المجتمع عامة ، والشعراء خاصة ، وجهة ناعمة لاهية ، وجهة ترهـف الحـس بالفن والجمال[٢] .

«وإذا قد ذكر الجواري فإن معنى هذا أن المجتمع توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ، ثم إلى الكمالي ، وتفننوا فيـه ؛ لأنـه لا يـستدعيها إلا مـن فـرغ مـن جميـع حاجاتـه الـضرورية ، والمهمـة مـن المعـاش ، والمنـزل وغيره ، وأمعنـوا في اللهـو واللعب»[٣].

فمن أبرز ما ذكره عن الجاريـات : (سـيرين) جاريـة كـسرى عنـد الفـرس ؛ إذ يوظف في سياق هجائه «لدحمان بن نهيك» الذي تفاخر بنسبه وبلده ؛ إذ لا يصل مجـده مجد كسرى مخدومًا بسيرين ؛ يقول[٤] :

لا تفخـــرن فلـــم ينـــسب أبـــوك إلى بهـــرام جـــور ولا بهـــرام شـــوبينِ

لا النو شـجان ولا نونجـت طـاف بـه ولا تـبلج عـن كـسرى وسـيرينِ

كما وظف (ملح) العطارة عند العرب ، وهي حلبية وكان يألفها ويتحنن إليهـا ، ويرى أن البعد عنها عدوه ، قائلًا[٥] :

وكـــان البعـــد عـــن ملـــح عـــدو الـــصبر والجلـــدِ

---

(١) ديوانه : ١/ ٤٢٢ .

(٢) انظر : د. واجدة مجيد: السابق ، ص٢٣٧.

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون . تحقيق : حامد أحمد الطاهر ، ١٤٢٥هـ ط.(١) دار الفجر للتراث- القاهرة ، ص٥١٥ ومابعدها .

(٤) ديوانه : ٤/ ٢٣١٩ .

(٥) ديوانه : ١/ ٢١٣ .

وخلاصة القول : أن للمرأة في التاريخ حضورًا مكثفًا في شعر أبي عبادة .

٤ - العمران :

أمضى البحتري زمنًا طويلًا مهتمًا بالتاريخ ، وحرص على تتبع حضارة العرب والروم ، ومما أتيح له ذلك هو معاصرته لخليفتين أولعا بتشييد القصور وعمرانها ، وهما الخليفة «المتوكل على الله» ، وابنه «المعتز» ، فيذكر قصر (الساج ، والجعفري ، الجوسن ، والبديع ، والصبيح) «وكلها من قصور المتوكل الذي لم يفق غرامه ببناء القصور إلا شغف عبدالرحمن الناصر بها في الأندلس»[1] .

«وقد بنى الخليفة المتوكل قصر الجعفري عام ٢٤٥هـ ، وقتل فيه عام ٢٤٧هـ .

وكان قد اعتنى في زخرفته ، وشيده فوق ربوة عالية تجري تحته دجلة ، وجلب إليه وسائل الحضارة ، كما أحاطت به حديقة فسيحة تلاعب الريح أشجارها»[2] .

يقول في وصف هذا القصر في قصيدة مدح بها المتوكل[3] :

قد تم حسن الجعفري ولم يكن ... ليتم إلا بالخليفة جعفرِ

ملك تبوأ خير دار إقامة ... في خير مبدى للأنام ومحضرِ

في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ ... وترابها مسك يشاب بعنبرِ

مخضرة والغيث ليس بساكبٍ ... ومضيئة والليل ليس بمقصرِ

فرفعت بنيانًا كأنّ زهاءهُ ... أعلامُ رضوى أو شواهقُ خَيبَرِ

أزرى على هم الملوك وغضَّ من ... بنيان كسرى في الزمانِ وقيصرِ

عالٍ على لحظِ العيونِ كأنما ... ينظرنَ منهُ إلى بَياضِ المشترِي

مَلأتْ جوانبُهُ الفضاءَ وعانَقَتْ ... شرفاتُهُ قِطعَ السَّحاب الممطرِ

---

(١) د. مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي. ط. ١. ١٩٧٩م. دار العلم للملايين- بيروت، ص٧١٥ .

(٢) ابن الأثير : السابق ٤/ ٢٥٤

(٣) ديوانه : ٢/ ١٠٤٠ وما بعدها .

وتسير دجلةُ تحتهُ فَفَنَاؤهُ ... من لجةٍ غمرٍ ورَوْضٍ أخضرِ
شجر تلاعبه الرياحُ فتنثني ... أعطافُه في سائحٍ متفجِّرِ

وفي موضع آخر يصف الشاعر قصرين من قصور المتوكل ، وهما الصبيح والمليح ، ويذكر ياقوت في معجمه أن المتوكل أنفق على بناء الصبيح خمسة آلاف درهم ، وأنفق على بناء المليح مثلها ، وقد أنشأهما في سامراء[1] .

ويقول في مدحه للمتوكل ويصف قصريه الصبيح والمليح[2] :

واستتم الصبيح في خير وقتٍ ... فهو مغنى أنسٍ ودارُ مُقَامِ
ناظرٌ وجهة المليح فلو ينـ ... ـطق حيا معلنًا بالسلامِ
ألبسنا بهجة وقابل ذا ذا ... ك فمن ضاحكٍ ومِنْ بسَّامِ
كالمحبين لو أطاقا التقاء ... أفرطا في العناق والالتزامِ
تنفذ الريح جريها بين قطريـ ... ـه فتكبو من ونية وسآمِ
مستمد بجدول من عباب الـ ... سَّماء كالأبيضِ الصقيلِ الحسامِ
فإذا ما توسَّط البركة الخضـ ... راء ألقت عليهِ صبغ الرخامِ
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماءُ غمامِ
والدواليبُ إذ يدرن ولا نا ... ضح يسقى بهنَّ غير النعامِ
إن خير القصور أصبح موهو ... بًا بكُرْه العدى لخير الأنامِ
جاور الجعفري وانحاز شبدا ... ز إليه كالراغِبِ المعتامِ
حللٌ من منازلِ الملك كالأنـ ... ـجم يلمعنَ في سواد الظلامِ
مفحمات تعيي الصفات فما تد ... رك إلا بالظن والإيهامِ
فكأنا نُحِسُّها في الأماني ... أو نراهَا في طارقِ الأحلامِ
غُرَفٌ من بناء دينٍ ودنيا ... يوجبُ اللهُ فيه أجرَ الإمامِ
شوَّقتنا إلى الجنانِ فَزِدنا ... في اجتناب الذنوب والآثامِ

(١) انظر : هامش الديوان ، ص٢٠٠ .

(٢) ديوانه : ٣/ ٢٠٠١ .

وهكذا أبرز الشاعر قصر الساج الذي بناه الخليفة المعتز فقال[1] :

وكأن قصر الساج خلة عاشق ... برزتْ لوامقها بوجهٍ مونّقِ
قَصْرٌ تكامل حسنهُ في قلعة ... بيضاءَ واسطةٍ لبحرٍ محدقِ
داني المحل فلا المزار بشاسع ... عمن يزور ولا الفناءُ بِضَيِّقِ
وإذا الرياح لعبن فيه بسطن من ... موجٍ عليه مدرَّج مترقرقِ

وفي قصيدة أخرى يمدح المعتز يصف فيها «الزو» واحدًا من قصور المتوكل ؛ يقول[2] :

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه ... إله لأن النيل من تحتهِ يجري
ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها ... لقلّ لديه ما يكثر من مصرِ
ولو بصرت عيناه بـ «الزوّ» لا زدرى ... حقير الذي نالت يداهُ من الأمْرِ
إذًا لرأى قصرًا على ظهر لجةٍ ... يروح ويغدو فوقَ أمواجِها يجري

وقال أيضًا يصفه[3] :

أبى يومنا بالزو إلا تحسنًا ... لنا بسماعٍ طيبٍ ومدامِ
غنينّا على قصر يسير بفتية ... قعودٍ على أرجائه وقيامِ
تحدر بالدَّرّاج من كل شاهقٍ ... مخضَّبةٌ أظفارهنَّ دوامِ
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تَدفّق بحرٌ بالسماحة طامِ
ولا جبلًا كالزوّ يوقف تارةً ... وينقاد إما قدته بزمامِ

يقول ياقوت : «الزو نوع من السفن عظيم ، وكان المتوكل بنى في كل واحد قصرًا ، وعلى هذا فالقصور التي بناها المتوكل تسمى بالزو ، وأن السفينة التي تحمل القصر تسمى باسمه .

---

(١) ديوانه : ٣/ ١٤٧٩ وما بعدها .

(٢) ديوانه : ٢/ ١٠٥٣ .

(٣) ديوانه : ٣/ ١٩٩٧ .

وهكذا فإن المجتمع الحضري قد أعطى البحتري فائدة من حيث إبراز تاريخ الحضارة التي عاش وسطها ، ومن حيث ما شاهده من العمران والازدهار في القصور الفخمة ، والعمارات الضخمة ، التي كان لها دور في توسع خيال الشاعر[١] .

## ٥ - الأوضاع الجماعية والفردية :

لا شك أن الشاعر لن يلقى القبول من مجتمعه إلا إذا امتلك ناصية التأثير في سامعيه ، «وهو الذي يستطيع أن يتحدث عن آلام الحرمان ، حتى وإن لم يعشه ، وكم من واحد يعيش آلام البؤس ، ومع ذلك لا يستطيع أن يصوغ تجربته ؛ لأنه لا يملك القدرة الشعرية اللازمة»[٢] .

لقد تأثر أبوعبادة بالحياة الخارجية خارجة عن قصر الخلافة ، وهاهو ذا يستمد شعره من أوضاع المجتمع بحالتيها الفردية والجماعية ، وقد تحدوه في هذا النظرة الناقدة التي تنظر بمعيار آخر ، تبرز الحقيقة في قوتها . وهنا تأتي العبارة المأخوذة عن بعض النقاد التي تقول :

«إن الأدب نقد للحياة[٣]» .

وفي مأزق الوضع الجماعي تنشأ الغربة الفكرية المتمثلة في طريقة تفكير المجتمع في ظل التحول الحضاري الشامل الذي انتقل فيه المجتمع إلى أنظمة صدرت من مفهوم التوسع في مصطلحات الدولة ؛ لتخلق تصورًا في الروابط الاجتماعية ، من ذلك نظام الحجابة[٤] .

---

(١) انظر : د.حسين الحاج حسن : أعلام في العصر العباسي ، ط(١)، ١٤٠٥هـ الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت ، ص١٦٩.

(٢) د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه : د.ط ، ١٩٩٨م . دار نهضة مصر ، ص١٧-١٨ .

(٣) د. عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه . دار المعرفة ، ص٢٩ .

(٤) انظر : د. حسين الحاج حسن : حضارة العرب في العصر العباسي . ط١، ١٤١٤هـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- بيروت ، ص٢٠١ .

وفي ذلك يقول[١] :

ياسعد إنك قد حجبت ثلاثة ... كلّ عليهِ مِنكَ وشم لائحُ
وأراك تخدم رابعًا لتبيدهُ ... فارفق به! فالشيخُ شَيخٌ صالحُ
ياحاجبَ الوزراءِ إنكَ عندهم ... «سعد» ، ولكنْ أنتَ سَعدُ الذابحُ

ومثله قوله[٢] :

صككتَ على «سليمانَ بنِ وَهْبٍ» ... «أبا حَسن» بِديوانِ البريدِ
وآل «أبي الوزير» رغوت فيهم ... رغاء البكر في وادي «ثمودِ»
وأما «أحمد بن أبي دواد» ... فقد أيتمْتَ منهُ أبا الوليدِ
فشدَّ الله من بغدادَ ركنًا ... وسلَّم منك أولاد «الرشيدِ»
وكلُّ مديحةٍ لكَ في أناسٍ ... فإنَّ قصيرها: ياعين جودِي
وأيَّة نعمةٍ لم ترمِ فيها ... بِشُؤمٍ مِنكَ يثلم في الحَدِيدِ؟!
حَنانيكَ ارحم الشعراءَ وامنُنْ ... عليهِمْ باجتنابِ «أبي سعيدِ»!

وفي ظل القيم أو الأوضاع الجماعية وعدم الرضا عنها ينشأ لديه الشعور بالدونية ومالها من تبعات في نفوس الآخرين ، وفي هذا يقول[٣] :

أشكو إلى الله ثلاثًا، وهنَّ: الجوعُ والغربةُ والعُزبَهْ
ونحن أضياف «أبي خالدٍ» ... نهيمُ بَينَ القصرِ والرّحبةْ
لا ينفذ القوت إلى غيره ... كأنما نضمر للحلبةْ!

وينشأ عن الوضع الفردي له غربة جمالية متمثلة في الثورة على القصيدة العربية التقليدية ، التي نشأ عنها معركة أدبية كبرى بين أنصار القديم ، وأنصار الجديد ، المنجرف مع حضارة العصر ؛ إذ طرحت بشكلٍ واضح نظرةً متناسبة ، وروح

---

(١) ديوانه : ١/ ٤٦٢ .

(٢) ديوانه : ١/ ٧٨٢ .

(٣) ديوانه : ١/ ٢٤٠ .

العصر التي لم تتفق وثقافة الشاعر[1] . وهذا ظاهر من قوله[2] :

وكـــان حقًّـــا عـــلى أفعلـــه ... إذا تـــأبَّى الـــصَّديقُ أجتنبـــهْ
والنـصفُ منِّـي متـى سَـمَحْتُ بـه ... مـــع اقتـــدارِي تطـــولًا أهبـــهْ
خـــيرتي عقـــل صـــاحبي فمتـــى ... ســـقت القـــوافي فخـــيرتي أدبُـــهْ
العقـــل مـــن صـــنعة وتجربـــةٍ ... شـــكلاني: مولـــوده ومكتبُـــهْ
كلفتمونـــا حـــدود مـــنطقكم ... في الشعر «يلغي عـن» صِـدْقِهِ كذبُـهْ
ولم يكـن ذو القـروح يلهـج بـالمنطق ... منطـق مـا نوعُـهُ، ومـا سـببُهْ ؟
والـــشِّعرُ لمـــحٌ تكفـــي إشـــارتهُ ... ولـــيس بالهـــذرِ طوّلَـــتْ خُطَبُـــهْ

ومن هنا يتضح اتضاحًا تامًا أنه يصعب على دارس شعر البحتري أن يتجاهل تأثير الواقع الاجتماعي عليه ؛ إذ تظل قصائده مشاركة طريفة ، ويظل إسهامًا في إثراء حقيقة المجتمع ، مع التحفظ على خصوصية الرؤية الشعرية عنده ؛ إذ ليس من المعقول أن يتحول شعره إلى بديل محقق للمؤرخ أو لعلم الاجتماع ، إنما هو يقع في طرف مواز لهما[3] .

---

(١) انظر : إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط.(٤)، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. دار الثقافة بيروت- لبنان ، ص٤٠٤ .

(٢) ديوانه : ٢٠٨/١ .

(٣) انظر : عبدالله التطاوي : الشاعر مؤرخًا ، ص٢٠ ، وانظر : للمؤلف نفسه حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، ص١٨ .